طبعة ثانية

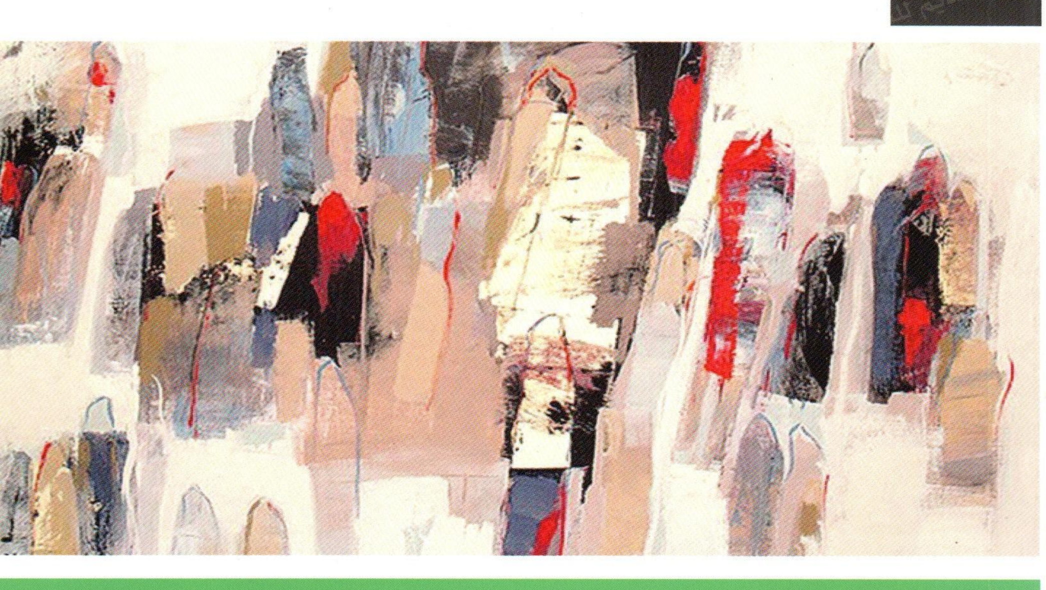
جوليان بيندا

نديم للترجمة

خيانة المثقفين

ترجمة: محمد صابر

تقديم: محمد شعبان صوان

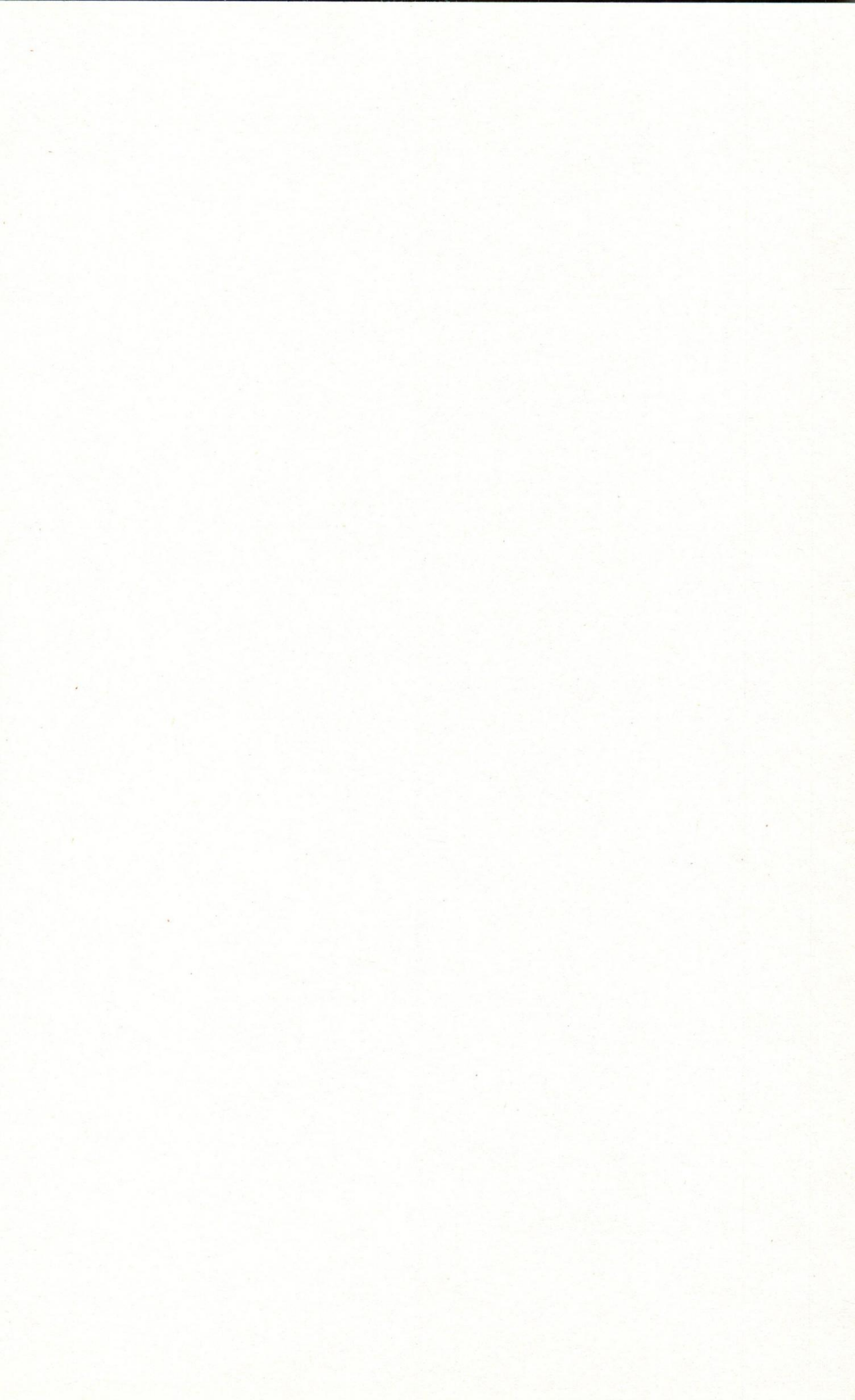


ابن النديم للنشر والتوزيع

Editions Ibn nadim

دار الروافد الثقافية - ناشرون

خيانة المثقفين



ابن النديم للنشر والتوزيع   دار الروافد الثقافية - ناشرون

جوليان بيندا

خيانة المثقفين

ترجمة

محمد صابر

تقديم

محمد شعبان صوان





العنوان الأصلي للكتاب

THE TREASON OF THE INTELLECTUALS
Julien Benda

خيانة المثقفين

جوليان بيندا

الطبعة الأولى، 2020
عدد الصفحات: 276
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي ISBN: 978-614-466-079-9
الإيداع القانوني: السداسي الأول/2020

ابن النديم للنشر والتوزيع

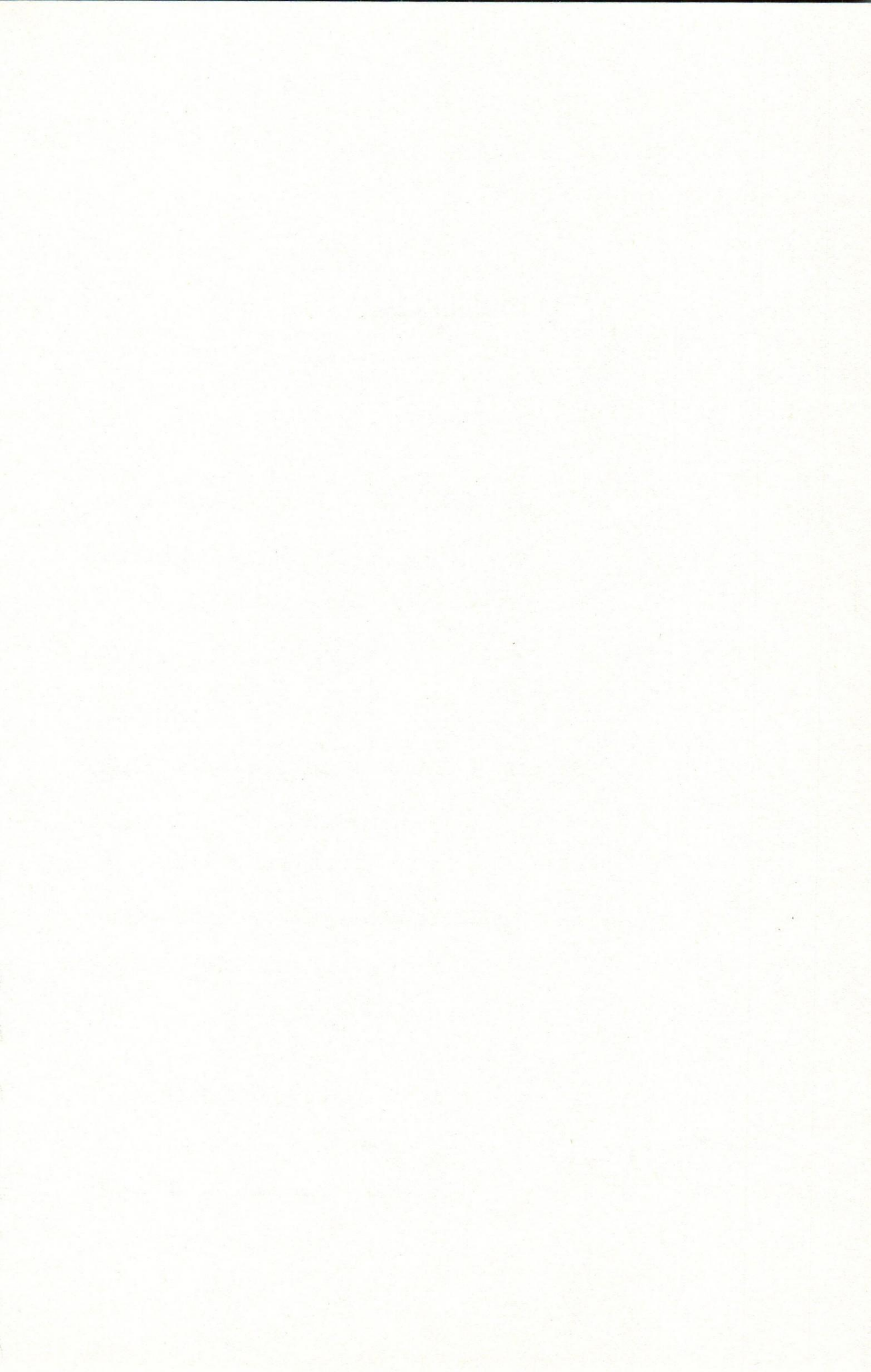
الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية
خلــوي: 03 76 20 661 213+

وهــران: 51 شارع بلعيد قويدر
ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلــوي: 03 76 20 661 213+
Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

خلوي: 28 28 69 3 961+
هاتف: 37 04 74 1 961+
ص. ب.: 113/6058
الحمـراء، بيروت-لبنان
Email: rw.culture@yahoo.com
info@dar-rawafed.com
www.dar-rawafed.com

المحتويات



«يعاني العالم دائماً من تكذيبه للحقيقة المجردة»

رينوفير



مقدمة الطبعة العربية

من واقع المثقف العربي

ملخص الكتاب

يتحدث الكتاب عن خيانة المثقفين، فمن هم المثقفون الذين يعنيهم الكاتب؟ وما هي الخيانة التي ارتكبوها؟ ومتى كان ذلك؟

يقصد الكاتب بفئة المثقفين هم «أولئك الذين لا يسعون وراء المصالح والمكاسب، بل يجدون سعادتهم في ممارسة فن أو مزاولة علم أو البحث في نظريات ما وراء الطبيعة، وتتلخص سعادتهم في الترفع عن ملذات الحياة، ومن ثَمَّ أعبر عن ذلك بطريقة خاصة فأقول «إن مملكتي لا تنتمي إلى هذا العالم»، والحق أنني وجدت، أثناء مطالعتي للتاريخ منذ أكثر من ألفي عام وحتى وقتنا هذا، مجموعة متواصلة من الفلاسفة ورجال الدين والأدباء والفنانين والعلماء (يمكن القول جميعهم تقريباً في هذه الحقبة) كان تأثيرهم وحياتهم في تعارض مباشر مع واقعية الغالبية العظمى من العامة».

والكاتب يعترف أن واقعية البشر العاديين تدفعهم لارتكاب الشر باستمرار، ولكن طوال عمر البشرية لم يتحول الشر إلى خير رغم إصرار الإنسان على ارتكابه، وظل ضميره يؤنبه كلما ارتكب هذا الشر، وظل محباً للخير حتى لو سلك ضده، لاسيما بوجود الفئة المثقفة التي تقف حارسة على قيم الخير سواء بعدم مبالاتها بدوافع الشر ومكاسبه أو بالتصدي لمن يرتكب هذا الشر دون البحث بذلك عن مكاسب دنيوية، وهذا التناقض هو الذي صنع الحضارة الإنسانية في نظر الكاتب، فعدم مس القيم من الناحية النظرية هو الذي يبقي على الحضارة الإنسانية حتى لو انتهكت فعلياً.

ولكن ما هو الشر الذي يتحدث عنه الكاتب؟

الكاتب يحدد دوافع السلوك البشري الدنيوي بدافعين: تحقيق المصلحة المادية، والحصول على التقدير، ويلخص الشر في مصطلح المشاعر السياسية، وهي المشاعر التي يحس الإنسان بها أنه مختلف عن الآخرين، أي أنها معاكسة للمشاعر الإنسانية العالمية التي يدعو إليها، ويصنف المشاعر السياسية إلى قومية وطبقية وعرقية، وقد صارت تتحكم بقطاع عريض من الناس منذ القرن التاسع عشر، خاصة وأنها تلبي دوافع السلوك البشري الدنيوي: فهي تسعى إلى الحصول على المكاسب المادية، وإشباع رغبة التميز والتعالي عند الإنسان، وقبل ذلك كانت الدول تتحارب لأجل نزعات الحكام ولكن القواعد الشعبية كانت لا تأبه بهذه النزعات، وتهتم فقط بما يصيبها من

أضرار مادية، أما حديثاً فقد تحكمت الكراهية بكتل ضخمة متناغمة من الناس، لا سيما نتيجة انتشار المشاعر القومية التي اخترعتها الديمقراطية فجعلت الحروب أكثر احتمالاً من قبل، ودعمت هذه المشاعر أفكارٌ وعقائد فلسفية لم تكن موجودة في السابق بررت تفضيل الذات على الآخرين وفرض الهيمنة عليهم وبذلك أعطت الكراهية رسوخاً غير مسبوق، واصطبغت بمسحة روحانية وصارت كالعشق الديني لكونها ممارسات شعبية، ورجح انتشار المشاعر القومية في أوروبا الحروب القومية على الحروب الأهلية الداخلية.

ويحدد الكاتب سنة 1813 وألمانيا بصفتها بداية لهذا التحول، ومنها انتقل إلى بقية أوروبا، فقد تم التراجع عن قيم التنوير التي تم التوصل إليها في القرن الثامن عشر، ولم تكن حروب الثقافات معروفة قبلها بل كانت الشعوب حتى المتحاربة منها تحترم ثقافات بعضها البعض، ولكن هذا التحول شمل المثقفين لأول مرة في تاريخ البشرية منذ نهاية القرن التاسع عشر حيث لم يعودوا يتصدون للشر الذي ملأ السياسيون به العالم، بل صاروا يشاركون فيه ويؤدون دور المحرك له سواء 1-بتبني الفكرة القومية على طريقة السياسيين فصاروا يعتنقون كراهية الغرباء وجعلوا الدولة التي ينتمون إليها دولة خالدة خلافاً لمن سبق من المثقفين الذين كانوا يعتقدون بزوال أي كيان، وجعلوا أنفسهم جزءاً من كيانهم القومي وليس تعبيراً عن فرديتهم المستقلة، وبذلك خانوا وظيفتهم الأساسية التي كانت

تفترض أن يتصدوا للظلم الذي تمارسه الشعوب ويقيموا صرح العدل والحق، ولكنهم الآن لا يفهمون للحق معنى سوى خدمة المصلحة، أو 2-بجعل هذه المشاعر القومية جزءاً من وظيفتهم وأعمالهم وليست مجرد عمل إلى جانب عملهم، أو 3-بالتخلي عن معتقدهم الإنساني الشامل لصالح الإيمان بالتميز القومي ونشر الكراهية بين الشعوب، سواء اتخذ هذا التميز صفة طبقية كما في الفاشية والشيوعية، أو اتخذ صفة أخلاقية رفعت مكانة الأخلاق ما دامت في صالح الأمة ولو على حساب غيرها من الأمم، أو اتخذ صورة الاهتمام بالواقع الحالي وغض النظر عن الحق والعدل الذي كرس المثقف نفسه له منذ الأزل، فما يهم هو الواقع وما وراءه لا يستحق الاهتمام.

كما أن المثقفين أصبحوا يؤيدون الدوافع المادية ضد الحياة الروحية، وانعكس ذلك على سلوكهم تجاه الحكام الجبابرة بتأييد عدوانيتهم وتسلطهم وجعل الأخلاق تابعة لمصالح سياساتهم بعدما كانت الأخلاق هي التي تحدد السياسة في زمن أفلاطون، وحتى مكيافيللي لم يغير الأخلاق بل فصل السياسة عنها وجعلها غير تابعة لها مع إقراره بكون الأخلاق السليمة هي الصواب، ولكن العصر الحديث غيّر مفهوم الأخلاق نفسها وجعلها تابعة للسياسة فاحتقرت العدالة ومجدت العظمة وصار الوفاء من شيم الضعفاء والعدل من صفات العبيد، وانجرت الكنيسة نفسها لهذا الانحراف وصارت تمجده باسم الدين، ولكن الكاتب يدحض تبريراتها ويبين أن الدين

عالمي وليس محصوراً بفئة قومية ويظهر زيف الحجج التي اتخذت لتبرير القومية والاستعلاء دينياً، وبين أن الدين أقر بالفروق بين البشر ولكنه لم يجعلها موضع تفاخر، بل أكد على الجوهر الروحي للإنسان بصفته الفيصل في الحكم عليه، ولكن المثقفين أصبحوا يبالغون في تمجيد الخصوصيات إلى درجة رفض الأخلاق العالمية لصالح أخلاق خاصة تقدس الشهوات وتبرر العنف ولا ترى العدالة إلا حسب الأهواء، ويدحض الكاتب الفكرة العلموية التي تجعل السياسة محكومة بقوانين مثل العلوم البحتة، وأكد أنه حتى بالملاحظة والتجريب فإن ظروف الدول لا تتبع وجود الجيش القوي والشعب المطيع بل وجود العدل والاحترام، كما يرفض فكرة تبرير أخطاء الإنسان بأنه «هكذا خلقه الله وهي طبيعة لن تتغير» ويدحضها بالقول إنها تجهل أن المثالي يعمل كما يعمل الواقعي ويصل إلى هدفه كما يفعل الواقعي تماماً للحفاظ على أهدافه، ويؤكد أن الدين حث الإنسان على العمل في الطبيعة ومواجهة أخطارها، لكن من نابع خصال الروح والعدالة وليس بصفته وصياً أو مخالفاً لوحدته مع الكون.

وعند الحديث عن أسباب هذا التدهور الذي أصاب حالة المثقفين ودورهم في كبح جماح النفعية والمادية بين الأمم، يضع الكاتب اللوم على مركزية الدولة التي جعلت كل المواطنين تحت هيمنتها وسلطانها مهما كانت مكاناتهم الأدبية، بالإضافة إلى إيجادها الروابط القومية التي لم تعرف في السابق

وجعلت من حب الوطن فضيلة يتعصب الإنسان لها، كما أن المصالح المهنية التي جعلت للمثقفين القدرة على البروز والانضمام للنخبة لو قاموا بالدور السياسي الداعم للطبقة الحاكمة التي تملك اضطهاد المثقف لو حاد عن الطريق «القويم»، ويضاف إلى ذلك دوافع الرغبة في النجاح الفني (الذي صار بعيداً عن المحتوى الفكري حيث يتساوى الحق والباطل) والإثارة (كمشهد انطلاق الصواريخ للتدمير) وتراجع الأدب الكلاسيكي الذي كان يغرس المفاهيم العالمية، وما شاهده العالم ومنه المثقفون من هوة كبيرة بين المثاليات والوقائع مما جعلهم يلعنون المثالية ويلتصقون بالواقعية وتصبح القسوة والوحشية لديهم من صفات الشخصية النبيلة، والمحبة مدعاة للضحك والسخرية، وأصوات المعاناة تختفي وسط ضجيج الدعوات للحروب والاستعباد، وصار ذلك مدخلاً للتأثير على عقول العامة السذج حيث تقدس ثقافة السلاح وليس ثقافة العلم.

فوائد الكتاب لواقعنا

في هذا الكتاب يضع المؤلف يده على مشكلة بل كارثة كبرى أصابت البشرية من الحضارة الحديثة، سببها الرئيسي أنها تركت السماء ونظرت إلى الأرض وحدها، هذه الكارثة هي التحول في المفاهيم، وهو يبذل جهداً كبيراً لتوضيح المصيبة التي نتجت عن هذا التحول رغم أن البشرية منذ الأزل كانت

ترتكب الخطايا، بل نراه يتحدث عن أن تصرفات البشر دائماً دنيئة ما لم يكونوا من رجال الدين، ولكن عندما يصبح الخطأ هو الصواب والصواب هو الخطأ في الذهن البشري ينتج عن ذلك الكوارث التي وقعت في زمنه بالإضافة إلى التي توقعها مستقبلاً.

وفي رصده لهذا التحول يعرض لنا المؤلف المعضلة التي واجهها المثقف، إما أن يعطي موافقته على الواقعية المادية النفعية ويخون بذلك مثاليته، أو يواجه العقوبة الصارمة والتي تصل إلى حد الموت إذا أصر على دعم الصواب فيضعف بذلك موقف دولته، وإن عدم وقوفه هذا الموقف الصلب وانضمامه إلى السياسيين سيحول العالم إلى فوضى.

ويهمنا فيما عرضه من أمثلة الانحراف ما أصاب فئة المؤرخين الذين صاروا أدوات بأيدي السلطات الحاكمة ولا يؤدون ما تمليه عليهم مهنتهم الأكاديمية، فقد تركوا التاريخ الواقعي وسردوه بما يناسب مشاعر أوقاتهم، يغيّرون التاريخ لتمجيد الوطن أو النظام الحاكم، وهو ما نتج عنه الحروب القومية والأهلية، فهم خدام للمادة وللحزب وللدولة الوطنية يرون الحق ما أدى إلى عظمتها بغض النظر عن مدى صلته بالحقيقة، ويحرمون السياسي من سماع القول المعارض الذي هو ضروري لمصلحة الدولة.

هذا التدهور الذي أصاب المثقفين وجعلهم يخونون

طبيعتهم التي ساروا عليها منذ آلاف السنين يفسر لنا معضلة هامة عند الحديث عن التاريخ المقارن: إذ نلاحظ أن المثقف في الحضارات السابقة كثيراً ما كان يواجه الضغوط والعقوبات ولكن هذه الظاهرة تكاد تختفي في عالم الحضارة الغربية التي يكتب المؤلف من واقعها، ولعله يفسر ذلك بسبب سير عموم المثقفين في ركاب السلطة بل تحولهم إلى جزء من الطبقة المهيمنة بعدما تم تدجينهم للأسباب التي عرضها، وليس ذلك بسبب حرية من شاء أن يقول ما شاء، ولا يمكننا أن نقول إننا وصلنا إلى الفردوس الأرضي الذي لم يعد بحاجة إلى الاعتراض والتقويم وأن الثقافة الجديدة أنتجت عالماً سعيداً، فنحن في خضم عالم يعج بالكوارث في كل جانب من جوانبه، سواء في الطبقية السائدة بين نخبة يسيرة تملك كل شيء وجماهير محرومة من أي شيء، والاحتكار السياسي الذي تمارسه دول محدودة إن لم نقل دولة واحدة في القرار العالمي، والحروب المنتشرة تغذيها تجارة السلاح، والتلوث الذي تخلل ثنايا الهواء والماء والبر وجعل الحياة على حافة الانتحار بعدما دمرت البيئة وانقرضت نسبة كبيرة من الأحياء واستنفدت الموارد لصالح نخبة محددة، وتفككت الحياة الاجتماعية التي استمرت منذ فجر التاريخ، وصار الاعتراض على كل ذلك موكولاً للجمعيات الخيرية وجامعي التوقيعات، والحفاظ على القيم موكولاً للأيام السنوية الاحتفالية التي تذكّر عبثاً بمن همشهم الجري اللاهث الذي لا يهدأ خلف المادة: فيوم لكوكب

الأرض ويوم للسكان الأصليين ويوم للأم وآخر للأب وثالث للأسرة وغيره للغة من اللغات وغيره للبيئة أو للماء أو للمعلم أو للفقر وكل ما نسيه العالم ولوثه وظلمه، المهم لا نرى يوماً للمال ولا للذهب ولا للثري، لأنهم غير منسيين قط وهم حاضرون في كل زمان ومكان، فالاعتراض لا يتناسب مطلقاً مع أحجام الكوارث والتهديدات والتخريب، ولكن تفرغ طاقة الاعتراض وتوجه جهود الإصلاح بحيث لا ينقلب الوضع على المستفيدين من الواقع، وأصبح أي صوت يهدد «استقرار» هذا الجور العام جرأة لا يقدم عليها كثيرون، يدلنا على ذلك المحن التي أصابت نزراً يسيراً من المثقفين الذين تجرؤوا على مصادمة الاعتقادات التي تروجها السلطات وتتقبلها المجتمعات سواء في العلوم الإنسانية أم العلوم البحتة، حتى أن كثيراً منهم تنتهي سيرهم العلمية إلى الطرد والنسيان ولا يؤتى على ذكرهم، ولو اطلعنا على نسبة من يتصدون غير آبهين بهذا الاغتيال الاجتماعي والعزل العلمي لوجدنا أنها نسبة أقل من المثقفين الذين كانوا يواجهون الموت في الماضي ثمناً لكلمة الحق، وهذا دليل على قسوة العقوبة التي يواجهها المثقف اليوم في الدولة المركزية وتتركه مفضلاً السلامة مع وهم الحرية والنقد وانسياب المعلومات، على المواجهة التي تفضح كل تلك الأضاليل ولكنها تنتهي بالانتحار المعنوي، هذا مع وجوب الاعتراف بأن الطبقة الأكاديمية تتحدث عادة بمعزل عن عامة الشعب الذي يتصف عموماً في الغرب وفي كل مكان بعدم

الثقافة، مما يفسح المجال لتنفيس مشاعر الاعتراض بإثارة الزوابع الثقافية في الفناجين الأكاديمية الضيقة، أما السلطات الحاكمة لاسيما في زمن صعود اليمين المتطرف فتفضل أصوات الإثارة الشعبوية من أشباه المثقفين ومحترفي النصب والاحتيال والمتكسبين من دروس المحبة وعدم الكراهية التي لا يستفيد منها نفس رعاتها ولكنهم يروجونها ويفضلونها على الأصوات الأكاديمية الرزينة، وبمقارنة ذلك بماضي بقية الحضارات نجد أنه في الماضي كان نقد المثقف موجهاً ضد الشر الذي تجسده السلطة غالباً، فكان يتصدى ويصدح بالحق ويجد الكثير من الأعوان الذين يمكنونه من إيقاف الشر عند حده، مما يدل على أنه ليس أفيوناً يخدر العامة، وعند مطالعة التاريخ والتراث نجد معظم العلماء والفقهاء في تصد مستمر للاعوجاج مما جعلهم في محن شديدة ومستمرة، ولكن في زمننا صار الظلم معولماً ومنتشراً عالمياً وإن عدم انتشار القمع يدل على صفة سلبية في المثقف وليس على صفة إيجابية في الواقع، فالكاتب يلاحظ أن نموذج رجل الدين المعترض على المظالم، كما اعترض لاس كازاس على اضطهاد هنود أمريكا، لم يعد موجوداً اليوم، رغم استمرار المظالم، وجود القمع قديماً يدل على مصداقية المثقف الصادح بكلمة الحق، ولكن مع استمرار الظلم والفساد وهدوء المثقف فهذا دليل على أنه يساير الظلم أو أنه أصبح معزولاً في تخصصه ونقده دون أن يستطيع تقديم البديل العملي، ولهذا فإن الظلم المؤسسي لم يعد يأبه بزوابع فناجينه وإثباتاته التي لا

يطلع عليها سوى الناشطين المتحمسين أصحاب الميول الغريبة التي تساوي بين كل المشاكل التي يزدحم بها عالمنا ولم يعد عندها من الوقت لكل مشكلة سوى ما يكفي لجمع بعض التواقيع، وازدحم اهتمام المطلعين على جداولهم بقضايا توضع جميعاً في سلة واحدة، أما إذا قدم المثقف نقداً لاهباً وحرك البرك الراكدة حورب حرباً شعواء، وهؤلاء القلة سمعنا عنهم كثيراً واشتهرت قضاياهم في الآفاق، وربما صنفوا بأنهم مثقفون ساخطون يزعجون بضوضائهم راحة بال المستريحين ويقلقون المطمئنين إلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان.

نستفيد من شكوى الكاتب من ظواهر سلبية كثيرة وجدت في عالم الغرب ونحن نظنها خاصة بشرقنا منذ الأزل، فالكاتب يتحدث عن الدول المركزية والعصبيات الوطنية وهيمنة العسكر وتأليه الحكام ونفاق المثقفين وعقوبات الموت الصارمة التي تقع على الساخطين والمتمردين منهم، نعم هي مراحل مرت بها الأمم التي نظنها نموذجاً أزلياً أعلى، ومع ذلك وجدنا أن غياب عقوبات الموت ضد المثقفين في زمننا لا يعني أنهم صاروا أكثر حرية في النقد ولا أن المظالم اختفت بل دل كل ذلك على قدرة تدجين عالية.

نستفيد من قول الكاتب إن هناك عالماً فقد معناه، أي «معيشة ضنكا»، حيث تقرر المنفعة المادية قيم الخير والعدالة، ويستخدم النقد لأجل المنفعة «وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه

مذعنين»، بل حتى معارضة الباطل تكون في سبيل باطل أكبر، فقد تُعارَض الغطرسة لأجل المنفعة أيضاً بنوع أشد من الغطرسة، حتى البحث فيما وراء الطبيعة صار مقيداً بالواقع، وصارت صورة الإله تضمن المكاسب الدنيوية، وهذا الواقع ليس مجرد مظهر سطحي للعالم الحديث بل هو جوهره حيث صار ظهور مثقف حقيقي أصعب من الماضي لأن طبيعة الجبر الذي يتعرض له الناس قيد حركتهم وجعلهم مجبرين على أداء المهام الدنيوية وهو ما ينذر ليس باختفاء المثقفين وحسب بل بانهيار المجتمعات، «فالتوجه نحو المادية قد صار أمراً عاماً، وأصبحت المطالبة بها ضرورية لكسب الجمهور، إلى ذلك استحالت فكرة «أن تكون مثقفاً» إلى الغموض، حتى عند هؤلاء الذين ما زالوا يميلون إلى مزاولة هذه المهنة»، ولذلك يجب ألا نحزن إذا وجدنا البديهيات ليست موضع شكوك فقط، بل هدف حروب موجهة ضدها أيضاً، فالهوى صار هو الغالب، والمصالح هي التي تحدد الصواب والخطأ، وميزان العدالة تحت هيمنتها، بلا خجل ولا تورية، وأن من يطلق عليهم مثقفون صاروا مروجين لواقع الوحشية ومؤسساتها «المحببة إليهم»، وهي حقائق يعيشها العالم كله في كافة جوانبه.

ما زلنا نرى في واقعنا، الذي هو مجرد صدى لواقع الأقوياء الكبار خلافاً لمثقفين يزعمون العكس، نرى ما أشار إليه المؤلف منذ زمن بعيد، فتقويم الثقافة لم يعد مبنياً على جودة الأفكار ولا على ميزان الصواب والخطأ، صار الكل

صواباً أو لا يهم ما الذي صاروا إليه، مرحلة سيولة شاملة ليس فيها أي مرجعيات، وهذا مبني على فكرة الحتمية التي أشار إليها الكاتب، حيث يجب تقبل الإنسان «كما خلقه الله»، ودخل في ذلك في زمننا الشذوذ الأخلاقي، ولكنه لم يتوقف عند ذلك رغم الوعود والأيمان والإغراءات التي قدمت، نعم قالوا في البداية إنه اختيار أفراد راشدين يرفضون العدوان على الأطفال، فأقبل المثقفون على قبول هذه المظلومية المستضعفة والنظيفة لينالوا شهادات التقدم والاستنارة والتحرر وما شئت أيضاً، ولكن العدوان امتد إلى الأطفال وحتى الرضع في بلاد نشأة الفكرة والتبريرات، فلماذا نرفض استيراد ذلك ونحن مجرد صدى؟ وأخفي ذلك كي تمر الخدعة، ثم امتد الأمر شيئاً فشيئاً إلى معاشرة الحيوانات، ودائماً تحت تبرير «هكذا خلقهم الله»، وكأنهم يعترفون بالخالق أصلاً «قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون»، أو بالطبيعة النظيفة التي خلقها ففسد كل شيء فيها من بر وماء وهواء وأحياء بما ارتكبه البشر وهم نفس أصحاب فكرة القبول بما خلقه الله، لا بأس، ولكن السلسلة لم تتوقف، واستمرت لتدخل كل رذائل البشر تحت تبرير الطبيعة البشرية، مع تجيير العلم وتوريطه في هذا الأتون: فالكذاب هكذا خلقه الله والسارق هكذا خلقه الله، والمزور هكذا خلقه الله، والقاتل هكذا خلقه الله، فكل هذه الصفات نتائج لمركبات في جسم الإنسان، هكذا قالوا ونسبوه إلى العلم، والغريب أن العلم قال أشياء أخرى بعد ذلك ولكنها

تعرضت للتأنيب والتقريع والهجوم والمصادرة والإلغاء، وفي النهاية يراد وصولنا إلى الغابة البشرية حيث لا قيم ولا رادع، والنتيجة المنطقية هي زوال القانون والنظام، وسيادة الأهواء، إذ علينا القبول بكل شيء كما هو، وحيث لا يتوقف العدوان بالشبع كما يتوقف في عالم الحيوان، ولكن إذا قبلنا كل هذه الرذائل تحت عنوان هكذا خلقهم الله، فمن حقنا أن نضيف إليهم قسماً واحداً يرفض كل ذلك لأنه هو أيضاً هكذا خلقه الله، ولكن هنا تتوقف مسيرة التقبل ويبدأ الهجوم على من خلقهم الله، «إنهم أناس يتطهرون»، ولكن ليس من حق من يرفض الحرب على أي طائفة مهما بلغت شناعتها أن يقبل بالحرب على أحد، والمصيبة كلها في الأصل في هذه الحرب المصطنعة التي صورتها الثقافة فيصلاً بين النهوض والركود، والتقدم والتخلف، مع أننا لم نر مصنعاً جديداً ولا مزرعة مزدهرة، ولا محطة ولا سكة ولا جسراً أضيف نتيجة انتشار وشيوع تلك المظاهر السطحية دون غيرها من صفات المتحضرين رغم المعارك الضخمة التي تثار حولها كلما ادعى نظام أنه بصدد النهوض وولوج باب التحضر حيث تراجعت بلادنا مع استمرار التركيز على التفاهات، مسيرة طويلة وما زالت الثقافة في محلها تعارك الطواحين لتحقيق الخير والسلام.

وقد أصاب الكاتب في توقعه عن توجه العالم إلى الحروب، رغم المزاعم المضللة عن قبول كل ما خلقه الله، فقد اندلعت حروب ضخمة صار الفرار منها إلى الحروب

المتناثرة والتي لم تعد بدورها صغيرة، ويشير الكاتب إلى أن منظمات السلام لن تحل المشكلة ما دامت قائمة على غريزة الحرب حتى لو عارضت الحروب، فالسلام لا يستقر إلا بسيادة حب السلام وليس مجرد الخوف من الحرب، وهذا لا يتأتى إلا بتغير أخلاق البشر ومفهومهم عن السعادة وأنها لا تتحقق بالاحتكار ومراكمة الأملاك وعدم المشاركة، أما مجرد التنديد بالقاتل أو الكراهية العمياء لأي حرب حتى لو كانت عادلة، أو هوس الحياد الذي يقع دائماً في الظلم، فكل ذلك لا يفيد في إقرار العدل، فالحق يظل حقاً حتى لو ساندته القوة.

والكاتب لا ينكر الجوانب الإيجابية التي توصل إليها الإنسان في السلوك الاجتماعي ويعدد بعض مظاهرها بشأن معاملة السجناء والأسرى وغير ذلك، ويلاحظ ذلك ضمن دواخل الجماعات المتصارعة، بمعنى أن المجتمع الداخلي يفرض الأمن بين أفراده، ولكنه يراها ضمن المشهد الأكبر الذي لو فكر فيه المثقفون المعاصرون لرفضوا مثل هذه الإيجابيات، وعموماً ما زالت البشرية لم تتخلص من كل آثار المثاليات، وهو يرى أن نزعة الاستعلاء ماضية في الانتقال من الدول إلى الأفراد تجاه من هم أضعف منهم، ويرى بثاقب نظره أن الإمبريالية هي نتاج كل رواد الفكر الحديث الذين جعلوا الإنسان المهيمن هو المثل الأعلى، وبذلك لن تختفي الحروب بل ستصل البشرية إلى مرحلة لن تتمكن فيها من إلغاء روحها القومية وستتخذ من أهوائها إلهاً «من اتخذ إلهه هواه»، وتعادي

الله «فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم»، وستنغمس في التقنية والاختراع وتكف عن تقديم الخير خارج إطارها، وإذا كانت ستسيطر على مجريات الحياة وتحقق الإنجازات فإنها ستسخر حينئذ من فطرتها التي ضحى من أجلها العظماء، فهل حدث شيء غير ذلك؟ ولكن هل تمت السيطرة فعلاً على مسار الطبيعة؟ وهل تمكن الإنسان من تصحيح سلبياتها؟ وهل وصل بالفعل إلى السعادة من كل ذلك؟ وإذا كان الإنسان قد صنع كل هذا الدمار والإفساد في المجال الذي ادعى أنه مجاله «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» وأنه سيصل فيه إلى الفردوس المنشود بالعقل والعلم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»، بعدما رأى نفسه قد استغنى عن السماء فكانت النتيجة هذا الطغيان «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» الذي يراه الجميع، فكيف يمكن الثقة بأي أحكام تصدرها مثل هذه الثقافة فيما تتولاه فضلاً عما تخلت عنه؟

الكاتب يضع بصيص أمل ويقول إنه من المحتمل أن تعود البشرية إلى رشدها كما حدث عند ظهور المسيحية، وهو يقصد بذلك أن تعود الحضارة إلى رشدها بتفوّق أخلاقي ينتج عن عقيدة دينية ومشاعر إنسانية، ولكنه ليس متيقناً من ذلك وإن كان يرجوه.

المآخذ على الكتاب

المأخذ الرئيسي على هذا الكتاب أنه يتحدث من واقع المركزية الأوروبية، فالانحراف القومي بدأ في بداية القرن التاسع عشر، على أيدي الفلاسفة الألمان، هم الذين اخترعوا ميتافيزيقا تفضيل الذات والهيمنة على الآخرين، وصار نجاح العرق الألماني هو النتيجة الحتمية لتطور البشرية، ولم يظهر ذلك عند غيرهم، ثم جرفوا المثقفين الأوروبيين في نهاية القرن التاسع عشر فصارت الإنسانية هي التراجع الثقافي والانحطاط الأخلاقي، والكارثة الكبرى في نظر الكاتب هي اندلاع الحرب الكبرى سنة 1914، ثم صار نموذج الشر عنده هو الفاشية والبلشفية.

ويحق لمعظم البشرية أن تتساءل: وماذا عن الجرائم التي ارتكبت ضد العالم قبل ذلك بقرون؟ وعلى أيدي غير الألمان الذين هم بالمناسبة قد دخلوا الساحة متأخرين؟ هل كان الشعور العالمي بخير إلى أن أفسده الألمان وفلاسفتهم؟ وما هو دور الفاشية والبلشفية في دمار العالم وطبيعته؟ فمن الذي أباد سكان الأمريكتين، حيث يشير الكاتب إلى ذلك إشارة عابرة، ومن الذي أباد سكان أستراليا أيضاً؟ واسترق الأفارقة واستعمر آسيا ودمر حضارات العالم؟ من الذي نشر الأفيون في الصين ودمر صناعات الهند وجوّع سكانها؟ فهل كان كل ذلك من ضمن الخطايا العادية التي ارتكبتها البشرية في الماضي دون تبرير أو تحوير في القيم؟ ومن الذي برر كل ذلك باسم العلم والفلسفة

والفكر؟ أم أن كل ذلك كان ضمن شرور البشرية الواقعية إلى أن جاء الألمان ووضعوا الميتافيزيقا التي جعلت الشر خيراً والخير شراً؟ كلا، فالواقع ليس هو هذا، الواقع أن خطاب الاستعلاء كان مبكراً، ورغم وصول التنوير إلى الفكرة الإنسانية في القرن الثامن عشر فإن التراجع عنها لم يكن صعباً وسندخل حينئذ في جدل النوايا: هل كان الأوروبيون يؤمنون فعلاً بصواب ما يعلنونه صواباً؟ لن نكتفي بقول جوليان في كتابه بعدما لاحظ ازدواجية الخطاب حتى لدى أشد المتعصبين: « إنما غرضي هنا هو التأثير الذي تركه «المثقفون» في العالم، وليس ما حاك في أنفسهم»، فتصريحاتهم في ذروة المنفعة كانت تؤكد أنهم يعرفون ضلالهم وإن أصروا على أنه هو الصواب، فمن الصعب تلويث فطرة البشرية، وكل ما قرروه عن كون «المنفعة هي التي تقرر العدالة» ما ملأ صفحات الكتاب كله، لم يكن أكثر من جواز مرور مزيف يراد منه إسكات صوت الضمير، أو خداع النفس، عبثاً، فلم يستطع الإنسان تغيير الفطرة رغم كل تراكمات المنفعة عبر العصور ليتمكن من ذلك الآن بمجرد تغيير صفات الأفعال، ولعل ما يؤكد استمرار خطاب العدالة المطلقة أن النفعيين أنفسهم يستخدمونه لإدانة أعدائهم أمام العالم الساذج الذي يصدق ازدواجيتهم كما يقول الكاتب نفسه، ولعل ترشيح كاتب هذا الكتاب نفسه لجائزة نوبل أربع مرات دليل على الازدواجية التي تقسم شخصية الحضارة الحديثة بين قلبها وقنبلتها.

المصيبة الأوروبية بتصويب الخطأ وتخطئة الصواب كانت أطول عمراً من الفصل الألماني فيها، مشكلة ألمانيا عند الأوروبيين أنها وضعتهم وجهاً لوجه مع مسلماتهم وطبّقتها فيما بينهم، وساد الشر قبل وحتى بعد زوال الفاشية والبلشفية بسرعة البرق في حسابات التاريخ، كيف لا والمسرح الأمريكي لم يكن بحاجة لأي فيلسوف ألماني يقرر له صواب الشعور العرقي في مواجهة الأعراق الأدنى وضرورة زوالها وحكم الطبيعة الذي لا مفر منه والقدر الجلي الذي حكم بذلك، من الطبيعي أن يقرروا صواب ذلك لما رأوا أن اندفاعهم لن يقف قبل إكمال قضاء الوطر من هذه الشهوة المغرية، ولكن كل ما قالوه لم يخف إحساسهم بفداحة الجريمة التي كانوا يرتكبونها ثم تفرغوا للبكاء عليها بعد الفراغ منها للتفرغ لجرائم لاحقة تكون على قائمة انتظار البكاء.

ولكن حديث المؤلف من داخل البيت الأوروبي الذي تأثر بألمانيا كما يقول، يفيدنا في أن هذه المادية لم تعد مقصورة على الجانب الألماني الذي أتعب الأوروبيين، فقد انتقلت العدوى إلى الديمقراطيات التي استشرى الداء فيها وأدى إلى الأعراض التي سبق ذكرها، ونقد الفلاسفة بعد بيندا يؤكد استمرار الوضع لاسيما أن الفساد استشرى في كل نواحي الحياة البشرية والطبيعية وصار الوضع على حافة الهاوية وسط صرخات الذعر وحالات المكابرة، ويرى الكاتب أن المثقفين يحثون السياسيين وأنصارهم على تمجيد القومية ورفض

الإنسانية، وأن الحروب التي نتجت عن هذه الثقافة الجديدة لن تنتهي من الأرض رغم توافق المصالح وتوحيد العادات والمظاهر الخارجية للحياة.

وإذا كانت مرجعية الكاتب هي قيم التنوير العالمية، وهو ما يؤكد عليه مقدم الطبعة الإنجليزية فيرى أن قيم التنوير هي المرجعية العالمية التي تلغي كل الخصوصيات التي يصورها صرعات زائلة، أليس من حقنا أن نسأل ببساطة بعدما رأينا فلسفة التنوير تُتخذ غطاء لكل أنواع العدوان الذي مارسه الغرب باسمها دون القطيعة معها، كما يتساءل بيندا نفسه في كتابه عندما يتحدث عن «الفهم الخاطئ» لفلسفة ما: «ولا شك أبداً أن الموضوعات الفلسفية تعمل بمثابة ذرائع لمنح غطاء لنوع جديد من العدوان من جانب الهمجية البربرية، ولكن حقيقة استخدامها والطريقة التي استُخدمت بها لهما مغزى لا ينبغي التغافل عنه، أليس من معايير الفلسفة التي يمكن أن نطلق عليها عقلانية دون تحفظ أو لَبس، أن تظل صادقة أمام ذاتها دون أن تتأثر بالفساد؟ ومن جانب آخر، فالأنظمة التي تبدأ بقبول التناقضات، وتحتفظ بالحق في الرد بأنها قادرة على التغلب عليها أو «التعايش» معها، فإنها ستسمح للعدو بأن يقيم بينها، فيكون عقاب تلك الأنظمة أن تناقضاتها ما زالت تتشابه معها»، وهو نفس ما حدث لفلسفة التنوير التي يعتقد الكاتب والمقدم أنها المنقذ العالمي، ولم يكن التحريف تياراً هامشياً أو معزولاً بل بحجم أمم كبرى اتخذت من التنوير «ذريعة لمنح غطاء لنوع

جديد من العدوان من جانب الهمجية والبربرية»، ولم يكن هناك أي مشكلة في التعايش مع هذه التناقضات إلى درجة جعلتها مشابهة للتنوير نفسه، وهو ما لا ينبغي التغافل عنه كما يؤكد بيندا نفسه.

فإذا تغافلنا عن ذلك فلن يبقى من التنوير سوى شعارات عامة لا يمكن أن تصنع نظاماً للحياة تماماً كما عجزت في المرة الأولى، وفي الوقت الذي يقوم فيه مقدم الطبعة الإنجليزية بالهجوم على فكرة التعددية الثقافية بصفتها مناقضة لعالمية قيم التنوير، فإنه يغفل عن أن هذه التعددية نفسها لم تكن سوى شعار نظري غزت به أوروبا العالم لفرض طريقتها وقيمها الحصرية على بقية الحضارات، وكثيراً ما كان رءوسها يعلنون عملياً أن قيمهم عالمية لا سبيل للآخر سوى الإيمان بها، وأن طريق التطور واحد، فهل يتوقع نصير التنوير أن يكون التخلي عن الشعار التعددي النظري هو المنقذ للعالم مع هذا الحديث الفوقي عن «الآخر» الذي لا يتبنى التنوير الذي ظهر في أوروبا؟ وبأي وسيلة سيتبنى الآخرون هذا التنوير ويتخلون عن مبادئهم «الخرافية» و«المتخلفة»؟ وإذا كان انتشار أوروبا في ظل الفكرة التعددية النظرية قد صنع كوارث الإبادات والاستعمار والاسترقاق والاحتكار وتلوث البيئة وتخريب الطبيعة وانقراض الحياة، فما الذي سيصنعه الانتشار بالتخلي بوضوح عن نظرية التعددية وما تدعيه من احترام نظري لعقائد الآخرين؟ وكيف يتوقع أصلاً أن تنتشر صورة موحدة من العقل على كل

العالمين؟ وكيف سيكون شكل التعامل بين البشر في ظل هذه الفوقية التي تنكر أي حقيقة غير ما تزعمه؟ ومن الذي سيضمن أن الشعارات التنويرية الوردية ستطبق بعيداً عن الانحرافات التي حدثت في المرة الأولى؟ وإذا كان ما حدث في العالم من صراعات دامية ومعارك طاحنة وحروب دموية قد تم في ظل شعارات التعددية، فهل سيتحسن شكل العالم بالتخلي عن هذا القناع الرقيق والافتراض بعالمية قيم ظهرت في مكان محدد وزمن معين دون أن تفسح لغيرها أن يتفوه بأي معارضة، وكل ذلك باسم العقل ذي الشكل الموحد؟ وهل جريمة أوروبا هي الاعتراف النظري بالتعددية أم عدم اعترافها عملياً بذلك؟ أليس هذا الخطاب هو دليل على النظر لمشكلات العالم من زاوية أوروبية حصرية تنفي البعد العالمي وما يعانيه الآخرون من هيمنة أوروبا؟ وهل سيكون شكل العالم بهذا التنوير هو صيغة جديدة من اليوتوبيات التي طالما بشّر الفلاسفة بها فنتج عنها الكوارث الكبرى؟ وما يوتوبيا الشيوعية ومثالية النازية والفاشية وجنة الديمقراطية ببعيدة عن ذاكرتنا وواقعنا الذي أصبح مخيراً بين اثنتين: تنوير يقال إنه وحده هو العقل، وما بعد حداثة هي مجرد نزوات تتحصن بالتعددية، وليس هناك خيار ثالث، وأي حديث يحاول أن يطرح بديلاً لحصرية التنوير سيوصف بكونه مجرد نزوة، وأي فكرة بديلة ليست سوى صرعة زائلة، لاسيما لو جاءت من جهة العالم الثالث الذي يفترض فيه مجرد التلقي والسمع والطاعة، ومن يريد الترفع عن النزوات فليس له سوى

الصيغة الحصرية للتنوير، وبعد هذا الخطاب الذي يعدونه مثالياً تلقى تهم الاستبداد على الآخرين، فإذا كان التنوير العالمي يخرج أوروبا من صراعات القومية، فماذا نسمي فرض التنوير الأوروبي على غير أوروبا وهم غالبية البشر؟، وإن لم تكن هذه قومية تميز الإنسان عن غيره كما قال بيندا، فما هي القومية؟ وهل على «الآخر» أن يفرح كثيراً لأن خطاب التنوير وحد أوروبا وألغى انقساماتها لتفرض رؤيتها الموحدة على العالم كله؟ إن كل ما سبق يؤكد أن العقلية المركزية الأوروبية تتحكم في كل مخرجات الفكر الأوروبي سواء كانت تقليدية أم تقدمية.

خيانة المثقفين في بلادنا

المؤلف يتحدث عن خيانة مثقفي أوروبا وهي أمم مستقلة كان الفكر يسير فيها سيراً مستقلاً، إلى درجة الإحجام عن تقبل فكرة ألماني لو كان المتلقي فرنسياً، ولكن ماذا تقول أمتنا وبلادنا؟ جريمة مثقفي الأمم المستقلة أنهم تخلوا بصفتهم الأقوياء عن النزعة العالمية وتمسكوا بمصالح قومياتهم، وصارت الإنسانية لديهم انحطاطاً أخلاقياً، فماذا تقول بلادنا حيث تخلى مثقفوها عن وحدتهم في مواجهة تلك النزعات القومية العدوانية التي مارست عدوانها فيما بين أمم أوروبا أنفسها، وتبعوها باسم النزعة الإنسانية العالمية التي لم يعد من يتمسك بها سوى حملة الأوهام؟ فاستغلهم مروجو شعارات الإنسانية الذين كانوا هم أول من انتهكها وحققوا بذلك الترويج

ما لم تحققه جيوشهم من قبل، وصدق علينا وصف الكاتب أن الأطراف الأوروبية تستخدم خطاب المبادئ لخداع العالم الساذج، مثلنا تماماً عندما اقتنعنا بأن الحلفاء أفضل من الوسط، أو أن الحلفاء خير من المحور، وصرنا بكل سذاجة نجلد أنفسنا لأننا لم نكن بمستوى «تحضر» الخطاب الديمقراطي رغم كل الدلائل المعاكسة، ولعل مشهد القضية الفلسطينية يلخص الموقف: ففي الوقت الذي يتشدد فيه الصهاينة ويعلنون أن دولتهم قومية يهودية ذات هوية حصرية ومقصورة عليهم وحدهم على حساب وأرض غيرهم، نرى الانبطاح العربي السياسي يرفده الخطاب الثقافي الذي يتحدث بسذاجة وخبث عن الإنسانية وقبول الآخر ووجوب التعايش، هذا ما وصلنا إليه ولم نتعلم من كل الدروس التي مرت بثقافتنا ومثقفينا منذ قرنين.

فمنهم من راهن منذ البداية على الدور المنقذ للرسالة التمدينية للاستعمار الغربي، فالقوى الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا هي دول رأسمالية «خيّرة» لم تقم في أي بلد استعمرته بأي فعل ظالم، ليس هذا فقط بل إن الخير يسحب بأثر رجعي على كل التاريخ الفرنسي حتى ما أجمعت أمتنا على إدانته، فهو يثني باسم الإنسانية والفروسية على الأمة الفرنسية لكونها أمة نبيلة ومن بين كل الدول الأوروبية تقدم المساعدة الأسخى والأكثر عفوية للمظلومين والتعساء بدليل أنها تولت الحملات الصليبية التي «عادت نتائجها بالخير على العالم

بأسره»، وحتى مع ما فعلته في الجزائر من جرائم فاقعة وقف مدافعاً عنها مصوراً إياها بشكل يذكر بالإعلام الإمبريالي اليميني المعاصر نافياً حقائق الواقع بالقول إن هذا الاحتلال ليس لغرض استعماري أو بناء مستعمرة منتجة، وهذا كذب واضح، بل إن الهدف في نظره هو القضاء على القرصنة البربرية التي فتكت بالتجارة الدولية (تبدو إذن تهمة الإرهاب الأمريكية المعاصرة ذات سوابق أقدم مما نتصور)، ولم يلتقط سوى مشاهد مصطنعة عن التحضر دون رؤية أنهار الدماء وتلال الجماجم وركام التخلف، بل وقف مؤيداً للاحتلال البريطاني وهو ينفى عن أهل مصر الأهلية لحكم أنفسهم وعارض مطالبهم الدستورية من المحتل البريطاني، وليكمل العدة أنكر صلتهم بالعروبة، كل هذا السجل الحافل بتأييد عدو الأمة ثم تجد صاحبه محتفى به في الأوساط النهضوية والتقدمية «عدوة الاستعمار» بل يطلق عليه «شهيد فلسطين» وهو الذي أثنى على حملات الفرنجة الصليبية التي كانت رائدة اكتساح واحتلال فلسطين.

ومنهم من وضع نفسه بوقاً بلسان الاستعمار الفرنسي وهو يتمنى جلبه إلى بلده رغم أنه يرى عبر الحدود المجاورة الأهوال التي يعانيها جيرانه من الاستعمار نفسه، ومنهم من خدم الأطماع الروسية وتمنى أن تحتل بلادنا، ثم نقل خدماته إلى الأطماع البريطانية، فكل سادة العالم مرشحون لخدماته إلا بلاده، وهي ظاهرة لفتت نظر بعض المؤرخين عن رواد

«النهضة»، ومنهم من عاش في ظل بريطانيا التي أنكرت الحرية والعدل على شعب مصر وهو يعطي دروس الحرية لأمته وهو في حماية حراب الإنجليز، ولا عجب في ذلك فأحد الوجوه الثقافية البارزة كان منفياً إلى مصر لأنه يطالب بالدستور العثماني ولكنه كان يهزأ بشعب مصر عندما يطالب بالدستور نفسه من المحتل الإنجليزي، كما وقف غيره من النهضويين البارزين باسم الاشتراكية والإنسانية للدفاع عن مصالح بريطانيا وفرنسا ضد شعب مصر عندما طالب المصريون بعدم تجديد امتياز قناة السويس سنة 1909، هذه الازدواجية طبعت النخبة الثقافية في بلادنا منذ البداية، حيث تجلد التاريخ بسبب الاستبداد والدماء والتخلف والفتن، وتطرب لنفس الظواهر لو أتت من الأجنبي، وفي نفس الوقت تمدح أي ظاهرة إيجابية يأتي بها الأجنبي ولو كانت غير مقصودة أو قصيرة العمر، وتذم أو تهمل الظاهرة نفسها لو جاءت في سياق محلي أكثر رسوخاً، ولذلك لم تكن بعض الوجوه النهضوية البارزة تخجل من التصريح بكونها احتلالية ومناصرة للاحتلال، وهذا ما قاله علمانيون وزاعمو تدين، فمنهم من أصدر الفتاوى بالسير في ركاب الإنجليز والفرنسيين الذين «سخّرتهم العناية الإلهية» لخدمة الأشراف كما «ستسخّر» خلفاءهم الأمريكيين في نهاية القرن نفسه في مهزلة مشابهة، فكان بذلك مراهناً على المستقبل المشرق والمتحضر في ظل بريطانيا، ولكنه للأمانة لم يسلم بكل مطالبها بل تمتع بقدر وافر من كرامة المسلم فوضع في

برنامجه حدود التدخل «المسموحة» للإنجليز بها كي يقوموا بشحن دولته المستقبلية بشحنات التمدين بتقديم الخبراء والفنيين والأخصائيين ومزايا التجارة لشيخ نهضتنا الآمر الناهي دون أن يكون لهم سلطان عملي، لا سياسي ولا إداري، نعم هكذا كأنهم خدمة تحت الطلب، طبعاً كان الإنجليز من البراعة بامتطاء هذه المطايا والإفادة منها إلى الحد الأقصى ونشر فتاواها لشق وحدة بلادنا حتى إذا حانت ساعة الحساب رمت حلفاءها غير آسفة عليهم، فلم يجدوا بديلاً من تغيير عربتهم المتخلفة داخل نفس قطارها إلى عربة جديدة بنقل ولائهم من زيد إلى عبيد المأمورين جميعاً في مخفرها.

وكان بعضهم من المعجبين جداً بالإنكليز وممن يثقون بوعودهم، فكتب رسالة إلى تلميذه «تدل على أنه كان على علاقة بالإنكليز ويأمل منهم الخير الكثير للعرب، حتى بعد احتلالهم للعراق وفلسطين، وموافقتهم على احتلال فرنسا لسوريا ولبنان» ونقل عن صديقه قوله إنه ما كان يظن الشيخ أكثر من عالم مصلح حتى سمع من إذاعة القدس الانتدابية كتابه إلى معاونة حاكم العراق الإنكليزية (المس الجاسوسة غيرترود بيل) في التوفيق بين مصلحة العرب ومصلحة الإنكليز وعندئذ أيقن أنه جمع إلى علم الدين علوم الدنيا، ومما جاء في هذه الرسالة أنه يعتقد «أن من أحسن من يخلص له العرب الود هو دولة بريطانيا العظمى»، ثم يطالبها بالنهوض بأحوال العرب ويوقع الرسالة «بالمخلص للأمة العربية والدولة البريطانية

العظمى»، ومنهم من وقف مزهواً إلى جانب عتاة الاستعمار والصهيونية مثل بلفور واللنبي وهربرت صموئيل وحاييم وايزمان في افتتاح الجامعة العبرية في القدس مراهناً على التنمية الاستعمارية، ليكون هذا هو درس أستاذيته للجيل المنكوب، ومنهم من بهره مشهد المزارع الصهيونية وهي تستخدم أحدث التقنيات والتراكتورات في الفلاحة فقال المدائح المعلقة فيها إذ نقلت الفلاح الفلسطيني من التخلف إلى التحضر، وسخر ممن يعارض الوجود الصهيوني لأنه يعارض بذلك العلم والتقدم، ولكنه استيقظ من هذا الحلم الوردي على تراكتورات الصهاينة وهي تجرف الفلاحين الفلسطينيين أنفسهم من بلادهم بدلاً من جرف تخلفهم، ومع ذلك لم يستوعب المثقف الدرس، فمنهم من شاهد الصهيونية في ذروة عدوانها وقعر نكبة أمتنا بعيون وردية باسم الإنسانية، ومهد لها طريق احتلال فلسطين ووقف على أهبة الاستعداد للقتال إلى جانب جنودها التقدميين الذين يحاربون الاستعمار البريطاني وهو يظن أنه يطرد الهيمنة الغربية ويصنع الفردوس الأرضي الاشتراكي الذي طالما حلمت به البشرية منذ الأزل، حيث سمع هذه الكذبة من أسياده في الخارج دون أن يرى بحار الدم حوله وسيول اللاجئين، فما كان أعمق الهوة بين الحلم الفردوسي والواقع الاستعماري، ومنهم من نادى بتحريم حق العودة على اللاجئ وساوى عودته «بعودة» الأوكراني والأثيوبي، باسم الإنسانية الواحدة أيضاً، وسارع لتوريط الضحية مع الجلاد في دوامة لقاءات عبثية أدت

إلى كوارث مصيرية ما لبث عندما «اكتشف» خداعها أن ثار بلا مبرر وكأنه لم يكن عرابها، أو كأنه دخل لعبة أطفال لم تعجبه فتوقف عن اللعب، ومنهم من بشر بالتحضر الصهيوني لينال رضا الجوائز العالمية التي نالها عتاة الإرهاب والإجرام، باسم «السلام» الإنساني، ثم «يفاجأ» بتوحش الصهاينة، فقط من قتل الطفل الشهيد محمد الدرة على رأس الألفية وكأن الصهاينة كانوا قبل ذلك حمائم سلام وملائكة رحمة، ومنهم من تفنن في جلد أمته وبلاده لعدم انتهاز «فرص» الاستعمار «السخية»، فمرة يلوم أهل فلسطين لأنهم لم يتنازلوا عن أرضهم وعرضهم مجاناً لخطة التقسيم، ولا يلوم الصهيوني القوي لأنه لم يقف عند حدود التقسيم، فدائماً قضاء السيد الأبيض نافذ بلا اعتراض، وأحياناً يتصيد الأخطاء بلا مبرر كموقف المفتي أمين الحسيني من هتلر، وكأنه كان مطلوباً إلى بلادنا أن تنسى أوجاعها وتتقمص أوجاع ظلامها الديمقراطيين، مع أن الصهاينة أنفسهم لم يضحوا بدلالهم الزائد فاتفقوا مع هتلر ضد راعيتهم بريطانيا لأنها لم تقدم لهم الدلال المطلوب، أو قصرت في فرط دلالها لهم، ومع ذلك لم يوجه المثقف العربي لومه إلى الصهيوني الذي اتفق مع هتلر ووصل إلى رئاسة الوزراء في كيانه الغاصب دون أدنى اعتراض، ويبقى الانبطاح والجلد لنا، رغم أن الآلاف من بلادنا حاربوا إلى جانب الحلفاء ولما خرجوا يحتفلون بنصرهم ومطالبة فرنسا بتنفيذ وعود استقلال الجزائر قتلت 45 ألفاً منهم دفعة واحدة، هذه لا يذكرها جالد نفسه

عندما يلوم مفتي فلسطين، ولا يذكر أن الجزائر رمت بعد ذلك وعود فرنسا في المزبلة ودخلت معركة تحرير طاحنة كلفتها مليوناً ونصف المليون شهيد، فما فرق المصير بين من حارب الحلفاء ومن حارب معهم؟

نعم نحن الذين قصرنا في انتهاز فرصة التنمية الاستعمارية التي كانت اليابان «أشطر» منا في انتهازها فتقدمت وتخلفنا، وينسى صاحب الطرح المثقف الألمعي أن النسب والأرقام، التي يولع بها البحث العلمي، لا تسعف استدلاله، فاليابان نموذج فريد له ظروف خاصة ولهذا لم تنطبق مآلاته على عشرات النماذج التي تعرضت للاستعمار في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية، ولهذا فإن نماذج الفشل الاستعماري هي القاعدة، حتى في بلاد خضعت قياداتها دهراً طويلاً خضوعاً كاملاً، وبلادنا مجرد أجزاء منها، ومطالبتنا بالخضوع للتقدم الاستعماري ليست مجرد مطالبة علمية حتى لو كانت هزيلة، لأن الشذوذ لا يقاس عليه، فلماذا يراد إلينا الاعتبار بمصير الآخرين وعدم الاعتبار بمصير أنفسنا مع أنه مصير غالبية البشرية؟ ومنهم من ساهم في ترسانة العدو الصهيوني باسم حياد العلم الإنساني لينال رضا الجوائز العالمية أيضاً التي نتج عنها صب صواريخه على رءوس أهالينا وأبنائنا، ومنهم من طالب الولايات المتحدة بأن تقف وقفة لله، وأفتى بالانضمام إلى جيوشها الزاحفة على بلد مسلم لتدميره ثم اعتذر كأن خطأه ببساطة الدوس على طرف ثوب، دون أن يلقي بالاً للدماء التي

أزهقتها فتاواه والدمار الذي أحدثته آراؤه، ومنهم من نسي تاريخه المطالب بالثورة على أمريكا وسار في ركابها لاحتلال بلده وهو يظن أيضاً أنه سيعيد إليها الزهو بالمن والسلوى، ومنهم من اختصر الطريق بلا تبريرات عن مصالح الأمة أو اعتذارات بالضرورات، فأعلن أن ما صنعته مصالح الأجانب حين قسمت بلادنا لتنهبها هو أمر «مقدس» على أمتنا طاعته كما تطيع ربها، بل في الواقع بدلاً من طاعة ربها وأوامره بالوحدة والعزة والكرامة، وصار السجود لإرادة الأجنبي بدلاً من إرادة الله، وهو صدى الصوت الذي أثنى على الاحتلال الفرنجي قبل قرن وسار في درب خدمة مصالح الأجانب والصوت الذي جعل أمريكا بكل إجرامها هي الموكلة بالدفاع عن الأمة ودينها، رغم كل الجرائم التي تراها الأعين يومياً، ومنهم من بشّر بلادنا بالنظام العالمي الجديد وبرر تشدده ودمويته وهو يرى القنابل التي يسقطها على بلادنا ويدمر بها إنجازاتنا ليفرغ بذلك حقده «الإنساني» على نظام حكم ظنه وحشاً فضائياً لمجرد أن سادته الإنسانيين الغربيين ناصبوه العداء وادعوا أنه خطر عالمي، وبعد هذه الخدمة التي قدمها المثقف للنظام العالمي الأمريكي ظن أنه قد أصبح ضمن هذا النظام الفردوسي ومن حقه أن يقدم مطالبه لقاء خدماته فقرر أن الوقت قد حان بعد التخلص من الشيطان للالتفات إلى مشاكل الدرجة الثانية، وطالب بصفته صاحب كلمة بالشروع في حل قضية فلسطين، طبعاً أركان النظام العالمي كانوا يهزئون من البداية بمثل هذه

الأحلام ولكنهم سكتوا برهة كي يستفيدوا من خدمات الحشد الواهم، ثم لم يكونوا بهذا التواضع وقاموا برمي كل خادم سولت له نفسه بطلب أجر عادل في المزبلة هو ومطالبه العادلة، وها هي فلسطين مازالت تراوح للخلف بعد عشرات السنين، وبعد كل هذا الدمار القادم من الخارج ترى المثقف يجلد نفسه وأمته التي أفسدت أخلاق الإنسانية الغربية وحرفتها عن مسارها الخيّر، رغم أنه بهذا الرأي الحصيف يناقض البديهية أن التأثير يكون من الأقوى إلى الأضعف ولكن في عرف مثقفينا فإن القوي يجب أن يكون في استرخاء تام لتنعم البشرية بمنظر راحته على حسابها، مهما ضرب وكسر وقتل، فإن تعرض لصرخة جائع أو مظلوم فالويل كل الويل لمن أفسد المشهد الحضاري، ولا عزاء لأي مؤرخ رصد الكوارث والمجازر منذ عصر الكشوف الجغرافية، فكل ذلك من افتراءات ما بعد الكولونيالية.

ومنهم من وقف إلى جانب الأنظمة الحاكمة في دول التجزئة بعدما خدع جماهير الأمة دهراً وهو ينادي بالثورة من أجل الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية وتمكين الشباب وسيادة الشعوب لينقلب على عقبيه عند أول انتفاضة قامت بها الشعوب للانعتاق من أنظمة الجور والعمالة والنهب والتجزئة والتخلف والاستسلام وعند ممارسة أول انتخابات منذ دهر فأصبح ينظّر للحدود والتجزئة والهويات الإقليمية وعدم إلزام صندوق الاقتراع والاستهزاء بجهل الشباب وعدم خبرتهم

وضرورة وصاية زعماء الضرورة على تهور الجماهير، فماذا عليهم لو صبروا على التجربة وكرسوا مفهوم الاختيار الطوعي الذي زعموا أنهم ناضلوا عقوداً لأجله ومنح الفرص لخيار الجمهور، فإن لم تثمر غيّرها الجمهور نفسه، ولكنهم أصبحوا يدركون أنهم في تناقض جذري مع أمتهم، ولما لم يكن الخيار كما يشتهون ألغوا كل مبادئهم، كانت قيمة الحرية عندهم أن تأتي بهم وتنصب كراسيهم وتوزع المناصب عليهم، فجاءت رياحها بما لا تشتهي سفنهم ففضحوا نوايا الوصاية والرقابة التي رموا بها خصومهم وانسلوا، كانوا يريدون الحرية ولكن بشرط أن تكون لهم وفي صالحهم، كما ألغى الغرب كل نداءاته الديمقراطية عندما كانت تأتي بمن لا يشتهي، منذ زمن مصدق في إيران إلى زمن الانقلاب الذي لم يرق لأمريكا أداؤه «غير المهني» في تركيا مؤخراً، مروراً بانقلابات تركيا السابقة والجزائر وغزة، فتفننوا في نقد التخابر والتخلي عن الأرض والتشبث بالكرسي (قبل انتهاء الولاية)، ثم وقعوا في أشد مما انتقدوه، يقولون اليوم ما ينقدوه غداً وينقدون اليوم ما يمارسوه غداً، ومما يؤلم استخدام الرموز التاريخية استخداماً لا يليق بمكانتها فتأتي هذه الأصوات ممن كانوا على مسافة صفر من زعماء القومية والوحدة وكرامة الجماهير دهراً طويلاً، فهل كان كل ذلك الإخلاص مجرد «أكل عيش» تغيرت لغته بتغير صاحب العمل؟ ومنهم من خدعنا أحقاباً بسيادة الشريعة والأخلاق حتى رأينا الدعارة العلنية قرب المقدسات ومواقع السيرة النبوية التي

امتهنت ودرست، وصارت البلاد والعباد توهب على مذابح قياصرة الروم الجدد وتدفع جزية لسادة العالم الذين سلموا مقدسات أمتنا لأعدائنا بلا ثمن، وحاربوا المرابطين بأعلى ثمن، ثم اكتشفنا أنهم يصنعون «فجراً عربياً جديداً» بدك شعب عربي أصيل بحروب الوكالة وأسلحة التفويض التي يبررها المثقفون المستنيرون الأحرار المستظلون برايات كانوا يرونها رجعية ماضوية ولكن الشعور الجمعي والدفاع الغريزي لا يعرفان فرقاً بين مثقف وساذج، وتجرف سيول النفط عقول الجميع للتبرير والتصفيق رغم أنها عقول كانت بالمرصاد لكل هفوة في التراث حتى وقعت فيما انتقدته وبررت ما بنت شرعيتها على رفضه، ومحا الاستقطاب الغريزي كل العقول وما تعبت في إثباته لعشرات السنين، وصرت ترى المثقف العربي مثل لينين في بلد، وتراه نفسه مثل لويس السادس عشر في بلد آخر، أي ثورياً إلى الحد الأخير حيث يريد، وملكياً بلا حدود حيث تقضي المصلحة، وظهر الفجر المنتظر بوجه روبسبير، بلون أشد احمراراً من الحلم الوردي الذي طال، فلا ثمار الثورة ولا استقرار الدولة، ولكن دماء وفوضى، نعم يزيف الوعي حسب الطلب، وبعملية شعوذة فكرية تمارس على جهل وضعف العامة تماماً كما يمارس المشعوذ تأثيره يصبح المستسلم المفاوض اللاهث خلف سراب العدو هو المقاوم الصلب الذي لا يوقع، ويصبح الشهيد المقاوم العنيد مستسلماً مسلّماً ميسراً، والملاحظة الفارقة عند كل ذي لب أن الحكم

في ذلك هو سلطة الواقف وليس الدليل العلمي، حيث تمارس الازدواجية لصالح الحاكم سواء كان ثورياً أو استعمارياً وتتغير الفتوى حسب لون العهد.

وتحت سمع وبصر حراس التوحيد وفتاوى السلام والتعايش والجيرة رأينا مشهداً لم يتوقع في أسوأ الكوابيس بعدما تم سحق من يرفض النسخة الجديدة المعولمة من الدين، حيث لم يعد الأمر مقتصراً على فعل الشر وترك الخير، ولا على الأمر بفعل الشر وترك فعل الخير، بل تعداه إلى رؤية الشر خيراً ورؤية الخير شراً، وهذه بدعة الحضارة الحديثة «كيف بكم إذا فسد نساؤكم وفسق شبانكم، ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قيل: يا رسول الله ويكون ذلك؟ قال: نعم وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟»، وكل ذلك باسم التحضر الإنساني الذي كان يغيب عن المشهد إذا تعلق الأمر بخلاف مع الأخ والجار وتصدر الفتاوى بسرعة قياسية بعد اندلاع الأزمة تقضي بنفاد الصبر ووجوب الرد الصاعق دون أي فرصة لالتقاط الأنفاس وعدم إمكان طرح أي حلول وسط، لهذا هلموا نمتطي ظهر الدابة أو الدبابة الأمريكية التي «سخّرها» الله لعباده الموحدين كي تستعيد حقوقهم، وما شعرنا أننا كنا نحن المطايا لمصالح أمريكا وأخواتها، أما إذا كان عدو الدين والأمة هو الخصم فهنا تظهر لغة الصبر

والتعايش التي انتهت بالاستسلام الكامل بلا قيد ولا شرط، وكل ما ارتكب من دعارة في الداخل واستسلام للخارج بذريعة الطاعة والولاية التي منحت العصمة العملية، ومن ينكر ذلك عليه أن يذكر لنا خطأ واحداً استدرك على أي ولي أمر من السابقين واللاحقين وتم التراجع عنه، في الوقت الذي كانت فيه الفتاوى دائماً جاهزة لتشريع الطاعة المطلقة لرغبات الولاة وهو ما لم يقره النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه حيث طالما فتح الباب للشكوى والاقتصاص من مظالم حتى لو لم يكن لها وجود، وطالما ووجه الخلفاء الراشدون أنفسهم بالتقويم والاعتراض، وسبحان مقلب القلوب، إذ في نفس اليوم ترى هؤلاء المثقفين يتحدثون عن الدعوة بالحكمة والتسامح وضبط النفس عندما يتعلق الأمر بسخرية الأوروبي من شخصية نبي الأمة صلوات الله عليه، وعن عدم قبول الاعتذار ووجوب القصاص عندما يتعلق الأمر بخلاف دنيوي قديم بين الإخوة والجيران، ويتم النبش والحفر في النوايا وتطبيق العقوبات دون هوادة على أبناء الأمة، والتفرج على الحاخامات وهم يرقصون على أنغام الهيكل وهدم الأقصى، ولا عجب فقد تم عرض هذه النسخة من الدين على سفارات الدول الكبرى لتقر للأمة دينها وتوافق على عباداتها، فلم نعد ندري هل العبادة لله ومشروطة بأحكامه أم هي لأعداء الأمة ومشروطة بموافقتهم وإقرارهم.

أما عن خيانات المؤرخين الذين اعتنى بأمرها الكاتب فسنجد لها نظائر كثيرة عندنا، فمنهم من قضى عمره وهو ينادي

بالتنوير والعدالة ويهزأ بثغرات التاريخ ومظالمه، ولكن ما أن أمسك بزمام ظل سلطة حتى ارتكب أبشع بمراحل مما كان ينتقده، وفجأة تحول المدافع عن أموال الناس والشديد في نقد فرض الضرائب عليهم إلى مدافع عمن لم تترك ضرائبه في جيوبهم ما يدفعون عنه الضرائب، وفجأة يتحول الخطاب الإنساني الناقد لانحرافات الماضي ودمائه إلى محرض على سفك دماء الشعوب بغزارة ومن غير هوادة من أجل فرض برنامجه، ومنهم من بالغ في مديح حاكمه وحاميه الأجنبي وصور له أنه في أفضل الحالات في ظل الهيمنة الأجنبية التي قطعت تواصل بلده مع محيطها ومنعت تطوره مبكراً واقتطعت ثلثي مساحته واحتكرت ثروته لاقتصادها، كل ذلك يصور «راحة واطمئنان»، نفس هذه «الراحة» صارت وعداً فردوسياً قدمه المثقف لأقطار أخرى بصفته الدواء الشامل من جميع الأدواء، فلما امتثل الناس وساروا مغيبين في ركاب هذا الوعد لم يستفيقوا إلا على وقع القنابل وتطاير الأشلاء ونهب الثروات وتبديد الموارد وإحياء الثأرات وإيقاظ العداوات ونشر الفتن، كل ذلك تم عزفه على موسيقا قنابل الاحتلال التي سوقها المثقف لمواطنيه، فدائماً كان مشروع ثقافة التبعية يشعر بالفوقية على محيطه ويستقوي بالأجنبي على أهله ويشعر بالانفصال عن قومه المتخلفين حيث أن المرء يشعر بالألفة مع من يتفق معه فكرياً ويتخذه قريناً مهما كان وضع هذا القرين وشعوره، لأن التابع بذلك يرضي غرور نفسه على القريب وعقدة نقصه أمام

الغريب، فلا يرضى بأقل من التقليد الشامل، ولكنه ليس شاملاً جداً، حيث يقتصر على المظاهر السطحية التي غالباً ما تكون سلبيات وموضع تذمر في بلاد منشئها، أما جوهر القوة والوحدة والاكتفاء والدفاع فكلها خارج منظومة التقليد، الذي يستهدف خدمة مصالح الأجنبي القوي لأنها الطريق الأقصر للارتباط والتشبه بالقوة والحضارة حتى دون الحصول عليها، والمثل الدارج يقول «كلب الشيخ شيخ»، وفي سبيل ذلك تستدعى جيوش الأجانب لفرض هذه التبعية وهذه الخدمة على أمتنا للخروج من جلدها مع أوهام الحرية والإنسانية والديمقراطية، وعندما لا تتحقق الأوهام، يبدأ فيلم لوم الضحية، فمسئولية الدماء والفوضى التي تعم البلاد ليست على القنابل الساقطة والبوارج الهادرة والطائرات المحلقة، والتي تستند كلها إلى رؤية العنف الفلسفية الراسخة التي صارت مجلبة العظمة والمجد في الغرب كما يؤكد الكاتب، أو كما يقول واقع الداروينية وفلسفة صراع الوجود والبقاء للأصلح، أي الأقوى، بل المشكلة كلها في وحشية جحا وهو يدق مسماره في الحائط كما تقول روايات التراث.

المؤرخ العربي يزيف الوعي بمديح النظام الحاكم بما فيه وما ليس فيه، يتجاوز اعترافات النظام نفسه ليصوره بصورة لا تنطبق عليه، النظام يستجدي فيجعله مقاوماً، ليس هذا وحسب، بل يشوه تاريخ وماضي أي مقاوم حتى لا يظل في ساحة المقاومة إلا ظل سيده وممموله الحاكم، ولكن هذا الحاكم نفسه

غادر الميادين منذ زمن طويل ولم يعد فيها سوى ظل باهت لتسويق حضوره بين الجماهير اليائسة، يلفت المؤرخ نظرها عن فساد واقعها ويفقدها الشعور بآلامها بالقول إنها في سعادة مقارنة بما مضى، وعليها أن تصبر وتحتسب، وأداته في ذلك تزييف وتشويه الماضي بالاجتزاء والازدواجية والكذب، فكل ذلك مصرح في سبيل القائد المنقذ والزعيم الضرورة والرئيس الملهم، ليس هناك أبدع من الحاضر، وأفضل من الموجود، حتى لو خالف كل شعارات المثقف السابقة، عطلوا حواسكم لأنها لا تعرف ما يعرفه المؤرخ الفذ، وقد وصل الأمر بأحد المستبدين الفاسدين الذين أرهقوا شعوبهم، وهو ليس وحده في الميدان، أن يعلن عجزه هو وفشله في موضوع بسيط هو النزاهة والأمانة، في نفس الوقت الذي يلوم فيه الأموات قبل عشرات ومئات السنين على بلايا العالمين، نعم فالأموات هم المسئولون والأحياء معفيون، الحي يستقبل العدو ويصافح ويبتسم ويتعاون ويفاوض ويسلم ويستسلم، لا بأس، لا تنظروا إليه فلا حرج عليه وهو مصون غير مسئول، ولكن الويل كل الويل لماضي الأموات لو صدر عنه عُشر الجريمة، وترى المثقف يصفق وينظّر ويبرر الخطأ للحي الحاضر، ويلوم ويذم ويخوّن الخطأ نفسه عند الأموات، هذا إن صدق في افترائه عليهم أصلاً، ثم تكون الاتهامات جاهزة للخصوم بأنهم يعيشون في الماضي، ويريدون إعادة الماضي، ويرجعون الساعة إلى الوراء، ويحكمهم الأموات.

ولا يهم إن كانت مرجعية المؤرخ التقدمي السياسية والفكرية نفسها هي أول من اعترف بالكيان الصهيوني وزوده بالرجال والمال والعتاد، ثم وقفت حارساً عليه وهي تعرف وتعلن أنه مجرم وقاعدة للإجرام، ومع ذلك فلا بأس أن نرمي الآخرين بأدوائنا ونقنع الناس بطهارتنا، فالذاكرة الجمعية سريعة النسيان، فلا تعرف التواريخ التفصيلية ولا تتذكر ما قاله المثقفون أنفسهم من قبل ولا تلتفت إلى المنح المادية التي غيرت آراءهم، أو حتى دعم العدو الذي صنع هذه الآراء، فالقدس ليست القدس، والعدو صديق، والاستسلام هو الطبيعة، والأمة هي التي احتلت نفسها أو حتى استعمرتها، والماضي كله مساوئ علينا أن نتقبل الحاضر كي لا نعود إليها، وإذا كنتم، مثلاً، تشكون من فساد التعليم اليوم فلا تصغوا حتى لسادتنا الأجانب الذين يدّعون أنه كان أفضل في الماضي، صحيح أننا ندعو لتقليد الأجانب في كل شيء ولكننا لن نقبل منهم أي مديح لتاريخنا فنحن أدرى منهم، في هذه النقطة بالذات، بكوننا لا نستحق، وتبدأ المعاول بحفر تفاصيل التراث بحثاً عن رواية أو قصة لم يسمع بها أحد ولكنهم سيزعمون أنها هي الحاكمة على تصرفات الملايين، فيصدق العامي المسكين الكذبة وينطوي على نفسه خجلاً ويستعد للدخول في دورة الانبهار فالاستسلام فقبول كل ما يأتي من الآخر بعدما نجح في دورة الشعور بالدونية التي ستسكته بعدما خدرت إحساسه بواقعه البائس وتحولت الشجاعة من إعلان نفسها أمام القصور إلى

الصراخ أمام أهل القبور، وفكرة الخيانة هنا ليست في البحث نفسه بل في لفت الأنظار وتخدير الشعور بالواقع إلى نقل الأحاسيس إلى الماضي رغم أن أصحاب هذه الممارسة يرمون غيرهم بدائهم ويدعون أن خصومهم هم الذين يعيشون في الماضي، ولكننا سنكتشف أن الجميع يعيشون ويحاربون في الماضي سواء الذين يحيون ثأراته أو الذين يثأرون منه ويصفّون حساباتهم معه، وبهذا تتحول الثقافة إلى مخدر عام باسم التقدم والحداثة ومحاربة الجمود والتخلف، ودليل ذلك أن كثيراً ممن قضوا أعمارهم في الانبهار بالمستورد، استيقظوا بعد رحيل الأعمار على «اكتشاف» ذواتهم وأن لديهم حضارة تستحق الالتفات ولكن الممارسة الشائعة ترفض هذا التصحيح منهم حيث أن التنوير لا يقبل أن تكون العبرة بالخواتيم، عكس الحقيقة الدارجة.

ولا عجب في كل هذه العجائب فالثقافة صارت مستباحة لكل وارد حتى لو أخذ منها سطراً فلا مانع من أن يصبح خبيراً ومرجعاً، تخصصه في الهندسة فينصب مرجعاً في الشريعة، أو في الفلسفة فيصبح محكماً في التاريخ بل واللغة والشعر فيأتي بما يضحك الثكلى، وقد يهبط المشهد أكثر من ذلك فيقدم «كاتباً» من ليس لديه سوى قاموس شتائم وتهم، فهذا إرهابي وذاك مهزوم وذلك مدحور، ولا تطمع بأي معلومات أخرى غير المديح للصهيونية وجرائمها، وعندما يكتب سلسلة مقالات في السب والشتم للمرابطين والمقاومين، توضع حلقة من مقالاته

في صحيفة التنوير ضمن «مقالات اليمين» ثم توضع الحلقة التالية من نفس السلسلة ضمن «مقالات اليسار»، مما كان كفيلاً بخجل كل اليمينيين واليساريين في التاريخ لو اطلعوا على هذا العبث، المهم أن كل ما سبق هو نتيجة التصديق بكذبة الإنسانية التي يرصد مؤلف خيانة المثقفين تخلي أصحابها عنها، ورغم أن رصده نفسه كان متأخراً، فإنه لم يصلنا نحن إلى اليوم.

محمد شعبان صوان

مقدمة طبعة دار ترانساكشن ناشرون

خيانة المثقفين وكتاب «تراجع الفكر»

«عندما تصير كراهية الثقافة جزءً من الثقافة، فسيفقد العقل قيمته في الحياة»

- ألان فنكلكروت، تراجع الفكر

«نحاول اليوم أن ننشر المعرفة في كل مكان، فمن يدري ما إذا كان في القرون القادمة جامعات لإعادة تأسيس الجهل الذي كان سائداً في الماضي؟»

- جورج كريستوف ليشتنبرغ
(1799 -1742)

(1)

نشر الكاتب الفرنسي جوليان بيندا عام 1927 هجومه المشهور على الفساد الثقافي في عصره في كتاب بعنوان «خيانة رجال الدين» (*La Trahison des clercs*)، ووصفتُ هذا الكتاب بـ«المشهور»، إلا أن استخدام تعبير «كان مشهوراً ذات يوم» يعد أكثر دقة؛ إذ ينتشر بين الناس اليوم عنوان الكتاب فقط، وليس

موضوعه، كما أن عبارة «خيانة رجال الدين» هي واحدة من تلك العبارات التي تبرز بالتلميحات وتداعي المعاني دون ذكر أي شيءٍ بعينه، والكتاب نفسه معروف لدى الجميع ولكن لا يعرفه أحد جيداً، مثلما قال جاك بارزون (Jacques Barzun) في والتر باجيهوت (Walter Bagehot)، ولكن يحدوني أمل أن تتغير نظرة الناس عن الكتاب بهذه الطبعة الجديدة لهذا العمل الكلاسيكي المهمَل.

ويخبرنا بيندا أنه يستخدم مصطلح «رجل دين» (Clerc) بالمعنى السائد في العصور الوسطى وهو «المؤلف» أو «الكاتب» - هو الشخص الذي نسميه الآن أحد أفراد النخبة المثقفة، أي «المثقف»؛ فالأكاديميون والصحفيون والنقاد والفلاسفة الأخلاقيون والوعاظ بمختلف درجاتهم، كلهم ينتمون إلى المقصود برجال الدين بهذا المعنى الذي ذكرناه، أما الترجمة الإنجليزية أوجزت هذا المعنى بدقة فجاءت: **خيانة المثقفين** (*The Treason of the Intellectuals*).

«والخيانة» المعنية هنا هي خيانة «المثقفين» لمهمتهم بوصفهم رجال كرسوا حياتهم لخدمة العقل، فمنذ عصر ما قبل سقراط، كان المثقفون المخلصون لهذا الدور مميزين عن غيرهم بسمات خاصة، وحسب تعريف بيندا فهم «أولئك الذين لا يسعون وراء المصالح والمكاسب، بل يجدون سعادتهم في ممارسة فن أو مزاولة علم أو البحث في نظريات ما وراء الطبيعة، وتتلخص سعادتهم في الترفع عن ملذات الحياة»،

وذكر بيندا أنه بسبب هؤلاء الرجال «ارتكبت البشرية أفعال الشر لقرابة ألفي عام، لكنهم أحبوا الخير، وهذا التناقض هو فخر للنوع البشري، إذ إنه قد شكل الطريق الذي عبرت منه الحضارة إلى هذا العالم».

ولكن تغير هذا الوضع وفقاً لبيندا في أثناء العقود الأولى من القرن العشرين، فكان المثقفون يتخلون يوماً بعد يوم عن ارتباطهم بتقاليد وأعراف المُثُل العلمية والفلسفية، وأوضح دليل على هذا التغيير هجومهم على نموذج الإنسانية العالمية في عصر التنوير بالإضافة إلى تمجيدهم لتعدد القوميات، واستمر الهجوم على النموذج العالمي ليشمل الحياة الاجتماعية والسياسية وكذلك الفروع المعدلة لنظرية المعرفة وعلوم ما وراء الطبيعة: «هؤلاء الذين ظلوا قروناً يحذرون الناس، نظرياً على الأقل، من نزعة الاحساس بتمايزهم عن غيرهم... أما الآن فقد صاروا يثنون على هذه الاختلافات فيما بينهم، وذلك بحسب مكان الموعظة التي يلقونها، فنراهم يتحدثون عن «إخلاص الروح الفرنسية» أو «ثبات الضمير الألماني» أو «دفء القلوب الإيطالية»». وخلاصة القول: إن المثقفين قد بدأوا يعلنون عن أنفسهم وسط العالم المادي والعملي للمشاعر السياسية المليء بالاضطرابات: وأوضح بيندا طبيعة تلك المشاعر بأنها التي «تنتمي إلى أناسٍ يعارض بعضهم بعضاً، وأهم هذه المشاعر هي المشاعر العرقية والطبقية والقومية»، فالطريق الذي اعتادت الحضارة على المرور منه صار ضيقاً بل سيؤول إلى قطعه

تماماً، (وتبرز هنا حقيقة لغوية تاريخية وهي أن مصطلح *intellectuel* قد أُضِيف إلى المعجم اللغوي في تسعينيات القرن التاسع عشر إبّان قضية دريفوس).

إن الكتابة في وقت كانت فيه الكراهية العرقية والقومية تهددان مرة أخرى بتمزيق أوروبا إرباً، كان استنتاج بيندا قد عرض ملامح نبوءة استمر صداها حتى يومنا هذا؛ فكتب «إن عصرنا الحالي هو عصر المنظمات الثقافية للكراهية السياسية، إذ إن إحدى مطالبها في المستقبل أن تراقب التاريخ الأخلاقي للإنسانية»، فغني عن البيان أن هذه الكراهية لم تظهر في التاريخ الأخلاقي سوى في الحكايات الشعبية التخويفية، وفي غضون عقد من الزمن أو أكثر بقليل كان تنبؤ بيندا بأن الإنسانية «تقود أكبر حرب في التاريخ» بسبب «الخيانة العظمى» للمثقفين، قد لاقى تأييداً بصورة مخيفة.

لم يكن جوليان بيندا ساذجاً كي يصدق أن المثقفين باعتبارهم طبقة مستقلة قد امتنعوا بالكامل عن المشاركة السياسية، أو عن المشاركة في الأمور المادية والعملية، كذلك لم يعتقد بأن المثقفين، بصفتهم مواطنين، يجب أن يمتنعوا عن التعلق بالحياة السياسية أو الحياة العملية، إن الخيانة التي سعى لنشرها تتعلق بالطريقة التي قبِل بها المثقفون مؤخراً بالحياة السياسية ليخفوا إدراكهم لمهمتهم الثقافية أيضاً، فزعم بيندا أن السياسة «تندمج مع أعمالهم بوصفهم فنانين وعلماء وفلاسفة»،

لذا فإن نموذج الحكم النزيه والإيمان بالحقيقة الكونية (العالمية): مثل المبادئ التوجيهية التقليدية للحياة الثقافية قد استخدما استخداماً مليئاً بالازدراء على أنها أقنعة إذا لم يتم رفضهم بالكلية، وانتقد بيندا هذا التطور لأنه «**رغبة في انتقاص قيم المعرفة أمام قيم العمل**».

أدت هذه الرغبة البليدة، ذات التأثير الفعال أيضاً، إلى ظاهرة معروفة سماها بيندا «عقيدة النجاح»، وملخص هذه الظاهرة هي «التعاليم التي تقول بأن الإرادة التي تتحقق يصبح لها قيمة أخلاقية، أما تلك التي لا تنجح فإنها تستحق التجاهل والتحقير»، وبديهي أن هذه الفكرة ليست مستحدثة، لأن التاريخ منذ عصر السوفسطائيين اليونانيين حتى الآن يذكرنا دائماً بذلك، فجاء في كتاب **جورجياس** لأفلاطون، على سبيل المثال، أن الفيلسوف السفسطائي كاليكليس (Callicles) عبر عن رفضه انشغال سقراط بالفلسفة لما قال: «إن شعوري تجاه الفلاسفة كشعوري تماماً تجاه هؤلاء الذين يداعبون الأطفال باللعثمة عند الكلام»، وكاليكليس يسخر من فكرة سقراط التي تقول بأن «الأكثر تأثيراً والأفضل والأقوى» هي مفردات مختلفة لنفس الشيء، وتابع كلامه قائلاً: «الرفاهية والترف... يكمنان في الفضيلة والسعادة، وما غير ذلك مجرد زينة وتزييف»، وكأن كاليكليس يعيش بيننا!

وتتلخص هذه الفكرة عند بيندا عندما رفض القول بأن «السياسة هي التي تحدد الأخلاق»، ولا شك أن السخرية التي

مارسها كاليكليس باقية أثرها: مثلها كمثل الفقراء، يكونون معنا دائماً، ولكن ما وجده بيندا جديداً علينا هو تأييد المثقفين لهذه السخرية، فقال في كتابه الذي بين أيدينا: «والواقع أن هؤلاء «المثقفين» المعاصرين قد أعلنوا بأنهم لا يعلمون ماذا يقصد بالعدالة أو الحق أو أي «قيم روحية» أخرى، وأن الحق عندهم مرتبط بالمصلحة، والعدل مقرون بالظروف والأحوال، وكل هذه الأفكار قد نقلها الفيلسوف اليوناني كاليكليس (Callicles) ولكن مع اختلاف بسيط وهو: أنه قد ثار على كل المفكرين العظماء في عصره».

بمعنى آخر، لم تكن خيانة المثقفين الحقيقية أنْ أيدوا كاليكليس، بل دافعوا عنه أيضاً، ولكي نستوعب رؤية بيندا نحتاج إلى أكثر أتباع كاليكليس تأثيراً في العصر الحديث، فريدريك نيتشه؛ الذي كان من مبادئه «إرادة السلطة»، وإدانته «أخلاق العبيد» في المسيحية، ومناداته بالأخلاق فيما «وراء سلوك الخير والشر»، وأخيراً افتتانه بالعنف - كل ذلك يلخص «البراغماتية» الكارثية التي ميزت «خيانة» المثقفين، ولكن المشكلة الحقيقية ليست في عدم إيجاد مُثُل عليا، بل في فسادها؛ وأشاد نيتشه بذلك واصفاً إياها «بإعادة تقويم القيم»، ويقول بيندا «وكان زعماء الدول في الماضي يمارسون الواقعية، ولكن لم يعظموا من قدرها؛... فقد انتُهكت الأخلاقية في عصرهم، ولكن ظلت الأفكار الأخلاقية سليمة؛ **ولهذا السبب لم تُمس حضارتهم بسوء رغم جميع الانتهاكات الحاصلة**».

ولذلك أدرك بيندا حجم هذه المخاطر: إن خيانة المثقفين لم تعنِ فقط فساد مجموعة من المؤلفين الهواة ولكن تشير إلى خيانة الثقافة، فلما انتهج المثقفون أخلاق كاليكليس سارعوا إلى واحدة من أبرز «نقاط التحول في التاريخ الأخلاقي للنوع البشري»، ويتابع بيندا قائلاً:

«ولا أبالغ بأهمية الحركة التي كانت لمدة عشرين قرناً تعلم المرء أن معايير الأخلاق في أي فعل هي عدم الاكتراث به، وأن الخير هو قرار العقل كما أنه فعل للبشرية أجمع، وأن إرادة الإنسان تكون أخلاقية فقط إذا استمدت قانونها بعيداً عن أغراضها؛ فهؤلاء الذين علموا الإنسان تلك المبادئ بدأوا الآن ينشرون بين الناس أن الفعل الأخلاقي به يؤمّن الإنسان حياته من أي أخطار تحيطه، وأن إرادته تصبح أخلاقية إذا كانت إرادة تسعى «للقوة»، وأن جزءاً من عقله الذي يحدد الخير هو إرادة «الحياة» التي تعد أكثر عداءً للعقل، وأن أخلاقيات أي عمل تقاس بتوافقها مع أهدافها، وأن الأخلاق هي فقط أخلاق الأحوال الواقعة، إن المثقفين المهتمين بالنفس البشرية يقفون الآن بجانب كاليكليس ضد سقراط، إنها ثورة ربما تبدو لي أهم من كل الاضطرابات السياسية».

(2)

إن كتاب خيانة المثقفين هو كتاب جامع له قوة في التأثير، ووصفه الفيلسوف الفرنسي جين فرانسوا ريفيل (Jean-François Revel) بأنه «واحد من أقوى المناشدات من أجل استقلالٍ لا مناص منه للمثقفين»، ولا شك أن هذا الكتاب

يحوي ثراءً معرفياً، كتابٌ فريد من نوعه، قائم على المعرفة والعلم، يتميز أسلوبه بالاستطراد، وموضوعه مثير للجدل؛ فهو يميل إلى الإعجاب أكثر منه إلى التحليل، فكما أنه مؤيد لدعوة التجرد من الملذات المادية، كذلك تميز بالقسوة في الدفاع عن السمو العقلي والفكري، ومع ذلك وبالنظر إلى الأحداث المروعة التي ظهرت في السنوات التي عقبت نشر هذا الكتاب، أدهشنا هجوم بيندا المتواصل على تطبع العقل بالنزعة السياسية والانفصالية العرقية وكأنه كان يعلم ما في الغيب، وإذا نظرنا أيضاً إلى الانعكاس المستمر للمشكلات التي حللها بيندا على عصرنا الحالي، فلا أحد ينكر العلاقة بين رؤيته النافذة والوضع الراهن، فمن التطور الهمجي للكراهية العرقية والدينية في الشرق الأوسط وفي أنحاء أوروبا بالكامل إلى الدعوات الكاذبة للصوابية السياسية والتعددية الثقافية في الحرم الجامعي في كل مكان في الغرب، ويكشف كتاب خيانة المثقفين النقاب عن هذه الدراما الهدامة، فيتحدث بيندا عن «سيلاً من الأفكار الأخلاقية لدى هؤلاء الذين ينشرون الفكر في العالم»، وهذه الأفكار تنتشر اليوم في كل جانب من حياتنا الثقافية.

استكمل الفيلسوف الفرنسي والناقد الحضاري ألان فنكلكروت عام 1988 ما خلّفه بيندا، فأنتج قائمة مختصرة ولكنها دقيقة عن الكوارث الفكرية المعاصرة، فكتابه الصادر بعنوان «**تراجع الفكر**» (*La Défaite de la pensée*) يعد تصنيفاً جديداً جزئياً لخيانات المثقفين، وفي هذا السياق يتحدث

الكتاب عن خيانة المثقفين في العالم ما بعد الشيوعية، هذا العالم الذي يهيمن عليه التقارب بين مبادئ الثقافة الشعبية بقدر ما تسيطر عليه القومية التي بعثت من جديد والانفصالية العرقية، ويحتوى التصنيف الذي وضعه فنكلكروت على مختلف الاستراتيجيات البارزة التي انتهجها المثقفون في رفضهم العالمية، وتبدأ هذه القائمة بالمؤلف جوليان بيندا، أما المرجع التالي فهو الفيلسوف الرومانسي الألماني الذي عاش في القرن الثامن عشر يوهان جوتفريد هردر (Johann Gottfried Herder) فكتب: «منذ بدء الخليقة، أو تحديداً منذ عصر أفلاطون وحتى عصر فولتير، والتنوع البشري يخضع لحكم القيم العالمية؛ أما هردر فيرى أن القيم الخالدة فهي مدانة أمام محكمة التنويع».

ويركز فنكلكروت بصورة خاصة على مبدأ هردر المناهض للتنوير وهو «**الروح القومية**» (*Volksgeist*)، ونقلاً عن المؤرخ الفرنسي إرنست رينان، فقد وصف هذه الفكرة بأنها «الأخطر والأكثر تدميراً في العصور الحديثة»، فكما يقول فنكلكروت: «لا شيء يمكن أن يوقف دولة صارت فريسة للروح القومية»، ومن الأفكار التي شغلت تفكير فنكلكروت أن دعاة التعددية الثقافية اليوم يتبعون هردر في نواحٍ كثيرة (من غير قصد)، والواقع أن اهتمام هردر البالغ بالتاريخ واللغة قد عمل على ضبط الاتجاه نحو فلسفة التجريد التي قد نجدها في بعض تعبيرات فلسفة التنوير، ففي كتابه عن فلسفة التنوير، لاحظ إرنست كاسيرر أن «ما حققه هردر هو أحد أعظم الانتصارات

الثقافية لفلسفة التنوير»، ومع ذلك فإن انشغال دعاة التعددية الثقافية «بالتنوع الثقافي» والأصول العرقية هو في كل الأحوال إعادة نشر أفكار هردر عن تغليب الخصوصية العرقية على إضفاء النزعة السياسية للعقل، لذلك فإن فنكلكروت يخالف هذا الرأي مثلما اعترض جوته ذات مرة على إعجاب هردر بالروح القومية، ومع أن فنكلكروت يعترف بأننا جميعاً «ننتمي إلى تقاليد خاصة بنا، وهويتنا القومية هي التي ترسم حياتنا»، فإنه على عكس دعاة التعددية الثقافية يصر بعقلانية على أن «هذه الحقيقة ينبغي الاعتراف بها وليس الإعجاب بها»، ويقول جوته «يمكننا تحقيق التسامح تحقيقاً غير محدود إذا توقفنا عن إعاقة ما يكوّن السمة الخاصة سواء للأفراد أو الشعوب، وفي نفس الوقت نؤمن بأن القيمة الحقيقية لأي شيء هي في انتمائه للبشرية جمعاء».

ويتشابه كتاب «**تراجع الفكر**» مع كتاب «**خيانة المثقفين**» في الأسلوب والموضوع، فكلا الكتابين يحويان أحياناً موضوعات شيقة تتحدث عن حياة السالفين ودراسات تحليلية، ويميل فنكلكروت، مثل بيندا، إلى الاستطراد، وذلك بالعرض المجرد وليس بالإثباتات والبراهين، إضافة إلى أنه لم يكتفِ بعرض موضوع بيندا فقط، لأن طبيعة الخيانة التي انتهجها المثقفون قد تغيرت كثيراً في السبعين سنة ونيف الأخيرة، فحتي عام 1927، كانت الخيانة لدى المثقفين تنحصر في أمور محددة، أما العالم اليوم في ما بعد الحداثة، فإن معالم الطريق

أمامه سهلة يسيرة: إذ تراجعت المطالبة باتباع التقاليد، فالخيانة هنا هي فقط مسألة خضوع واستسلام، ونوجز بالقول إن أبرز إسهام حققه فنكلكروت أنه حدد حجم المستنقع الثقافي الذي يحيط بنا، ورسم الخطوط التي تربط عملية تسييس العقل والفكر بصوره الحالية التي تتسم بالانحطاط والتراجع.

وبعبارة أشمل، يعد كتاب «**تراجع الفكر**» موجزاً لمبادئ فلسفة التنوير - وليس التنويرية المتناقضة التي تمتد جذورها في فرنسا وناهضت التقاليد العرفية، ولكن هذا المشروع المجرد نشره بعض الكُتّاب البريطانيين مثل ديفيد هيوم وآدم سميث، ووفقاً لهذه النسخة من فلسفة التنوير، فإن البشرية يمكنها أن تتوحد من خلال الإنسانية العامة التي تخطت الحدود العرقية والعنصرية والجنسية، فإضفاء صفة الإنسانية على «العقل» الذي تنادي به فلسفة التنوير يعني أن يكون العقل له صفة عالمية ويتشارك الجميع في مبادئه، ولم تنجح هذه المساعي في العقود الأخيرة، ذلك بأن خلفاء هردر بذلوا غاية ما في الوسع لتشويه سمعتها، وعلى الجملة ينبغي أن يقال: إن الاعتقاد بأن «الفكر اليهودي» أو «العلم السوفيتي» أو «الفن الآري»، صار انتشاره صعباً على خلاف ما كان في الماضي، ولكن تبديد هذه الأوهام القومية لم تنفع في مقابل بدع العشائر والقبائل؛ فمن بين البدائع المقدسة التي ظهرت اليوم «المعارف الإفريقية» و«اللغة الأنثوية» و «العلوم الخاصة بأوروبا» و «الحقيقة الإسلامية».

كذلك نجد أن مجموعة كبيرة من أوهام مناهضة للفكر التنويري قد اجتمعت تحت شعار «مناهضة الفلسفة الوضعية»، فهناك بعض السخافات والآراء هي الآن جزء من مصاف النظام الثقافي للمثقفين الغربيين مثل الرأي القائل بأن التاريخ ما هو إلا «أسطورة»، وأن حقيقة العلم هي مجرد «خيالات» تتزين بلباس محرَّم، وأن العقل واللغة عاجزين عن اكتشاف الحقيقة، وأن الحقيقة ذاتها تعد بناءً أيديولوجياً كاذباً، وقد قدم ماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) وتيودور أدورنو (Theodor Adorno) وهما عضوان في مدرسة فرانكفورت من أتباع الماركسية، في منتصف أربعينيات القرن العشرين وصفاً نموذجياً ولكن غير معهود عن إحدى متاعب هذا الشعار الذي يدعو إلى كراهية غير عقلانية، فبعد أن فرّ هذان اللاجئان بأمان في لوس أنجلوس من جيش هتلر، نشرا بحثاً مهماً حول مفهوم التنوير، وأثبتا للقراء، ضمن موضوعات أخرى، بأن «التنوير سيؤدي إلى الاستبداد»، غير مبالين أن في هذه اللحظة كانت آلة الحرب النازية تبيد ملايين البشر لتحقيق بعض ما تصور لهم أوهامهم المناهضة لفلسفة التنوير والمستوحاة من فكرة **الروح القومية**.

(3)

إن هذا الهجوم اللاذع الذي شنه هوركهايمر وأدورنو على مفهوم فلسفة التنوير يذكرنا بإحدى الميزات المهمة حول تاريخ التنوير: أي أنها حركة فكرية نشأت رداً على سلوك التمسك

بالتقاليد وظهرت الآن لتصبح أحد أهم حراس التقاليد والأعراف، ونشأت فلسفة التنوير تاريخياً باعتبارها حركة معادية لرجال الدين ومقاومة للتقاليد بحكم الضرورة، وكان هدفها كما قال كانط أنها تحرر المرء من «قصوره العقلي الذي فرضه على نفسه»، والعدو الأول لفلسفة التنوير هو «الخرافة»؛ مصطلح جامع تضمن جميع أنواع الأفكار الدينية والفلسفية والأخلاقية.

ولكن كما أشار عالم الاجتماع إدوارد شيلز، إن نجاح الفكر التنويري كان يرجع بنسبة كبيرة إلى «انتشاره والإيمان به في مجتمع طغت فيه التقاليد»، مع أن الفكر التنويري كان «يتناقض مع التقاليد الثابتة» في جذورها في نواحٍ مهمة، «وكذلك انتصر على أعداءه»، فأشار شيلز في كتابه «**التقاليد**» (1981)،

> لأن الأعداء كانوا يتمتعون بالقدرة الكافية لمواجهة انتصار التنويرية عليها، ورغم العيش في بيئة تمتلئ بالتقاليد الثابتة، فإن فلسفة التنوير قد تطورت دون أن تتراجع أفكارها، وطالما استمر احترام النظام من جانب والثقة بالنفس في ممارسة هذا النظام من جانب آخر، فسيستمر نموذج التنوير في تحرير العقل عن طريق استخدامه، إن الفكر التنويري لم يفسد المجتمع لأنه كان سيفعل ذلك إذا افتقر المجتمع إلى العدل والحق.

تلك هي الصورة الكاملة للفكر التنويري، الذي يؤيد العقل دون أن يفقد احترامه للتقاليد، والذي اتخذها فنكلكروت نموذجاً مثالياً.

برزت فكرة كتاب فنكلكروت **«تراجع الفكر»** من فساد المبادئ المنتشر، وتتضمن هذه المبادئ النظر إلى حياة الفكر بأنها «حياة نبيلة» وهدفها نشر الثقافة - وهذا ما يسميه الألمان «التثقيف الذاتي» (Bildung)، وتحول الفساد مؤخراً إلى هجوم صريح على الثقافة، وهذا لا يعني فقط أن هناك العديد من العناصر المناهضة للثقافة في المجتمع؛ إنما هو واقع مستمر، لذا ارتبط مصطلح «انعدام الفكر»، وفق تعبير فنكلكروت، بحياة العقل. وقد يؤدي نشوء الثقافة المعاصرة إلى صعوبة التفريق بين مناهضة الثقافة وانعدام الفكر، ويقول فنكلكروت «تلك هي المرة الأولى في تاريخ أوروبا أن يأخذ انعدام الفكر نفس التسمية بل يتمتع بحالة الفكر ذاته، والمرة الأولى التي يتهم فيها هؤلاء الذين يتجرؤون على تسمية انعدام الفكر باسمه، من منطلق «الثقافة السامية»، بأنهم عنصريون ورجعيون»، إن هذا الهجوم لم يُشن من الخارج على أيدي جهلاء همجيون، إنما شُن من الداخل بفضل فئة جديدة من الهمجيين الذين صنعوا أنفسهم من بين النخبة المثقفة، وهذا هو تراجع الفكر؛ النسخة الجديدة من كتاب **«خيانة المثقفين»**.

وهناك جوانب عدة لهذه الظاهرة، فما قدمه لنا فنكلكروت ليس دراسة تحليلية منهجية ولكنه يشبه سجل لأحد أطباء التشريح، إذ يذكرنا، على سبيل المثال، بأن دعوة أنصار التعددية الثقافية إلى «التنوع الثقافي» يتطلب سقوط الفرد من أجل أن تنهض الجماعة، ويشير فنكلكروت إلى ذلك قائلاً: «إن

أكثر ما امتازوا به أنهم منحوا صدارة غير مشروطة للجماعة على أنها حرية فردية مطلقة»، وقد نبذت العقلانية والفردية الغربية باسم طائفة أكثر «صدقاً».

ويستشهد فنكلكروت، على سبيل المثال بأحد أنصار التعددية الثقافية حين أكد أن «مساعدة المهاجرين تعتمد في المقام الأول على احترامهم فيما هم عليه؛ احترام مهما كانت تطلعاتهم لحياتهم الوطنية، أو ثقافتهم الخاصة أو ارتباطهم بأصولهم الدينية أو الروحية»، وهنا يتساءل فنكلكروت هل يشمل هذا «الاحترام» تلك الشرائع الدينية التي تنص على أن المرأة العاقر يتجنبها الناس والزانية يطبق عليها الحد حتى الموت؟ وماذا عن تلك الشريعة التي يكون فيها شهادة الرجل تعادل شهادة امرأتين؟ شريعة يطبق فيها ختان الإناث؟ وتنتشر تجارة الرقيق؟ ويحرم التزاوج بين أتباع أديان مختلفة ويحث على تعدد الزوجات؟ إن التعددية الثقافية تدعو، كما أشار فنكلكروت، إلى احترام هذه الممارسات، ويتهم منتقدوها بالعنصرية والتمركز العرقي، وفي هذا العصر الذي تسود فيها العلمانية، تعود «الهوية الثقافية» حيث كانت الهوية المجردة ذات يوم تقوم على أن «التعصب يمكن الدفاع عنه عندما يخاطب السماء، ويتخطى حاجز اللوم والشبهات عندما يستند إلى التراث والخصوصية الثقافية».

إن التخلي عن استخدام العقل الذي ينادي به أنصار

التعددية الثقافية نتج بشكل كبير عما يسمى بإخضاع الثقافة إلى علم الإنسان (anthropology)، ويتحدث فنكلكروت في هذا السياق عن «الالتباس المضحك الذي يحرك ممارسات الأنثروبولوجيا إلى قمة أعظم إنجازات العرق البشري»، وبدأ هذا المنهج في القرن التاسع عشر ولكنه تطور في عصرنا الحالي، ويتبادر إلى أذهاننا مثلاً المحاولات الدؤوبة التي قام بها عالم الأنثروبولوجي البارز الذي يدعو إلى التقارب الثقافي كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss)؛ وهو كاتب لامع ولكن ترك بصمة مخزية للغاية، ففي بداية خمسينيات القرن العشرين عندما كان يعمل محاضراً في اليونسكو، كان يحث الجميع «على مواجهة تصنيف الاختلافات الثقافية هرمياً»، وفي كتابه «التفكير الهمجي» (La Pensée sauvage, 1961) حذر من «المناقضة المزيفة بين العقلية المنطقية والعقلية البدائية»، كذلك كان حريصاً في وصفه للمواطنين حين قال «الموصوفون بالفكر البدائي»، «الموصوفون» بالفعل.

وفي مقال مشهور عن السلالات والتاريخ، أكد ليفي ستروس أن الفرد الهمجي ليس ضداً للرجل المتحضر ولكنه «يؤمن أولاً بوجود أشياء تشبه الهمجية»، ومن الأهمية بمكان أن نعرف ذلك، إذ يساعدنا على فهم وتقدير مزاعم ليفي ستروس، الواردة في كتابه «**المناطق الاستوائية البائسة**» (*Tristes Tropiques,* 1955)، ومفادها أن «الغرض الحقيقي من قيام الحضارات» هو خلق حالة من «القصور الذاتي»، وعندما يتأمل

المرء في النظرية القائلة بأن الثقافات يجب أن تصنف هرمياً، فمن الأفضل أيضاً أن ننظر بعين الاعتبار إلى ما يشير إليه ليفي ستروس على أنها «الصورة الإيجابية للوحشية»، فالوحشية عند ليفي ستروس قد أسيء إليها بدون إنصاف لدى «الموصوفون» بالغرب المتحضر، ويبين أن الوحشية كانت «ينظر إليها في الغالب بتقدير كبير على أنها الجرعة الحيوية المكونة من كمية ضئيلة من المواد العضوية الممزوجة في بعض الأحيان بأنواع أخرى من الطعام»، هل هي حقاً مجرد «جرعة حيوية»؟ إذاً فلا داع للقلق! فالجاهل الذي يؤمن بأن هناك فروق حقيقية ونوعية بين الإنسان الهمجي والإنسان المتحضر قد يفكر في المعارضة.

فمن البديهي أن الهجوم على الفروقات التي انتقدها فنكلكروت لم تقع فقط داخل الثقافات كافة ولكن أيضاً داخل ثقافة محددة، ومن هنا يلعب عالم الأنثروبولوجي دوراً حيوياً، فكتب بنظرة اجتماعية عادلة:

> إن التسلسلات الهرمية قد ألغيت، ومعايير الذوق ظهرت حقيقتها الاستبدادية، ومن الآن فصاعداً، لا ينبغي أن تفصل فئة صارمة الأعمال الفنية البارزة عن الأعمال العادية، إذ تشترك الروايات «الضخمة» (يمحي تميزها من الآن أي غموض من خلال وضع علامات الاقتباس) وأنواع عامية أخرى من الأعمال السردية في نفس البنية الأساسية ونفس السمات العامة والأولية.

ولتأكيد ذلك، يحتاج المرء إلى أن يلقي نظرة على

تصريحات النقاد، سواء ممن عملوا في الأكاديميات أو المؤسسات الثقافية الأخرى، ذلك بأنهم نقلوا لنا نفس المعلومات: لا يوجد شيء بمثل هذا القدر إلا إذا كان ذو ميزة جوهرية؛ فالجودة هي مجرد بناء جوهري؛ والقيمة الجمالية هي روح القوة الاجتماعية؛ إلخ.

ويفرق فنكلكروت عند وصفه عملية التقارب بين الثقافات بين هؤلاء الذين يزيلون الفروقات باسم السياسة وبين من تحركه النرجسية، وقد أكد أنصار التعددية الثقافية على نموذج السياسة المتطرفة حين قالوا (في شعار روسي شعبي في القرن التاسع عشر): «زوجان من الأحذية أفضل من شكسبير»، وأعلن هؤلاء الذين أسماهم فنكلكروت «أنصار ما بعد الحداثة» وأكدوا أيضاً على نموذج الأناقة المتطرف أن شكسبير ليس أفضل من الموضة الحديثة؛ أي ليس أفضل من أحدث سلعة يعرضها كالفين كلاين، ونعرف جميعاً النداءات التي يرددها فنكلكروت:

> الكوميديا التي تخلط العلاقة المثيرة وبعض الصور الجميلة عمل جيد مثل رواية نابوكوف، فما تقرأه لوليتا المراهقة يتساوى في الإبداع مع رواية لوليتا، وشعار الشعبية المؤثر يعد بمثابة قصيدة كتبها أبولينير أو فرانسيز بونج... ويتساوى في الإبداع أيضاً لاعب كرة القدم مع مدرب الرقصات، والرسام مع مصمم الأزياء، والكاتب مع الوكيل الإعلاني، والموسيقار مع مغني الروك، كلهم متشابهون؛ ومبدعون، لذا يجب أن نتخلص من الانحيازية التي تمنح ألقاباً إلى بعض الأشخاص وتنظر للآخرين على أنهم ثقافة ثانوية.

وزبدة هذه الآراء ليس فقط التقليل من شأن شكسبير ولكن صانع الأحذية أصبح له شأن أعلى، «فالأمر لا يقف عند الانتقاص من الثقافة الراقية؛ فالرياضة والموضة والرفاهية صارت تتخذ مكاناً وسط تلك الثقافة»، فهل هذه الخيالات غريبة؟ وينبغي لكل شخص يتبادر إلى ذهنه هذا السؤال أن يتذكر المعرض الكبير الذي يحمل اسم «الفن المعاصر والثقافة الشعبية بين الرقي والانحطاط» (High & Low: Modern Art and Popular Culture) والذي نظمه متحف الفن الحديث في تسعينيات القرن العشرين: فكان يجب أن يحمل اسم «كريزي كات تقابل بيكاسو»، وبعض الأحداث يمكنها أن تؤدي بشكل كامل إلى تآكل البنية الأساسية للثقافة بأيدي المكلفون بالحفاظ عليها، وقد أظهر هذا المعرض، من بين عدة أمور أخرى، إلى أي مدى أثرت فيه عملية تمجيد الثقافة الشعبية لإضعاف فرصة تقدير الفن الراقي بشروطه الخاصة، وإذا زال الفرق بين الثقافة والترفيه، صار الفن الراقي مشتتاً، معزولاً عن السياق الذي يُظهر فيه قيمته الحقيقية؛ فبيكاسو قد أصبح نوعاً من الرسوم المتحركة، ويعد هذا هو التهديد الحقيقي للثقافة اليوم؛ أكثر من حكم النخبة أو الجهل، وكما قالت حنة أرنت ذات يوم «هناك الكثير من الكتاب العظماء انتشلوا القرون الماضية من براثن النسيان والجهل، ولكن لا يزال السؤال يتردد: هل كان بإمكانهم أن يحتفظوا بنسخة ممتعة مما قالوه ذات يوم».

(4)

وينقلنا ذلك إلى قضية الحرية، فقد لاحظ فنكلكروت أن خطاب ما بعد الحداثة يشبه خطاب حركة التنوير في بعض الأمور؛ فالحركتان كلتاهما تتطلعان إلى تحرير المرء من «قصوره العقلي الذي فرضه على نفسه»، ولكن يوجد اختلاف ينبغي الإشارة إليه، وهو أن حركة التنوير تنظر إلى الثقافة باعتبارها مستودع للقيم التي تسمو بالنفس، أما حركة ما بعد الحداثة فإنها تنظر إلى الرغبات العابرة للنفس المعتزلة على أنها المصدر الوحيد والمنطقي للقيم، وتأتي قضايا «نمط الحياة» (مصطلح ينذر بسوء) لتشغل حيزاً ما لبث أن امتلأ بالإدانات الأخلاقية والمبادئ الثقافية، فأما حركة ما بعد الحداثة، «فالثقافة عندهم لم تعد وسيلة لتحرير العقل، إنما هي واحدة من عقبات نخبة المجتمع أمام هذا التحرير»، كذلك ينظر أتباع تلك الحركة إلى منتجات الثقافة بأن لها قيمة إذا كانت تمثل مصدراً للمتعة واللهو، ولكي نفهم مفهوم الحرية التي وعدت به فلسفة ما بعد الحداثة - الحرية التي تعرف بأنها تحرير للعقل من القيم التي تسمو بالنفس - فينبغي أن تتحول الثقافة إلى مجال «للخيارات» الاستبدادية، وكتب فنكلكروت «ويمثل الفرد في فترة ما بعد الحداثة مجموعة بسيطة وحرة من الغرائز العابرة والطارئة، فقد نسي أن مفهوم الحرية أكبر من كونها قادرة على إزالة القيود المفروضة على المرء، وأن الثقافة ذاتها أكبر من نزوات محققة».

لقد أدرك فنكلكروت بوضوح تام أن الهجوم المعاصر على الهيمنة الفكرية للنخبة ليس امتداداً للثقافة بل هو تدمير لها، فقال: «كانت الديمقراطية تتضمن ذات يوم توصيل الثقافة إلى كل إنسان، ومن الآن فصاعداً صارت تعني حق الفرد في اختيار ثقافته»، قد يبدو هذا الرأي غريباً - على أي حال هو شعار نسمعه يتردد في المؤسسات الأكاديمية والثقافية في أنحاء البلاد - ولكن كانت النتيجة على العكس تماماً مما كان مرجواً من هذه الفكرة، «والمطالبة بأن تكون «جميع الثقافات متساوية في الحق القانوني واعتبار أي شيء هو في ذاته ثقافي»، قد صارت صيحة عامة لبعض الأطفال المدللون في المجتمعات الثرية وكذلك من منتقدي الغرب»، وما يدعو للأسف والسخرية أنه عندما اختفت معايير الثقافة والدعوة إلى «إباحة كل شيء»، أصبح ما عند الناس ليست الثقافة الحقيقية، وإنما هي محاكاة بائسة للثقافة، وإن هذا الزيف هو السر الحقير الذي يرفض وكلاؤنا الثقافيون أن يعترفوا به.

وهناك أيضاً نتيجة أخرى لتراجع الفكر ربما تكون أكثر ضرراً؛ ألا وهي أن فساد الإيمان بالعقل والإنسانية العامة لم يؤدِ فقط إلى ضياع المبادئ ولكن تضمن أيضاً قضية الجرأة، ويحذر فنكلكروت من «اللامبالاة التي لا تراعي مشاعر الآخرين وتتساوى مع التخلي عن مواجهة القوة»، وكما أن أنصار «التنوع الثقافي» المتحمسين يتوافقون مع أنصار ما بعد الحداثة في الخضوع والمهانة، كذلك يجتمع التعصب وتجاهل التحدي

اللازم للحفاظ على الحرية، ومهما يكن من أمر فإن الشيوعية قد ضعفت وفقدت مصداقيتها، ولكن «الذي مات معها... ليس نزعة العقل للاستبداد، بل ماتت أيضاً فكرة وجود عالم يسع الجميع»، لقد استخدم جوليان بيندا عبارة مقتبسة في أول كتابه «خيانة المثقفين» من الفيلسوف الفرنسي تشارلز رينوفير الذي عاش في القرن التاسع عشر حين قال «يعاني العالم دائماً من تكذيبه للحقيقة المجردة»، وإننا بهذا التكذيب نصبح ضعفاء أمام فساد المثقفين الذين اتبعوا عدمية كاليكليس بصفتها واقعاً يعيشونه.

روجر كيمبل

تعليق مترجم النسخة الإنجليزية*

صدر كتاب السيد بيندا بعنوان **خيانة رجال الدين** (*La Trahison des Clercs*). وعرَّف بيندا كلمة «**رجال الدين** (*Clercs*)» التي استخدمت في جميع صفحات الكتاب، بأنهم «**من يخاطبون العالم بطريقة متسامية» ولكني لا أعرف الكلمة الإنجليزية التي تعطي معنى «من يخاطبون العالم بطريقة متسامية»، ولكن في عصر الشاعر الإنجليزي تشوسر كانت كلمة «رجل الدين» - كما جاء في حكاية («رجل الدين بمدينة أكسفورد»)** - تشير إلى غير «الدنيوي»، تلك الكلمة التي استخدمها بيندا ضداً لكلمة «رجل الدين». وجملة ما يقال: إننا لا نزال نستخدم هذا المصطلح بالمعنى الذي تقدم عندما نتحدث عن «رجل دين برتبة كهنوتية» كذلك يحافظ هذا المصطلح على أصله**

---

* ريتشارد ألدنغتون (Richard Aldington) (1892-1962) كاتب وشاعر إنجليزي نقل الكتاب الذي بين أيدينا من الفرنسية إلى الإنجليزية.

** إحدى «حكايات كانتربيري» للشاعر الإنجليزي جيفري تشوسر.

المستمد من اللفظ «*Cleric*»، الذي يصفه بيندا بأنه «نخبة رجال الدين»؛ فإذا كانت كلمة «برتبة كهنوتية» مأخوذة من عبارة «رجل دين برتبة كهنوتية» فإن كلمة «رجل دين» المتبقية تشير تقريباً إلى مراد السيد بيندا، ومع ذلك فقد استخدم «رجل دين» لتشمل رجل دين برتبة كهنوتية، ويُستخدم مصطلح *clerk* في هذه الأيام للتعبير عن شخص يؤدي أعمالاً مكتبية، كذلك يُنطق باللهجة البريطانية «*clark*» أما في اللهجة الأمريكية فإنه يُنطق «*clurrk*» ويعني بالإنجليزية عامل متجر، ولكي أتجنب تشتيت القارئ فقد ترجمت عنوان هذا الكتاب «خيانة المثقفين»، ثم وضعت العنوان الذي وضعه بيندا فيما بعد بين علامتي تنصيص، ولما ظهرت كلمة «*clerk*» لأول مرة في الكتاب، أضفت عبارة «بالمعنى السائد في العصور الوسطى»، وخلال النص وضعت كلمة «*clerk*» (المثقف) بين علامتي تنصيص لتجنب أي احتمالية فهم خاطئ.

وفي هذا السياق أود أن أبين بأن كلمتي «واقعي» و «واقعية» قد استخدمتا بشكل دائم تقريباً في هذا الكتاب ضدين لمصطلحي «مثالي» و «مثالية»، إلى جانب كلمات مجردة أخرى استخدمت بمعنى خاص والتي آمل أن تتضح للقارئ من سياق الكلام.

ريتشارد ألدنغتون

مقدمة المؤلف

يروي تولستوي أنه عندما كان يخدم في الجيش شاهد أحد إخوانه الضباط يضرب رجلاً خرج من الصف أثناء العرض العسكري، فقال له تولستوي:

«ألا تخجل وأنت تعامل زميلك بهذه الطريقة؟ ألم تقرأ ما جاء في الإنجيل؟»

رد عليه الضابط قائلاً:-

«وأنت ألم تقرأ الأوامر العسكرية؟»

إن هذا الرد سنجده دائماً موجهاً إلى الرجل الروحاني الذي يحاول أن يتلقى الأوامر من شخص تغلب عليه الصفة المادية، ورأيي أنه ردٌ حكيم للغاية، فهؤلاء الذين يوجهون الناس إلى الحياة المادية ونزواتها ليس لديهم حاجة إلى العدل أو الخير.

ومع ذلك أرى أنه من الأهمية بمكانٍ أن يكون هناك أناسٌ - حتى لو سخر منهم الجميع - يحثون الآخرين على اتباع

مذهب آخر غير مذهب المادية، ولكن في أيامنا هذه لم يتخلَ فقط عن هذا الدور المخولون به (ممن أطلقت عليهم اسم «المثقفين» بالمعنى السائد في العصور الوسطى) بل يقومون بأدوار مناقضة تجاه ذلك، فأغلب الفلاسفة الأخلاقيين ممن لهم تأثير في غضون الخمسين سنة الخالية في أوروبا، خاصة أدباء فرنسا، يدعون البشرية إلى التهكم على الإنجيل وقراءة الأوامر العسكرية.

وأرى أن هذه التعاليم الجديدة تستوجب جميعها الاهتمام الشديد لأنها تخاطب الإنسانية التي انغمست الآن في المذهب المادي طوعاً لغرض ما غير معروف حتى يومنا هذا، وسأبدأ بتوضيح هذا الأمر.

الفصل الأول

تطور المشاعر السياسية في العصر الحديث

ندرك جميعاً أن هذه المشاعر الموصوفة بالسياسية تنتمي إلى أناسٍ يعارض بعضهم بعضاً، وأهم هذه المشاعر هي المشاعر العرقية والطبقية والقومية، فهؤلاء الأشخاص الذين لديهم إيمان قاطع بحتمية تحول النوع البشري، لا سيما إيمانهم بتوجهات البشر نحو السلام والحب، لا يمكنهم إنكار أن هذه المشاعر، التي تتزايد يوماً بعد يوم، قد حققت في الخمسين عاماً الماضية درجة من التطور في أكثر من اتجاه لم تعرف حتى الآن في التاريخ كله.

فقد أثرت تلك المشاعر في المقام الأول على قطاع كبير من الناس لم تؤثر عليهم أي مشاعر من قبل، فمثلاً عندما ندرس الحروب الأهلية التي هزت فرنسا في القرن السادس عشر، وحتى تلك التي وقعت في نهاية القرن الثامن عشر، فإننا نُصدم من قلة عدد الأشخاص الذين تأثر تفكيرهم بعمق بهذه الحوادث، في الوقت الذي يمتلئ التاريخ، إلى القرن التاسع

عشر، بالحروب الأوروبية الطويلة التي لم تأبه بها مطلقاً الغالبية العظمى من الناس ما خلا اهتمامهم بالخسائر المادية التي عانوا منها معاناة شخصية[1]، فنستطيع القول بأنه في يومنا

---

(1) من الصعب تحديد إلى أي مدى تتحرك الجماهير بتأثير المشاعر السياسية، فالشعوب لا تكتب مذكراتها ونادراً ما يتحدث كُتاب السير الذاتية عن الجماهير. فقد اقتصرت في ذكر الأمثلة على فرنسا والمثالين اللذين ذكرتهما - لنفترض حدوث اضطرابات كالحروب الدينية، فلا أعتقد أن عدداً هائلاً من القرى تتملكها مشاعر سوى كره الجنود؛ مهما يكن الحزب الذي ينتمون إليه (Babeau, Le village sous l'ancien régime, iv, iii; L. Gregoire, La Ligue en Bretagne, chap, vi; Roupnel, La Ville et la Campagne au xvii siècle, i, 1).

ولما وقعت حادثة اقتحام سجن الباستيل كتب أحد المسافرين الأجانب إلى فرنسا «13 أغسطس 1789، قبل أن أغادر كليرمونت تناولت وجبتي الغداء والعشاء خمس مرات على طاولة في إحدى الاستراحات مع ما يقرب من عشرين أو ثلاثين رجلاً من التجار والبائعين والمسؤولين وغيرهم، ولم أجد منهم إلا الأحاديث التافهة، وبالكاد نجد القليل من السياسة عندما يخلو العقل من كل شيء سوى بعض المشاعر السياسية» (أرثر يانج). وقد وصف فولتير موقف الجماهير تجاه الحروب بين الدول في السطور التالية: «شر كبير أن يحشد الأمراء هذا العدد الضخم من الجنود، ولكن هذا الشر ربما يأتي بالخير، فالشعوب لا تشارك في الحروب التي يقودها زعماؤها؛ فمواطنو القرى المحاصرة ينتقلون من هيمنة شخص إلى آخر دون أن يكلفهم ذلك حياة واحد فيهم؛ إنهم ببساطة غنيمة للملك الذي يملك الجند والمدافع والمال» (Essai sur les Moeurs). وفي عام 1870 قالت إحدى الخادمات =

هذا نادراً ما نجد عقلاً أوروبياً لم يتأثر - أو يرى في نفسه أنه قد تأثر - بالمشاعر العرقية أو الطبقية أو القومية، أو حتى تأثر بثلاثتهم، ويبدو أن هذا التحول قد طرأ على سكان العالم الجديد، في حين أن مجموعة هائلة من سكان العالم الأدنى ممن يبدو عليهم أنهم لا يتأثرون بتلك الاتجاهات قد عرفوا للكره الاجتماعي طريقاً، وللنظام الحزبي سبيلاً وتشبعوا بالروح القومية تشبعاً أدى بهم إلى احتقار الآخرين، ومن هنا يتضح أن المشاعر السياسية في يومنا هذا قد حققت انتشاراً **عالمياً** لم يعرف من قبل.

كما أنها حققت التوافق والتناغم بين **الاتجاهات**، ويرجع ذلك إلى تطور وسائل الاتصال وأيضاً بفضل روح الجماعة، فمن الواضح أن الذين يحملون نفس الكره السياسي يكوّنون الآن كتلة متناغمة ومترابطة، إذ يشعر كل فرد فيها بأنه في وصال مع عدد غير محدود من الأشخاص الآخرين، في حين أن هؤلاء الأشخاص كانوا منذ قرن في منأى عن بعضهم بعضاً ويمارسون الكراهية ممارسة تتسم «بالشتات»، ويتضح ذلك وضوحاً استثنائياً في الطبقات العاملة، فحتى في القرن التاسع عشر لم تشعر تلك الطبقات سوى بالعداء المفكك تجاه الطبقة

= من بروسيا إلى سجين فرنسي «عندما تنتهي الحرب سأتزوج منك، لا تندهش من كلامي فالوطنية لا تعني لي الكثير» وأتخيل ذلك في عام 1914، فكثير من الخادمات في بروسيا أو غيرها شعرن بغياب تلك الوطنية؛ ولكن الكثير عبروا عن تلك الوطنية.

المعارضة ولم يبذلوا من الجهد إلا القليل المتناثر أثناء الحرب (مثل إضراب في إحدى المدن أو إحدى النقابات)، في حين أنهم يكوّنون في الحاضر نسيجاً مترابطاً من الكراهية ينتشر في أوروبا بأكملها، والواقع في أمر هذا التوافق أنه سيتجه إلى التطور أكثر من ذلك، فإرادة الجماعة هي واحدة من أهم سمات العالم الحديث، هذا العالم الذي صار يهتم كثيراً بالرابطات و«النقابات» و«الجماعات»، حتى في أكثر المجالات التي لم نتوقعها (كمجال الفكر)، ولكننا نسأل فنقول: هل من الضروري القول بأن مشاعر الفرد تقوى بشعوره أنه قريب من آلاف المشاعر المماثلة؟ وأضيف إلى ذلك أن الفرد يمنح الجماعة التي يعد نفسه عضواً فيها روحانية وقدسية دينية، ولكن هي في حقيقتها تقديس لمشاعره الخاصة، وليس تعزيزاً لقوتها.

وقد يُطلق على التوافق الذي تقدم وصفه بأنه توافق سطحي، ولكن قد أضيف إليه توافق وتناغم الجوهر، والسبب الحقيقي في أن أولئك الذين يحملون نفس المشاعر السياسية يكوّنون جماعة أكثر **ترابطاً** وعاطفة، أنهم يكوّنون أيضاً جماعة أكثر **توافقاً** وعاطفة تختفي فيها الاتجاهات الفردية للمشاعر، وتتأثر عاطفة كل عضو أكثر بمشاعر الآخرين؛ ففي فرنسا مثلاً، لا يسع المرء إلا أن يتعجب من أعداء النظام الديمقراطي (وأتحدث هنا عن الجمهور وليس الصفوة) الذين يبدون مشاعر ذات فوارق بسيطة واختلافات سطحية بين مختلف الأفراد، فقليلاً ما أضعفت سلوكيات الكره الفردية والأصيلة هذا القدر

من الكراهية - وقد يقول قائل: إن هذه المشاعر هي نفسها قد انحدرت إلى «مستوى أدنى من الديمقراطية»، وقد أظهرت اتجاهات معاداة السامية ومعاداة رجال الدين والاشتراكية، درجات أعلى كثيراً من التوافق في هذه الأيام عما أظهرته نفس المشاعر قبل مئات السنين، بالرغم من التنوع الهائل للاشتراكية. أفلا يميل أولئك الذين يخضعون لتلك المشاعر إلى التعبير عن الشيء ذاته؟ وجملة ما يقال: إن المشاعر السياسية، بصفتها مشاعر، قد حققت صفة الخنوع؛ فتبدو أنها تخضع للأوامر حتى في طريقة الإحساس بها، وأصبح من السهل أن نلحظ مدى القوة التي تُستمد من هذا التوافق والانسجام.

وفي هذا السياق يتضح أن زيادة التناغم بين المشاعر مصحوب بتحديد الهدف، ومثال ذلك أننا جميعاً نعلم أن الاشتراكية منذ مائة عام كانت تتمتع بالقوة والغموض لدى جمهور واسع من مؤيديها، ولكنها اليوم قد حددت بدقة الهدف الذي ترغب في تحقيقه، وحددت الوجهة الصحيحة التي تنوي ضرب أعدائها فيها وكذلك الحركة التي تعزم على تأسيسها كي تحقق النجاح اللازم؛ وهكذا قد نرى نفس التحول في حركة معاداة الديمقراطية، كما أننا على يقين بأن الكراهية تصبح أقوى عندما تحدد خصمها.

هناك كذلك درجة أخرى من تطور المشاعر السياسية، فعلى مدار التاريخ وحتى يومنا هذا أرى أن هذه المشاعر تعمل على فترات متقطعة، فأحياناً تزدهر وأخرى تهدأ، ولاحظت أن

موجات الكره الطبقي والعنصري المتعددة والقوية دون شك قد تبعتها فترات من الهدوء، أو على الأقل هي حالة مؤقتة، ومع أن الحروب بين الأمم كانت تستمر لسنوات، فإن الكراهية لم تكن تستمر كل هذه المدة - حتى لو قلنا إنها موجودة الآن. فلو أننا اطلعنا على الصحف اليومية كل صباح لرأينا أن مشاعر الكراهية السياسية لا تتوقف يوماً واحداً، إلا أن بعضها يتوقف فترة، على أحسن تقدير، وذلك لمصلحة أحدهم الذي يطالب بتكاتف المواطنين، وتُعد هذه الفترة هي فترة «**الوحدة الوطنية**»* التي لا يدعون إليها أبداً باسم الحب، ولكن فقط باسم الكراهية العامة التي تسيطر في الوقت الحالي على مشاعر الكره الحزبية، وبهذا اكتسبت المشاعر السياسية اليوم صفة الاستمرارية والتي تعد صفة نادرة ضمن جميع المشاعر.

ودعونا نتوقف عند الاتجاهات التي أدت إلى التخلي عن الكراهية الحزبية لصالح نوع آخر من الكراهية هي الأكثر شمولية، والتي استمدت من شعورها بتلك العمومية مذهباً جديداً لذاتها؛ ومن ثمّ كانت لها قوة جديدة، ومن المرجح ألا يلاحظ أحد ملاحظة كاملة بأن هذا النوع من الاتجاهات هو

---

* هي فترة هدنة سياسية حدثت في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى توقف فيها الحزب اليساري عن معارضة الحكومة أو الدعوة إلى تظاهرات بدافع الوطنية وأطلق عليها الوحدة المقدسة. [المترجم]

أحد السمات المهمة التي امتاز بها القرن التاسع عشر، فاختفت الكراهية القديمة للدول الصغيرة من أجل أن يبرز الشعور القومي العظيم، وحدث ذلك مرتين في القرن التاسع عشر؛ في ألمانيا وإيطاليا، وفي نفس الفترة (تحديداً في نهاية القرن التاسع عشر) في فرنسا، كانت الكراهية المتبادلة بين نبلاء البلاط الملكي ونبلاء المقاطعات واضحة في كراهيتهم الكبيرة لكل من ينتمي إلى غير طبقة النبلاء؛ وكذلك اختفت الكراهية بين العسكريين والنبلاء الشرعيين لنفس الاتجاه (غير النبلاء)؛ أما الكراهية بين رتب رجال الدين العليا والدنيا فقد تلاشت في كرههم المشترك للعلمانيين؛ وأخيراً انتهت الكراهية بين رجال الدين وطبقة النبلاء ليتحدوا في كرههم لعامة الشعب. وقد اندمجت كراهية تلك الرتب الثلاثة في عصرنا الحالي لتنتج لنا كراهية واحدة، وهي كراهية أصحاب الأملاك للطبقة العاملة. ولذلك يعد اختزال المشاعر السياسية في عدد صغير من مشاعر الكراهية البسيطة وانبثاقها من عمق القلب البشري غزواً للعصور الحديثة[2].

وإنني لا زلت أرى أن هناك تحولاً كبيراً في المشاعر السياسية في يومنا هذا إذا ما قورنت بالمشاعر الأخرى لدى

---

(2) ينبغي التنويه على أنه منذ أكثر من قرن انخرط أفراد الطبقة العاملة من قطاعات مختلفة في صراعات مستميتة فيما بينهم، انظر: (Martin Nadaud, Mémoires de Léonard, p. 93).

نفس الشخص، ولا شك أن المشاعر السياسية قد شغلت اهتمام الطبقة البرجوازية في فرنسا القديمة أكثر من المعتاد، ولكن ليس أكثر من حب المال والسعادة وتكوين أسرة والتفاخر بين الناس؛ فأقل ما يمكن قوله عن هذا البديل الحديث هو حينما تخضع هذه الطبقة للمشاعر السياسية، فإنها تتصرف مثلما تفعل حيال المشاعر الأخرى، ومثال ذلك يمكنك مقارنة الدور الضئيل الذي تلعبه المشاعر السياسية في البرجوازي الفرنسي كما ظهر في حكايات الفابليو التي ظهرت في دراما العصور الوسطى، وروايات سكارون وفروتيريه وتشارليز سوريل[3]، بنفس البرجوازي كما صوّره بلزاك وستاندال وأناتول فرانس وأبيل هيرمانت وبول بورجيه (بالطبع لا أتحدث عن عصور الأزمات مثل حروب التحالف وحرب القاذفات* حينما طغت المشاعر السياسية بالكامل على الفرد بمجرد أن تعرض لها)، والواقع في أمر المشاعر السياسية أنها تطغى على المشاعر الأخرى للطبقة البرجوازية، الأمر الذي أضعف الأخيرة لتناسب تلك المشاعر، وغنيٌ عن البيان أن التنافس بين العائلات والنزاعات التجارية والطموحات والمسارعة لنيل الألقاب الاجتماعية قد تأثرت جميعها اليوم سلباً بالمشاعر السياسية؛

---

(3) Petit de Julleville, La Comédie et les Moeurs en France au moyen age, and André Le Breton, Le Roman au XVIIe Siécle.

* سميت بهذا الاسم لأن أهل باريس استخدموا سلاح القاذف لمهاجمة أنصار كاردينال مازارين.

حتى إن العقل المعاصر ينادي بأعلى صوته «السياسة أولاً»، فربما قد لاحظ أن السياسة تنتشر اليوم في كل مكان وفي كل وقت، فلا شيء سوى السياسة[4]. لذا ما علينا إلا أن نفتح أعيننا لنبصر أن المشاعر السياسية تكتسب قوة أكبر عندما تتحد مع مشاعر أخرى، مشاعر ذات تعددية وتتسم بالثبات والقوة، أما رجل السياسة، فيمكن أن نقيس فيض مشاعره السياسية مقارنةً بمشاعره الأخرى في العصور الحديثة بأن نأخذ في الاعتبار منذ متى وتلك المشاعر، كما شرحها ستاندال (Stendhal)، مقتصرة على (أ) ألا يُقتل، (ب) أن يكون لديه معطفاً دافئاً.

ومن هنا نود أن نتساءل: كم مضى قبل أن تتحول رغبته الغامضة في إحداث تغييرات اجتماعية إلى مشاعر عندما هُيأت له بعض الأفكار العامة بسبب قليل من ظروف الفقر، وأقصد هنا عرض اثنتين من السمات الأساسية للمشاعر، ألا وهما الأفكار الثابتة والحاجة إلى تنفيذها[5]، وينبغي أن نذكر أن

---

(4) والأمر المستحدث أن الناس اليوم يقبلون مناصب كلها سياسية، بل يصرحون بذلك ويتفاخرون بها، أو بمعنى آخر أنه من الواضح تماماً أن الرجال وأصحاب المحال التجارية والشعراء لم ينتظروا الوقت الحاضر ليتخلصوا من المنافسين بالوسائل السياسية، وتذكر كيف تخلص خصوم الأديب الفرنسي لافونتين منه وأبقوه خارج الأكاديمية الفرنسية لمدة عشر سنوات.

(5) كما صرح بذلك دو توكفيل (De Tocqueville) بشدة أن هذه =

المشاعر السياسية بجميع فئاتها اليوم قد حققت تفوقاً على جميع المشاعر الأخرى لدى هؤلاء الذين تأثروا بها مثلاً، الأمر الذي لم يكن معروفاً من قبل.

وجملة ما يقال: إن القارئ ربما أدرك أهم عوامل الاتجاهات التي سبق وصفها، فقد اتسمت المشاعر السياسية بالانتشار العالمي والترابط والتوافق والاستمرارية والتفوق على غيرها من المشاعر - وربما يدرك أي إنسان ذلك بنفس درجة إتقان مهنة الجرائد السياسية اليومية والرخيصة، وزبدة كل هذه الآراء أنه لا يسع أي إنسان إلا أن يتدبر ويفكر ما إذا كانت حروب البشر قد بدأت الآن أم لا، فعندما يفكر المرء في هذه الأداة التي اخترعها البشر لتحسين مشاعرهم الخاصة، أو على الأقل تحقيق درجة من القوة لم نرَ لها مثيلاً، تلك القوى التي تجعلهم تضيق بهم كلما استيقظت ضمائرهم كل صباح.

وهكذا، فقد وضعت بين أيديكم بوضوح ما يسمى بتطور المشاعر السياسية بجوانبها السطحية سواء زادت أو نقصت، ولكنها صارت أيضاً مكتملة في قوتها الداخلية والعميقة اكتمالاً يدعو للتأمل.

= الأفكار تحدث فقط عندما يحث التحول الأول في حالة رجل السياسة على طلب المزيد؛ وأقصد في نهاية القرن الثامن عشر.

فقد حققتْ في المقام الأول تقدماً هائلاً في عملية إدراكها والوعي بها، فأقول ثانية، إن الفضل الأكبر يرجع إلى تأثير الصحف والجرائد، فمن الواضح أن العقل الذي تأثر بالكراهية السياسية اليوم صار مدركاً لمشاعره الخاصة، ويستطيع أن يكوّنها ويعيها جيداً بوضوح ودقة لم يعهدها منذ خمسين عاماً، فغني عن القول مدى تزايد قوة هذه المشاعر بتلك الوسيلة، وفي هذا السياق أود أن ألقي الضوء على اتجاهين من المشاعر لم يشهدهما عصرنا الحالي دون شك، ولكنهما حققا وعياً بنشأتهما واعترافاً بقيمتهما وتفاخراً بوجودهما.

وأول هذين الاتجاهين ما أطلقت عليه حتماً **القومية اليهودية**، فعندما اتُهِم اليهود في عدة دول في الماضي بأنهم عرق من الدرجة الدنيا، أو على الأقل شعب متميز غير قابل للاندماج بمحيطه، كان ردهم أنهم أنكروا ذلك التميز وتخلوا عن كل مظاهره ورفضوا الاعتراف بواقع العرق. ولكن رأينا البعض منهم في السنوات القليلة التي خلت يبذلون غاية ما في الوسع للتأكيد على هذه الأفضلية وتحديد سماتها ليتفاخروا بها- أو ما يعتقدون مثل ذلك - بل يمقتون أي محاولة للاندماج بأعدائهم (انظر أعمال اسرائيل زانجويل وأعمال أندريه سباير ومجلة **روفي جويف**)، وأنا هنا لا أحاول الكشف عما إذا كانت اتجاهات هؤلاء اليهود أرقى أم ليست أرقى من جهود الكثيرين الذين أرادوا ترك هويتهم؛ ولكنني ببساطة أشير إلى هؤلاء المهتمين بنشر السلام في العالم لأن عصرنا قد زاد

فيه الغرور الذي ساق فئة ضد أخرى، على الأقل بمقدار ما يكون هذا الاتجاه يتسم بالفخر والوعي الذاتي[6].

أما الاتجاه الآخر الذي أذكره لكم هو «**البرجوازية**» والتي أعني بها عاطفة الطبقة البرجوازية التي تميل إلى تأكيد ذاتها أمام أي طبقة تمثل لها تهديداً، وفي هذا السياق يمكننا القول بأن «الكراهية الطبقية» المتعمدة والمتعالية حتى يومنا هذا كانت في الأساس كراهية العامل للبرجوازيين، إن ذلك الكره المتبادل لم يُعترف به اعترافاً واضحاً، ولأن البرجوازيين شعروا بالخزي من غطرستهم التي ألصقت بهم عندما رأوا أنفسهم قد امتازوا على بني جلدتهم، فلم يسمحوا حتى لأنفسهم بالاعتراف بوجودها، بل يحاولون إقناع أنفسهم وغيرهم بأنها شكل من أشكال الاهتمام بالصالح العام[7]، وقد كان رد البرجوازيين على عقيدة الصراع الطبقي أنهم أنكروا وجود أي طبقات، وبالتالي قد أوضحوا أنهم رغم شعورهم بخصومتهم الجامدة للحزب المعارض، فإنهم لم يكونوا راغبين في الاعتراف بذلك الشعور، واليوم ما علينا إلا أن نتأمل «الفاشية» الإيطالية،

---

(6) أقصد هنا اليهود الشرقيين من الطبقة البرجوازية، فالطبقة العاملة من اليهود لم ينتظروا عصرنا لتبني مشاعر التمييز العنصري، ولكن ذلك لم يحدث إلا بإثارتهم.

(7) عبر عن هذه الفكرة بيندكت الخامس عشر عندما خاطب الفقراء قائلاً : «ابحثوا عن السعادة في ثراء المرموقين وترقبوا مساعدتهم بكل ثقة».

وكتاب «**مدح البرجوازية الفرنسية**» ومظاهر أخرى كثيرة على نفس النسق[8]، سنرى حينها أن البرجوازيين قد اكتمل وعيهم بعجرفتهم الخاصة ينشرونها ويبجلونها كما هي، ذلك بأن مشاعر العجرفة تلك مرتبطة بالمصالح العليا للعرق البشري، وسنجد أيضاً أنهم يتفاخرون بهذا التبجيل وبممارستهم العنترية والرعونة مع أولئك الذين يرغبون في هدم البرجوازية، ومن هنا برزت «روحانية» مشاعر البرجوازية في عصرنا الحالي في معارضتها لمشاعر الطبقة الأخرى[9]، وأدخل عصرنا مرة أخرى في التوازن الأخلاقي للبشرية واحداً من أكثر المشاعر التي تستحوذ عليه.

وصفوة ما انتهيتُ إليه أن تحول المشاعر بالكامل أثناء القرن الماضي يتراءى لي أوضح ما يكون في المشاعر القومية.

---

(8) على سبيل المثال، كتاب بول بورجيه «*La Barricade*» الذي يحث فيه الكاتب، وهو من أتباع الفيلسوف الفرنسي جورج سوريل، البرجوازيين ألا يتركوا للعمال احتكار مشاعر الطبقية والعنف، انظر أيضاً «*Les Devoirs de la Violenc*» للروائي الفرنسي أندريه بونير (اقتبس منها الكاتب هيلبرين كامينسكي في مقدمة لكتاب تولستوي *The Law of Love and the Law of Violence*)

(9) إن عبارة، البرجوازي الراقي، التي كانت تثير كثيراً من السخرية منذ عشرين عاماً، قد حققت للبرجوازيين الفرنسيين ثراءً روحانياً بسبب اندماجها مع القيم الوطنية والاجتماعية العليا». (*Eloge du Bourgeois Français, p. 284*)

وبداية القول: إن تلك المشاعر صارت أكثر عاطفة بكل ما في الكلمة من معنى بسبب أن فئة كبيرة من الناس قد مارسوها اليوم، فعندما ننسب الشعور القومي إلى الملوك ووزرائهم، فإنه يرتبط ارتباطاً أساسياً بمنفعة ما (كتوسع جغرافي أو بحثاً عن مكاسب تجارية أو تحالفات مثمرة)، ولكن تلك المشاعر عندما يتبعها اليوم عامة الناس فإنها تمثل لديهم المجد والتفاخر، إلا أن الحقيقة الواقعة تكمن في اتفاق الجميع على أن المشاعر القومية لدى المواطن المعاصر تقوم على مشاعر الفخر تجاه وطنه أكثر من وعيه الشامل بالمصالح القومية (هو لديه إدراك تام بتلك المصالح ولكن تنقصه المعلومات اللازمة عنها ولا يحاول أن يبحث فيها لأنه غير مهتم بقضايا السياسة الخارجية)، وأن هذا الوعي هو أقل كذلك من رغبته في أن يصبح مواطناً يتفاعل مع مشاعر العزة والمهانة التي يرى أنها تواجه الوطن، ولا شك أنه يريد أن يحقق وطنه مكاسب جغرافية تزيد من ثرائه وحلفائه الأقوياء، لكنه يرى أن اعتبارات المجد والمكانة التي سيحققها الوطن أكثر من النتائج الخطيرة التي ستلحق بأمته، فعندما تنتشر المشاعر القومية فإنها تصير مجداً تتفاخر به الأمم ومن ثَمَّ تكوّن عصبية قومية[10]. ولكي

(10) لعلي أجد هنا مساحة أستفيض فيها لتوضيح مستجد الأحداث، ففي القرن السابع عشر كانت تستحوذ فكرة المجد الوطني على المواطن بالفعل؛ وخطابات راسين دليلٌ كافٍ على ذلك (انظر الصفحة الخاصة بهذا الموضوع في كتاب «مذكرات» للكاتب =

نقيس مدى العاطفة التي صارت إليها، وهل أصبحت غير منطقية تماماً أم لا (وبالتالي أقوى)، فعلى المرء أن يفكر في الشوفينية*؛ وهي شكل من أشكال الوطنية لا سيما تلك التي اخترعتها الديمقراطيات. فوفقاً للرأي الحالي، إذا اعتقدت أن مشاعر المجد الوطني أضعف من المصلحة الشخصية، فلماذا يموت الرجال فداءً لمجد بلادهم، في حين إذا مس الضرر مصالحهم الشخصية فإنها تكون مجرد إصابات؟

إن تلك العصبية التي كوّنتها المشاعر القومية قد جعلت

= الفرنسي دي بوينتس، الكتاب الرابع عشر)؛ ولكن ترك ذلك للملك ليقرر ما يتطلب لهذا المجد؛ كذلك سخط فوبون (مهندس عسكري) على معاهدات السلام في رايسفايك «والتي سببت عاراً للملك والأمة بأكملها» هو شعور استثنائي في ظل الحكم القديم، أما المواطن في العصر الحديث فيسعى للشعور بما يمليه عليه المجد الوطني، ذلك بأنه على استعداد بأن يثور على قادته إذا كانوا يرون خلاف ذلك، ولكن هذا التحول ليس مقتصراً على الأمم التي تعيش في ظل الأنظمة الحديثة؛ إذ إن المواطنين في حكم الملكية الألمانية سنة 1911 رأوا بأن التنازلات التي قدمتها فرنسا لبلادهم في مقابل التخلي عن المغرب ليست كافية، فغضبوا غضباً شديداً على حكامهم الذين قبلوا بهذه الشروط التي تعد وصمة عار لمجد ألمانيا في رأيهم، وقد يحدث نفس رد الفعل في فرنسا إذ تحولت إلى ملكية مرة أخرى وأخذ الملك على عاتقه مصلحة الشرف القومي بطريقة مختلفة عن طريق رعاياه، علاوة على ذلك، أن هذا حدث بالفعل في عهد الملك لويس فيليب.

* الغلو في الوطنية أو الوطنية المفرطة.

احتمالية اندلاع الحروب في هذه الأيام أكثر من ذي قبل، وذلك كلما انتشرت في المجتمع، ومن الواضح أن الشعوب واستعداد «الحكام» الجدد للحرب بمجرد أنهم شعروا بالإهانة قد جعلا السلام يمر بمخاطر أكبر لم يكن لها وجود في عصر الملوك ووزرائهم الذين كانوا أكثر عقلانية، وقادرون على التحكم في النفس، بالإضافة إلى أنهم كان لديهم الاستعداد التام لتحمل الإساءة عندما لا يرون أنفسهم أنهم هم الطرف الأقوى[11]، إلا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نتساءل: كم مرة حدث في أثناء المائة سنة الخالية أن أشعل العالم فتيل الحرب فقط لأن الوطن شعر بأن كرامته قد أهينت؟[12] ونضيف

---

(11) ومثال ذلك مدينة أولموتس التي سقطت عام 1805، فمن الواضح أنه لا يوجد ديمقراطية كانت ستتحمل ذلك، على الأقل كما في الفلسفة التي بيّنها ملك بروسيا وحكومته، ومن جانب آخر هل من الضروري التأكيد على مخاطر أخرى على السلام الذي يوجد تحت حكم الملوك؟ فيكفي أن نستشهد بمقولة مونتسكيو «إن الحرب والتوسع هما روح الملكية».

(12) في عام 1886 وقعت حادثة شنوبيل؛ في 1890 حدث في فرنسا أن استُهزئ بملك إسبانيا وهو في زي الفرسان؛ وفي عام 1891 حادث مرور إمبراطورة ألمانيا عندما كانت تمر من باريس؛ 1897 وقعت حادثة فشودة؛ 1904 أغرق الأسطول الروسي سفن صيد بريطانية إلخ. أنا لا أدعي بالطبع أن الملوك فقط هم من يشنون حروباً فعلية، على الرغم من أن زعمهم «إهانة الكرامة» كانت مجرد حجة استخدموها، فمن الواضح أن لويس الرابع عشر لم يشن حرباً على هولندا لأنها أصدرت ميدالية تسيء له، علاوة =

إلى هذه الحقيقة أن تلك العصبية تجاه الوطن تُقدم لقادة الأمم وسيلة جديدة وفعالة لخوض الحروب التي يتطلعون إليها، سواء في الداخل أو الخارج؛ فنموذج بسمارك لم يغب عنهم، ويثبت ذلك الوسائل التي استخدمها في حروبه مع النمسا وفرنسا، وضمن هذا الإطار أوجز بالقول: إن أنصار الملكية في فرنسا يؤمنون بأن «الديمقراطية تعني الحرب»، بشرط أن تكون الديمقراطية هي تحقيق الشعب لما يسمى بالعصبية القومية، وأيضاً التعهد بألا يسبب تغيير النظام الحكومي عرقلة هذه الظاهرة[13].

= على ذلك أنني على يقين بأن الملوك يخوضون غزوات عسكرية من حين لآخر كنوع من الكياسة التي تبدو أقل جذباً للديمقراطيات؛ فربما يظن البعض أن السلام العالمي يتعكر صفوه ببعض رحلات شارل الثامن في إيطاليا أو جولات شارل الثاني عشر في أوكرانيا.

(13) هل ينبغي الإشارة إلى أن الحروب التي شنتها المشاعر العامة ضد إرادة الحكومة قد حدثت تحت حكم الملكية؟ ولكن ليس فقط في ظل الملكية الدستورية مثل حرب فرنسا مع إسبانيا عام 1823، ومع تركيا عام 1826، ولكن أيضاً في ظل الملكيات المطلقة. فمثلاً حرب الخلافة النمساوية التي فرضت على فلوري عن طريق تأليب الرأي العام؛ وحرب استقلال أمريكا في عصر لويس السادس عشر؛ وحرب بروسيا ضد نابليون عام 1806. وعام 1813 وقعت حرب الساكسون. ويبدو أيضاً أن حرب 1914 قد فرضت على حكام الملكية المطلقة مثل نيقول الثاني وفيلهلم الثاني بسبب المشاعر العامة التي عملا على إثارتها لسنواتٍ طويلة وبعدها لم يتمكنا من إخمادها.

وهناك عامل آخر لتعزيز المشاعر القومية وهو أن الدول لا تنظر إلى ذاتها الآن فقط بمقياس وجودها المادي أو قوتها العسكرية أو بمقدار ما تستحوذ عليه من مساحات جغرافية أو ثروة اقتصادية، بل تقيس ذاتها بوجودها الأخلاقي، فاليوم تؤمن كل أمة بذاتها بل تضع نفسها فوق كل الأمم بتفوقها في علوم اللغة والفنون والآداب والفلسفة والحضارة و«الثقافة» وذلك بتعالٍ لم نشهده من قبل (بتحريض شديد من فئة المثقفين)؛ فصارت الوطنية اليوم هي الدفاع عن نمط فكري معين ضد أنماط فكرية أخرى[14]، وكلنا يعلم كيف تزيد هذه المشاعر من قوتها الداخلية بتلك الطريقة، وأن الحروب التي تقررها هي

---

(14) **«ولكن ما هو أهم بكثير من الحقائق المادية هو روح الأمم؛ فمن بين جميع الأعراق سنلاحظ حالة من الغليان؛ إذ يدافع البعض عن مبادئ خاصة ويدافع آخرون عن مبادئ معارضة لها، ولن تتخلى الشعوب المتصارعة عن مبادئها القومية عندما تصير لها عضوية في عصبة الأمم»**. (من خطاب وزير الخارجية الألماني في جينيف بمناسبة دخول ألمانيا عصبة الأمم، 10 من سبتمبر 1926). وتابع المتحدث قائلاً: **«ولكن يجب ألا تكون النتيجة أن تطغى دولة على أخرى»**. وهنا ربما يتعجب أحدهم لماذا لم يضف عبارة: «مخالفة لها». فما أرقى لغة المؤرخ الألماني ترايتشكي (Treitschke) وتحريه الحقيقة في الوقت نفسه حينما قال: «إن الوعي الذاتي الذي اكتسبته الأمم وزادت قوته بسبب الثقافة يؤكد على أن هذه الحرب لن تنتهي من الأرض رغم توافق المصالح وتوحيد العادات والمظاهر الخارجية للحياة». (نقله شارل أندلر في كتابه أصول القومية الجرمانية Les Origines du Panger-manisme, p. 223)

أشرس من تلك التي شنها الملوك قديماً، رغم رغبتهم في الاستيلاء على نفس مساحة الأرض، وخلاصة القول: إن نبوءة شعراء الساكسونية القديمة قد تحققت بالكامل: «في تلك الأيام ستتحول الدول إلى كيانات لم تكن عليها في السابق - أي أنها ستتمثل فقط في أشخاص ستتكون لديهم مشاعر كراهية، تلك الكراهية التي ستتسبب في حروب ضارية لم تشهدها من قبل»[15].

ولا نبالغ القول بأن هذا النوع من الوطنية لم يشهده التاريخ قبل ذلك اليوم؛ فمن الواضح أنها مرتبطة باتباع جمع كبير من الشعب لتلك المشاعر، وقد بدأ ذلك النوع من الوطنية عام 1813 في ألمانيا، التي كانت المحرك الحقيقي للإنسانية في إطار الوطنية الديمقراطية، بما تعنيه تلك الكلمة بأن تقرر تلك الأمة معاداة أمم أخرى بحجة أنها تتميز عنها بسمات لها جذور تاريخية[16]، (لم ترغب فرنسا في عصر الثورة أو زمن

---

(15) وهذا ما تنبأ به الكاتب الفرنسي ميرابو (Mirabeau) عندما أعلن للجمعية التأسيسية أن حروب «الدول الحرة» ستؤدي إلى حروب بين الملوك نهايتها محزنة.

(16) عقيدة «الروح القومية» هي نتيجة منطقية وواضحة للروح العامة، كما أن الأدب الديمقراطي (الشعبي) قد تغنى بها على نطاق واسع: ويظهر ذلك في الحركة الرومانسية، ويبدو أن ألد أعداء الرومانسية والديمقراطية قد تبنوها أيضاً، ونعثر عليها باستمرار في الحركة الفرنسية، لذا من المحال أن تكون وطنياً في الوقت الحالي من غير أن تداهن المشاعر الديمقراطية.

الإمبراطورية أن تعلو على شعوب أخرى بفضل لغتها أو آدابها)، وقلنا إن هذا الشكل من ممارسة الوطنية لم تعهدها الأزمان الماضية بدليل وجود أمثلة لا حصر لها من الدول كانت تحترم ثقافات الشعوب الأخرى، حتى تلك التي كانوا في حروب معها، بل يحترمونها أيضاً؛ وجدير بالذكر أن أشير هنا إلى تبجيل روما لعباقرة اليونان، رغم أن روما ترى من الضروري غزو اليونان؛ كذلك أشير إلى احترام غزاة روما، مثل أتولف (Ataulf) وثيودوريك (Theodoric)، لعباقرة الروم؛ وأذكر مثالاً بين أيدينا، عندما ضم لويس الرابع عشر منطقة ألزاس (Alsace) إلى ملكه، لم يفكر لحظة واحدة في منع استخدام اللغة الألمانية[17]، وفي الماضي كانت الشعوب تظهر تعاطفاً

---

(17) لم يحدث ذلك إلا في عام 1758 عندما قررت حكومة الملك بناء المدارس في ألزاس «حيث ستدرس اللغة الفرنسية»، وقال فيدال دو لا بلاش في كتابه (La France de l'Est, 1, vi): «لا ينبغي أن نقلق من عدم الاكتراث بقضية اللغة، فدعونا نتعلم الدرس من وراء ذلك، فاللغة تجعلنا نتخطى أي أحقاد دفينة تجعل الأمم بعضها في صدام مع بعض بحجة اللغة، فهي تأخذنا إلى عصر يقود فيه عقل ما العلاقات الإنسانية، فلم تكن هناك قضية للغة، ففي القرن الثامن عشر كانت الحروب لا تدوم بعدها الكراهية طويلاً، ولم ينتشر ويتفشى داء العداوة القومية بالوسائل المتاحة الآن أمام الدولة بما فيها المدارس»، ولكن نسي هذا المؤرخ البارز أن الدولة تتوفر لديها هذه الوسائل وبموافقة الشعوب؛ فقد ميزت الشعوب نفسها، أو على الأقل الطبقات الراقية بينهم، وبدعوة من رجال الأدب، عن باقي الأمم واغتروا بلغاتهم وثقافاتهم على نصف القرن الفائت.

تجاه ثقافة الأمم الأخرى التي كانت في حرب معها، أو يدعوهم لتبني ثقافتهم، وإلى جانب ذلك، كان دوق ألبا يتخذ الإجراءات اللازمة لحماية المثقفين في المدن الهولندية التي كان يوجه جيشه إليها؛ أما في القرن الثامن عشر، فالمدن الألمانية التي تحالفت مع فريدريك العظيم ضد فرنسا اعتنقت الأفكار الفرنسية والنمط الفرنسي في حياتهم وأيضاً الأدب الفرنسي[18] بحرية تامة أكثر من السابق؛ وفي أثناء الصراع مع إنجلترا، أرسلت حكومة المؤتمر القومي وفداً إلى إنجلترا كي يحثوا الإنجليز على استخدام النظام المتري الفرنسي[19]، وخلاصة القول: إن المبدأ الذي يقول بأن الحرب السياسية تشمل أيضاً حرب ثقافات ما هو إلا بدعة ابتدعتها العصور الحديثة، مضفياً على هذه الثقافات مكاناً بارزاً في تاريخ الإنسانية الأخلاقي.

وهناك عامل آخر لتعزيز المشاعر القومية، وهو إصرار الشعوب على التعرف على تاريخها، وبالتحديد التعرف على شموخ أسلافهم، فتهتز مشاعرهم لتطلعات القرون الماضية التي تتعلق بالحقوق التاريخية، إن تلك الوطنية العاطفية لهي أيضاً إحدى سمات الوطنية كما يمارسها عامة الشعب (وأقصد بـ «عامة الشعب» هنا جميع العقول التي تخضع لأهوائها، أي

---

(18) مرجع (Brunot, *Histoire de la Langue Française*, t. v, liv. Iii)

(19) فيما يتعلق بهذا الموضوع يمكنك الاطلاع على تعليقات ثمينة لأوجست كونت (Cours de Philosophie Positive, 57e lecon)

المجتمع والأدباء)، وفي هذا السياق أذكر أنه عندما كان يرغب **هيوز دي ليون** (Hugues de Lionne) أن يغزو إقليم فلاندر (Flanders) لضمه إلى بلاده، أو عندما أراد **سياس** (Siéyes) أن يضم البلدان المنخفضة* لم يفكرا في مشاعر إحياء ذكرى أرواح **الغال القديمة**، كذلك لم يفكر بسمارك (لا أعني ما قاله) في إحياء ذكرى **فرسان التيوتون** عندما كان يطمع في الاستيلاء على الدوقيات الدنماركية[20].

إنّ الذين يودون أن يشيع العنف من منظور المشاعر القومية ويسرون بتلك الرغبة، فلينظروا إلى عاقبة تلك المشاعر عند الألمان عندما طالبوا بالحفاظِ على روح الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وعند الإيطاليين في تطلعاتهم إلى إحياء مطامع الإمبراطورية الرومانية[21]، وغنيٌ عن البيان: إن قادة

---

* الأراضي التاريخية حول الدلتا المنخفضة لأنهار الراين وسخيلده والميز، وتضم حالياً بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ وأجزاء من شمال فرنسا وغربي ألمانيا.

(20) الواقع في هذا الأمر أن الشعوب لا تؤمن بأن عظمتها تعود إلى زمن أجدادها؛ فهي تتجاهل التاريخ ولا تصدقه حتى وإن كان حقيقياً؛ إن الناس يصدقون فقط ما يصدقونه، أو بمعنى أوضح، هم يريدون أن يصدقوا ما يصدقونه. ويكفي هذا أن يزيدهم وحشية، وربما أكثر من ذلك عندما يؤمنون بالتاريخ.

(21) وواضح أن فرنسا هنا في مركز أقل من جاراتها. فالمواطن الفرنسي الحديث يشعر بالميول قليلاً إلى الادعاء بعظمة شارلمان أو حتى لويس الرابع عشر على الرغم من تصريحات عدد من الأدباء.

الدول يرون أن مشاعر العامة هي أداة جديدة وفعالة لتنفيذ خططهم، أداة يعرفون كيف يستخدمونها جيداً، وأذكر مثالاً حدث مؤخراً - لنتأمل النتيجة التي كانت الحكومة الإيطالية قادرة على تحقيقها من الرغبة الجامحة عند مواطنيها أن يستيقظوا في الصباح ويجدوا أن مطالبتهم بمقاطعة فيوم* قديمة العهد وعمرها قرون.

وإجمالاً ينبغي أن يُقال إنه بسبب ممارسة العوام للمشاعر القومية، فإن تلك المشاعر تتخفى في زي الروحانية بل تتزين بالعشق الديني، فالروحانية والعشق الديني لم تعرفهما مشاعر عقول العظماء العملية، إذاً فمن الضروري أن نذكر أنهما يجعلان تلك المشاعر أقوى وأعمق، ومرة أخرى أقول إن هذا النوع من الوطنية يتحمس له من يملك تلك المشاعر، حتى وإن كانوا من الأبطال الذي يصدعون الرؤوس بالعقل الأرستقراطي، وقد تحدث تشارلز موريس مثل فيكتور هوجو عن «فرنسا المقدسة»، كما أن هذا العشق الروحاني الممارس تجاه الوطن لا ينبغي تفسيره من طبيعة هذا العاشق لوطنه فقط، ولكن أيضاً من التغييرات التي حدثت لذلك المعشوق، ففي المقام الأول نرى مشهد القوة العسكرية وتنظيم الدول الحديثة، والتي أصبحت أكثر هيبةً وإجلالاً عن سابق زمانها، فعندما نرى تلك الدول تخوض حروباً لأجل غير محدود بعد أن فني رجالها، ثم

---

* هي الآن جزء من كرواتيا.

نراها تعيش سنواتٍ طويلة وقد نفد مالها، فحينئذ سنفهم لماذا ينقاد بعض من عندهم شيئاً من علامات التدين إلى الاقتناع بأن لهذه الدول روح تمتاز بها عن غيرها من المخلوقات العادية.

وفي هذا السياق ينبغي الإشارة إلى ازدياد كبير في قوة العاطفة القومية والتي حدثت في آخر خمسين سنة، وأعني بذلك المشاعر السياسية الكبيرة والمتعددة والتي كانت في الأساس منفصلة عن الشعور القومي، وقد أصبحت مرتبطة بها الآن، وهذه المشاعر هي (أ) الحركات التي قامت ضد اليهود؛ (ب) حركة الطبقات المالكة ضد البروليتاريا*؛ (ج) الحركات السلطوية ضد الديمقراطيين، فاليوم كل واحدة من هذه المشاعر مقرونة بالشعور القومي وتؤكد أن معاداتها هي إنكار للقومية، وكذلك عندما يتأثر إنسان بواحدة من هذه المشاعر فإنه قد تأثر بالثلاثة؛ وبالتالي يزداد الشعور القومي بإضافة المشاعر الثلاثة، علاوة على ذلك أن هذه الزيادة هي علاقة تبادلية، لذلك نجد أن الرأسمالية ومعاداة السامية والسلطوية كلها تستمد قوتها من الاندماج مع القومية.

ولا يفوتني هنا أن أنهي موضوع تطور المشاعر السياسية في العصر الحديث دون أن أذكر سمة أخرى؛ ألا وهي أن الذين يدركون إدراكاً مباشراً بالمنفعة العائدة عليهم من انتمائهم إلى دولة قوية عددهم أكبر ممن كانوا في الماضي، وقد رأيت

---

* الطبقة العاملة.

في جميع الدول العظمى اليوم أن الذين يرون في الانتماء إلى فئة قوية يحترمها ويخشاها الجميع ضرورة لا محيص عنها من أجل ازدهار أعمالهم؛ ليسوا فقط ممن ينتمون إلى عالم الصناعة والأعمال الضخمة ولكنهم أيضاً عدد ضخم من صغار التجار والبرجوازيين والأطباء والمحامين وحتى من الكُتّاب والفنانين والعمال أيضاً، فهؤلاء الذين في وضع يسمح لهم بإقرار هذا النوع من التغيير يتفقون على أن هذه المشاعر لم تكن موجودة منذ ثلاثين عاماً بين صغار التجار في فرنسا مثلاً؛ على الأقل بنفس الطريقة المعروفة بوضوح كما هو الحال اليوم، ويبدو أن هذا الأمر قد طرأ حديثاً على الذين ينتمون إلى ما يسمى بالمهن الحرة؛ فلم نسمع من قبل عن الفنانين أنهم يسخرون باستمرار من حكومة دولتهم لأنها «لم تعطِ بلدهم الهيبة الكافية لفرض فنونهم على أقوام آخرين»، إن الشعور النابع من وجهة نظر مهنية بأن لديهم مصلحة في الانتماء إلى دولة قوية هو أمر مستحدث أيضاً بين الطبقات العاملة، وبالنسبة للحزب «النازي» الذي يبدو أنه موجود في كل مكان إلا فرنسا، هو أيضاً تطورٌ سياسيٌ حديث بالكامل، أما التطور بالنسبة للصناعيين فليس شعورهم بمدى اهتمامهم بأن تكون دولتهم قوية، ولكن أن يتحول هذا الشعور اليوم إلى فعل وإلى ضغط رسمي على حكوماتهم[22]، لذلك فإن تطور الوطنية القائمة على

---

(22) على سبيل المثال، فالخطاب المنسوب إلى السيد فون بتمان =

المنفعة لا يمنع بالتأكيد هذا النوع من الوطنية (الذي تقدم ذكره) أن يكون أقل انتشاراً بكثير من الوطنية[23] القائمة على تحقيق المجد؛ ومع ذلك فإنها تحقق ازدياداً في قوة المشاعر القومية.

وأنتقل الآن إلى المرحلة الأخيرة والأهم في مراحل تطور المشاعر السياسية في العصر الحديث، سواء العرقية أو الطبقية أو الحزبية أو القومية، لما رصدتُ تلك المشاعر في الماضي

= هولفيغ في مايو 1914 «النقابات الصناعية والزراعية الستة العظمى في ألمانيا» لم يختلف كثيراً عما كتبه خبراء المعادن في بروسيا عام 1815 للفت انتباه حكوماتهم بأن أي ضم عسكري يجب أن يكون في صالح الصناعة. انظر (Vidal de La Blache, La France de l'Est, chap. Xix) كما أن بعض الألمانيين مصرون على التأكيد على الطابع الاقتصادي لقوميتهم. ويقول أحد أعضاء رابطة الشعوب الجرمانية المعروفين «حتى لا ننسى أن الإمبراطورية الألمانية، التي يرونها بالخارج دولة عسكرية بحتة، هي في الأساس دولة اقتصادية (الاتحاد الجمركي الألماني).» ويكرر: «إن الحرب بالنسبة لنا هي استمرار لنشاطنا التجاري في أوقات السلام، بوسائل أخرى لكن بنفس المنهجية.» انظر الكتاب كاملاً: (Naumann, L'Europe Centrale, pp. 112, 247). فمن الواضح أن ألمانيا ليست الدولة الوحيدة التي تمارس الوطنية التجارية (فقد فعلت انجلترا ذلك كثيراً ولوقت طويل) ولكنها الدولة الوحيدة التي تتباهى بذلك...».

(23) وكي تبني وطنية أقل عاطفةً، انظر مثلاً الاتفاقيات التي أُبرمت مع الأجانب والتي فضلتها الوطنية جلباً للمصلحة (مثل معاهدة الحديد بين فرنسا وألمانيا)، والتي تمردت عليها الوطنية القائمة على الفخر.

وجدتها تتكون من دوافع عاطفية بحتة، وغرائز فطرية طبيعية خالية من أي تضخيم لأفكارهم أو أنظمتهم - على الأقل بين الأغلبية، فالثورة التي قام بها العمال في القرن الخامس عشر ضد الطبقات المالكة كانت على ما يبدو أنها لا تتبع أي نوع من مذاهب أصل الممتلكات أو طبيعة رأس المال؛ وأن الذين قاموا بمذابح ضد الغيتو* لم يكن لديهم أي آراء حول القيم الفلسفية لأفعالهم؛ وعندما هاجمت قوات شارل الخامس المدافعين عن مدينة ميزيريس** لم يتبين أن المعركة قد اشتدت بسبب نظرية مصير العرق الجرماني والأساس الأخلاقي للعالم اللاتيني، أما اليوم فقد لاحظت أن كل اتجاه من المشاعر السياسية محاط بشبكة متكاملة من العقائد ذات بنية مذهبية محكمة، الغرض الأساسي منها هو إظهار القيمة الأسمى لأفعالها من وجهات نظر مختلفة، إلا أن نتيجة تلك الأفعال هي مضاعفة قوتها العاطفية، لذا ينبغي لنا أن ننظر إلى النظام الأيديولوجي للقومية الجرمانية المعروفة باسم «رابطة الشعوب الجرمانية» (Pangermanism) ونفس الأيديولوجية للملكية الفرنسية لندرك إلى أي درجة من التطور نقل لنا عصرنا الحالي تلك الأنظمة، حاملاً معها الجمود الذي أسسته تلك المشاعر في كل اتجاه تميل النظريات إلى إثباته، بالإضافة إلى الدقة التي

* المَعزِل يشير إلى منطقة يعيش فيها، طوعاً أو كرهاً، مجموعة من السكان يعدهم أغلبية الناس خلفية لعرقية معينة أو لثقافة معينة أو لدين.

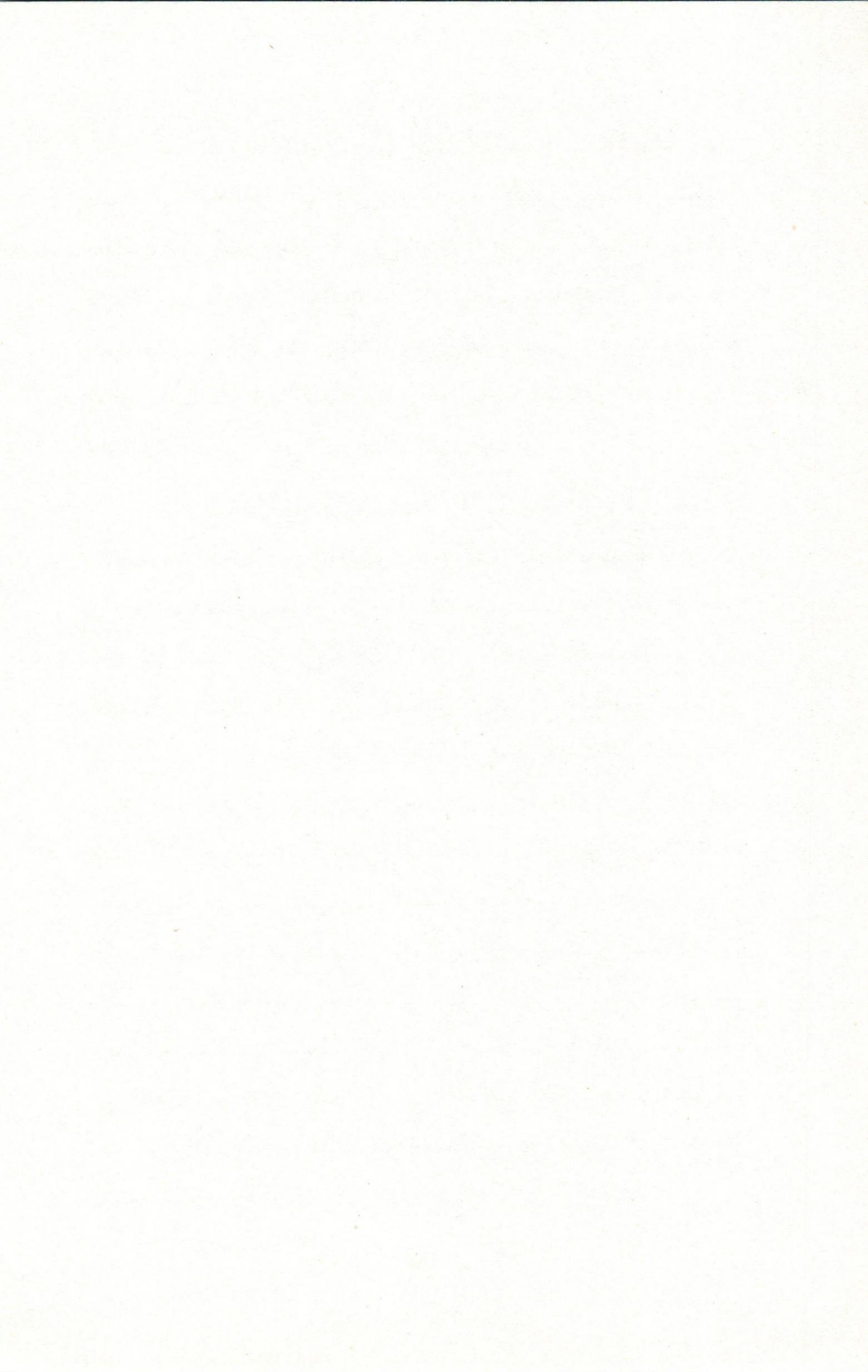
** بلدة في شمال فرنسا.

استخدمتها تلك النظريات، وكذلك البحوث الكثيرة والعمالة والتحقيقات العميقة المتبعة في كل هذه الاتجاهات، إن عصرنا الحالي هو عصر **المنظمات الثقافية للكراهية السياسية**، إذ إن إحدى مطالبها في المستقبل أن تراقب التاريخ الأخلاقي للإنسانية.

ومنذ أن ظهرت تلك الأنظمة وهي تعتمد على تأسيس المشاعر التي ترسل الخير إلى هذا العالم وتحارب قوى الشر الموجودة فيه، ولكن ما تريده تلك المشاعر اليوم هو تأسيس تلك الأنظمة ليس فقط من الناحية السياسية بل من الناحية الأخلاقية والثقافية والجمالية أيضاً، فمعاداة السامية ورابطة الشعوب الجرمانية والملكية الفرنسية والاشتراكية كلها ليست ظواهر سياسية فقط؛ وذلك لأنها تدافع عن أنماط خاصة من الأخلاق والثقافة والوعي والأدب والفلسفة والصور الفنية، وقد أضاف يومنا الحاضر حالتين جديدتين إلى نظرية المشاعر السياسية التي صارت أقوى في هاتين الحالتين؛ الحالة الأولى هي أن الجميع يطالب اليوم بأن تكون حركته متماشية مع «نظرية التطور» و«التطور الجذري للتاريخ»، وقد ظهر اليوم ما يسمى بـ «القانون التاريخي» بسبب اتجاهات هذه المشاعر، سواء تلك التي استمدت من أفكار ماركس أو شارل موريس أو هيوستن تشامبرلين، واستناداً إلى هذا القانون شرعت تلك الحركات في استخدام روح التاريخ وبالتالي سيتحقق النصر لا محالة، في حين أن الطرف المعارض يقاوم تلك الروح ولكن يستطيع فقط أن يحقق نصراً مؤقتاً، ولكن ما هي إلا مجرد رغبة قديمة في

تحديد مصير أحد الطرفين إلا أنها أخذت قالباً علمياً، وهذا ينقلنا إلى الحالة الثانية وهي أن جميع الأيديولوجيات السياسية تطالب بأن تُبنى على أساس علمي، بل أن تكون هي ذاتها نتيجة «رصد دقيق للواقع»، وكلنا يعلم ماذا تحقق للمشاعر السياسية بموجب هذه المطالب من ثقة بالنفس وجمود وهمجية (مقارنة بالسمات الجديدة في تاريخ المشاعر السياسية؛ والملكية الفرنسية هي خير مثال على ذلك).

وخلاصة القول إن المشاعر السياسة اليوم قد أظهرت درجة من العالمية والترابط والتوافق وتحديد الهدف والاستمرارية والتفوق على غيرها من المشاعر الأخرى على نحو لم يُعرف حتى يومنا هذا؛ فقد أصبحت تلك المشاعر تريد علواً في الأرض أكثر من السابق، رغم أن البعض منها لم يستطع الوصول إلى هذا الإدراك فلحقت بالمشاعر القديمة؛ ونادراً ما يعترف بها حتى يومنا هذا، أما البعض الآخر فقد صار أكثر عاطفية، تؤثر على قلوب الرجال في نواحٍ أخلاقية لم تصل إليها من قبل، بل إنها اكتسبت طابعاً روحياً قد توارى منذ قرون، كما أنها مزودة بأدوات أيديولوجية تستطيع بها، وباسم العلم، إظهار القيم السامية لأفعالها واللجوء إلى التاريخ، لقد وصلت المشاعر السياسية اليوم إلى درجة من التطور (الاكتمال) لم تشهدها العصور السابقة، في الداخل والخارج، ولديها قيم خاصة وتتمتع بقوة داخلية، إجمالاً: إن عصرنا الحاضر هو عصر السياسة لا ريب.



الفصل الثاني

أهمية هذه الحركة - طبيعة المشاعر السياسية

ما أهمية هذه الحركة؟ وما هو الاتجاه البشري العميق والسطحي الذي أظهر التقدم والنصر؟ ولكن السؤال يفتقر هنا إلى شرح طبيعة المشاعر السياسية، فما هي تعابير الحالة الذهنية العامة والضرورية، وما هو الأساس النفسي لها، حسب أقوال المدارس المختلفة؟

ويتراءى لي أن هذه المشاعر من الممكن أن تُختزل إلى رغبتين رئيستين، ألا وهما (أ) إرادة جماعة من الناس في التمسك (التشبث أو الاحتفاظ) ببعض المزايا المادية، كالتوسع الجغرافي، ووسائل الترفيه، والسلطة السياسية وجميع مزاياها المادية؛ (ب) إرادة جماعة من الناس في أن يصبحوا أفراداً لديهم شعور متعالٍ، بالقدر الذي يجعلهم في تميز عن غيرهم؛ وبمعنى آخر، يمكن اختزال هذه المشاعر إلى رغبتين، إحداها هي السعي لتحقيق المصالح، والأخرى هي الشعور بالفخر أو تقدير الذات، فهاتان الرغبتان تندرجان تحت مسمى المشاعر السياسية بنسب مختلفة وفقاً للمشاعر التي يتبناها المرء، ومن

الواضح أن المشاعر العرقية، باعتبار أنها ليست من المشاعر القومية، تقوم في الأساس على إرادة جماعة من الناس يرون أنفسهم أفضل وأعلى من غيرهم؛ وكذلك نفس الشيء للمشاعر الدينية، إذا كانت دينية خالصة.

ومن ناحية أخرى فإن المشاعر الطبقية، التي نراها على الأقل بين الطبقات العاملة، تقوم بوضوح على تحقيق المكاسب المادية فقط، ويبدو أيضاً أن الطبقة العاملة بدأت في التخلي عن الشعور بالتميز؛ على الأقل في حديثها عنه، ذلك الشعور الذي شرعت جورج ساند وثوار 1848 في غرسه في تلك الطبقة، إذاً المشاعر القومية تشمل كلا العاملين: فالوطني يريد أن يحقق مكاسب مادية وتكون له الأفضلية على غيره؛ وهذا هو سر التميز الظاهر في قوة هذه المشاعر (بما تحمله الكلمة من معنى) على بقية المشاعر، خاصة تفوقها على الاشتراكية، وأما المشاعر التي تحركها المصالح فقط فهي ضعيفة في مواجهتها مع مشاعر أخرى تمتزج فيها المصلحة مع الشعور بالفخر، وهذا أيضاً من أسباب ضعف الاشتراكية إذا ما واجهت المشاعر الطبقية كما مارسها البرجوازيون، إذ إن البرجوازي يسعى للحصول على المكاسب والامتيازات المادية ويشعر في نفس الوقت بأنه أفضل من غيره، وعلى الجملة ينبغي أن أضيف إن القوى النسبية لتلك المشاعر (تلك التي تقوم على المصلحة والأخرى على الشعور بالفخر أو تقدير الذات) ليست متكافئة، وأن قوة هذين الاتجاهين من المشاعر لا يعني تحقيق المصلحة المرجوة.

وعندما أتساءل الآن ما الذي يعنيه دور هذه الرغبات الأساسية للمشاعر السياسية، أجد أنها تكوّن مكونين أساسيين لإرادة الإنسان كي يحيا **حياة واقعية**، إذاً فالرغبة في البحث عن الحياة الواقعية تعني رغبتك في (أ) تحقيق بعض المكاسب والامتيازات المادية (ب) أن تكون مميزاً عن غيرك باعتبارك فرداً مستقلاً؛ ولكن أيما حياةٍ تتجاهل هاتين الرغبتين، أو تبحث فقط عن التطلعات الروحانية أو يكون تأكيد الذات لديها مشتركاً بقية الناس، أي عالمية، فإنها بذلك تخرج عن إطار الواقعية، وخلاصة القول: إن المشاعر السياسية، لا سيما المشاعر القومية، هي بالنسبة لي مشاعر واقعية.

وهنا سيعترض الكثيرون معلنين: «نعم الرغبات التي تشكل المشاعر السياسية هي رغبات واقعية، ولكن الأفراد سينتقلون بتلك الرغبات من رغبة ذاتية مستقلة إلى رغبة الطائفة أو الجماعة التي ينتمي إليها؛ فالعمال يسعون للحصول على مزايا مادية للطبقة التي هم منها، وليس لأنفسهم، والوطني يرغب في الاستحواذ على أراضٍ لصالح بلاده، وليس لصالحه الشخصي؛ فهو يسعى لأن يكون بارزاً من بين الآخرين باسم بلاده، فهل تستخدمْ مصطلح 'واقعي' مع المشاعر التي تتضمن مثل هذا التحول من الفرد إلى جماعة موحدة؟» وهل ينبغي أن يكون الرد بأنه عندما يحول الفرد رغبته الشخصية إلى الجماعة التي ينتمي إليها فهو لا يغير طبيعتها بذلك؟ وما يفعله فقط هو اتساع نطاقها بلا حدود؟ لذلك إنّ في رغبة الشخص في أن

يحقق مزايا ومكاسب مادية لصالح وطنه، وكذلك رغبته في شعوره بتميزه عن غيره باسم وطنه، هي نفس الرغبة الذاتية في تحقيق مكاسب مادية وشعوره بالتميز عن غيره، وهذا يعني أنك إذا كنت فرنسياً، فسيكون هدفك ورغبتك هما ضم (مقاطعة) بريتاني (في شمال غرب فرنسا) وبروفنس وغوين والجزائر والهند الصينية؛ وسترى نفسك أفضل من غيرك متخذاً صورة جان دارك ولويس الرابع عشر ونابليون وراسين وفولتير وفيكتور هوجو وباستير، وأضف إلى ذلك أنك في نفس الوقت تنسب هذه الرغبات إلى حياة «أبدية» وليس إلى حياة زائلة وغير مستقرة، الأمر الذي يجعلك تعيش بهذه الطريقة، وتستمر الغطرسة الوطنية ليس فقط لأنها قومية، بل لأنها صارت غطرسة «مقدسة»[1]، واستكمالاً لهذا التعريف أود أن أُبين أن المشاعر السياسية تعني الواقعية ولكن من نوعٍ خاص، وهذه الواقعية هي عنصر مهم في قوة هذه المشاعر: فهي واقعية مقدسة[2].

---

(1) «حب الوطن هو الحب الصادق للآخرين» (سانت - إيفرموند (Saint-Evremond

(2) ويظهر تقديس الواقعية، التي تتكون منها الوطنية على نحو خاص، في كتاب «خطابات إلى الأمة الألمانية» (الخطاب الثامن): ويقول فيشته عن المساس بالدين عندما يطالب بوضع الحياة الراقية خارج كل اهتمامات الأمور الدنيوية: «إنّ من الإساءة للدين أن ندفعه، كما فعلت المسيحية كثيراً، إلى تأييد عدم الاهتمام بشؤون الدولة والأمة باعتبارها معتقدات دينية خالصة» ويتابع قائلًا «إن الناس يتمنون أن يجدوا الجنة على الأرض وأن تصبغ أعمالهم =

وإن كنا نرغب إذاً في التعبير عن تطور المشاعر السياسية التي وصفتها آنفاً، فيما يتعلق بالترتيب الأعمق والضروري للأشياء، فربما نقول إن الناس اليوم يُظهِرون الرغبة في التعايش بأنفسهم بطريقة عملية وواقعية على خلاف الطريقة العادية والروحية، وذلك بعلمٍ ووعيٍ لم يُعرفان من قبل، وعلاوة على ذلك أننا نرى بوضوحٍ كيف تؤكد المشاعر السياسية في يومنا هذا انبثاقها بقصد من هذه الواقعية وليس من غيرها؛ فلدينا من جانبٍ الاشتراكية التي تعلن باستمرار أنها لا تهتم بالإنسان العالمي، أو حتى تهتم بتحقيق العدالة له أو أي «ظاهرة ميتافيزيقية» أخرى، بل ترغب فقط في تحقيق مكاسب مادية لمصلحة الطبقة التي تخصها، ومن جانب آخر نجد الروح القومية التي تفتخر في كل مكان لكونها روحاً واقعية بحتة، فالشعب الفرنسي، الذي قاتل في الماضي من أجل أن ينقل للشعوب الأخرى مذهباً يرى أنه سيحقق السعادة (ذكرت شعباً حكامه لم يشاركوا قط في هذه المذاهب الساذجة)، سوف يخجل الآن من الشك في قتالهم «من أجل المبادئ»[3]، أليس

= الدنيوية بالخلود»، وبين بعد ذلك، بصدر رحب، أن هذه الرغبة هي روح الوطنية، وواضح أن الأعمال الدنيوية بالنسبة له قد أصبحت مقدسة عندما صارت خالدة، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي اكتشفها الناس لتمجيد مؤسساتهم.

(3) أليس جديراً بالذكر أن الولايات المتحدة لم تدخل الحرب الأخيرة «دفاعاً عن المبادئ»، ولكن لغرض عملي وهو حماية هيبتها =

جديراً بالذكر أن نكتشف أن الحروب الوحيدة في الماضي التي عمدت تقريباً إلى استخدام المشاعر التي كانت مجرد مشاعر عادية - وأقصد هنا الحروب الدينية - هي الحروب الوحيدة التي تحررت منها البشرية؟[4] وأن هذه الحركات المثالية العظيمة مثل الحروب الصليبية (مثالية على الأقل مع الضعفاء) تجعل الإنسان المعاصر يبتسم كطفلٍ يلهو ويلعب؟ ألم يكن واضحاً أيضاً أن المشاعر القومية (التي بينتُ أنها أكثر المشاعر السياسية التي تتسم بالواقعية الخالصة) قد جذبت إليها تقريباً كل المشاعر الأخرى مثل التي أشرتُ إليها؟[5] وأُضيف إلى

= التي ضاعت بعد أن نسف الألمان ثلاث سفن لها؟ غير أن رغبتهم في الظهور على أنهم مثاليون في هذه القضية أمر ينبغي الوقوف عنده.

(4) ربما نجد أن المشاعر الدينية، في الغرب على الأقل، قد وجدت فقط تعزيزاً للمشاعر القومية؛ ففي فرنسا يتبنى الرجل المذهب الكاثوليكي كي يكون «فرنسياً خالصاً»؛ وفي ألمانيا يجب أن تكون على المذهب البروتستانتي كي تكون «ألمانياً خالصاً».

(5) ونستشهد هنا بحالتين من المشاعر المثالية التي نجحتا سابقاً في الاصطدام مع المشاعر القومية وهما الآن تابعتان لها: (أ) المشاعر الملكية في فرنسا التي كانت عام 1792 أقوى من الشعور القومي لدى كثير من الناس، في حين أنها طُمست بالكامل بحلول عام 1914 بسبب انتشار الشعور القومي (سيتفق الجميع على أن الارتباط بنمط معين للحكومة، أعني الارتباط في المقام الأول بمفهوم روحي معين هو مشاعر مثالية أكثر منه مشاعر قومية؛ ولكن لا أدعي أن هذه المثالية قد ألهمت جميع المهاجرين)، =

ذلك أن هذه المشاعر قد حققت درجة من التمايز بين الأمم لم تعرف حتى الآن، وفقاً لإرادة جماعة من الناس يتعالون على غيرهم[6]، وأخيراً، إن الميزة العظمى التي وجدناها في المشاعر السياسية، وأقصد تقديس واقعيتها، هي أنها معترف بها اعترافاً صريحاً ببساطة لم نشهدها من قبل؛ فالدولة والوطن والطبقات هي آلهة مباشرة؛ وربما نقول إنها تمثل بالنسبة للكثيرين (والبعض يفتخر بذلك) آلهة بمفردها[7]، إن الإنسانية

= (ب) المشاعر الدينية في ألمانيا التي كانت منذ خمسين عاماً فقط أقوى من الشعور القومي لدى أكثر من نصف الشعب الألماني، أما اليوم فهي تخضع بالكامل للشعور القومي (كان الكاثوليك الألمان يتمنون هزيمة ألمانيا عام 1866؛ وفي عام 1914 كانوا يرغبون بشدة في أن تنتصر)، إن أوروبا اليوم، مقارنة بأوروبا الأمس، تبدو وكأن فرص الحروب الأهلية قد تضاءلت وازدادت فرص الحروب القومية؛ فلا شيء أكثر من ذلك يوضح مدى خسارة أوروبا لهذه المثالية.

(6) ومثال ذلك الكلمة التي ألقاها وزير التربية والفنون الجميلة في فينيسيا في الحادي عشر من ديسمبر عام 1926: «على أهل الفن أن يعدوا أنفسهم للوظيفة الإمبريالية الجديدة التي يجب أن تطبق عن طريق فنوننا. وفوق كل ذاك، علينا أن نفرض بشكل قاطع مبادئ الطليان، فمن يحاول أن يتأثر أو يقلد الأجانب فهو يسيء لبلاده كالجاسوس الذي يسمح للعدو بالدخول من باب سري»، ويوافق على هذه الكلمات كل خبير في «القومية المتكاملة»، وسمعنا الكثير أيضاً مثل هذه العبارات في فرنسا من أعداء الرومانسية.

(7) «يجب أن يخضع من هو في مرتبة دونية لمن هو في مرتبة =

التي تمارسها المشاعر السياسية الآن، قد أكدت بذلك أنها صارت أكثر واقعية بالكامل من الناحية الدينية من ذي قبل.

= أعلى، وأن يكون ذلك الخضوع ذو نزعة دينية». (موسوليني، 25 من أكتوبر 1925)، هذه لغة جديدة على لسان أحد الزعماء، حتى وإن كانت واقعية؛ فمن الواضح أن ريشيليو أو حتى بسمارك لم يستخدما كلمة «ديني» في أي عمل ذي هدف مادي بحت.

الفصل الثالث

«المثقفون» - الخيانة العظمى

«وقد خلقته ليرقى بجسده روحانياً؛ أما الآن فقد غلبته الشهوة حتى في روحه» - (بوسويه، **الارتقاء**، VII، 3)

إن ما قلته حتى الآن كنت أقصد به الشعب فقط، سواء كانوا من البرجوازيين أو الطبقة العاملة أو الملوك أو الوزراء أو الزعماء السياسيين، وكل هذه الفئات من النوع البشري الذي أطلق عليه دوماً «الدنيويين»*، هؤلاء الذين مهمتهم الرئيسة في الحياة تحقيق المصالح الشخصية، والذين فعلوا فقط ما هو متوقع منهم عندما صاروا أكثر واقعية بشكل منهجي ومستقل.

وإلى جانب هذه الإنسانية التي وصفها الشاعر في عبارة - «أصحاب العقول يريدون الدنيا، أما البسطاء فيتوجهون إلى السماء» - كان هناك حتى منتصف القرن الماضي نوع مختلف

---

* استخدم الكاتب هنا مصلح «laïqu» والمعنى العام هم غير المهنيين، أما ما يقصده الكاتب فهم الطبقة غير الدينية التي لا هدف لها إلا المنفعة الشخصية.

من الإنسانية لعبت دور المراقب على سابقتها إلى حد كبير، وأقصد بذلك فئة من الناس أطلِقْ عليهم «المثقفين»، هذا المصطلح الذي أعني به أولئك الذين لا يسعون وراء المصالح والمكاسب، بل يجدون سعادتهم في ممارسة فن أو مزاولة علم أو البحث في نظريات ما وراء الطبيعة، وتتلخص سعادتهم في الترفع عن ملذات الحياة، ومن ثَمَّ أعبر عن ذلك بطريقة خاصة فأقول «إن مملكتي لا تنتمي إلى هذا العالم»، والحق أنني وجدت، أثناء مطالعتي للتاريخ منذ أكثر من ألفي عام وحتى وقتنا هذا، مجموعة متواصلة من الفلاسفة ورجال الدين والأدباء والفنانين والعلماء (نستطيع القول جميعهم تقريباً في هذه الحقبة) كان تأثيرهم وحياتهم في تعارض مباشر مع واقعية الغالبية العظمى من العامة.

وللحديث عن المشاعر السياسية على وجه التحديد فإن «المثقفين» كانوا يعارضونها بطريقتين؛ إما إنهم كانوا غير مبالين تماماً بهذه المشاعر مثل ليوناردو دافنشي وماليبرانش (Malebranche) وجوته، وهؤلاء ضربوا المثل في التعلق بمساعي العقل الخالية تماماً من أي مصلحة وحققوا الإيمان بالقيمة العليا لهذا النمط من التعايش؛ أما القسم الثاني فكانوا يميلون، بوصفهم فلاسفة أخلاقيين، إلى الصراع مع الغرور الإنساني مثل إيراسموس (Erasmus) وكانط ورينان، إذ كانوا يدعون باسم الانسانية والعدل إلى تبني مبادئ مجردة تسمو فوق هذه المشاعر بل تعارضها أيضاً، ورغم أن «المثقفين» وجدوا

أن الدولة الحديثة تهيمن إلى حد ما على الغطرسة الفردية، فإن نشاطهم كان بلا ريب قائماً أساساً على النظريات ولم يتمكنوا من منع الدنيويين من حشو التاريخ بكراهيتهم ومذابحهم؛ ولكن «المثقفين» قد **حرَّموا على الدنيويين التصرف باسم الدين، وكذلك منعوهم من استخدام هذه التصرفات لتعظيم أنفسهم**، ويقال إنه بسبب «المثقفين» ارتكبت البشرية أفعال الشر لقرابة ألفي عام، لكنهم أحبوا الخير، وهذا التناقض هو فخر للنوع البشري، إذ إنه قد رسم الطريق الذي عبرت منه الحضارة إلى هذا العالم.

أما الآن فقد شهد نهاية القرن التاسع عشر تغييراً جذرياً عندما **شرع «المثقفون» في ممارسة لعبة المشاعر السياسية**؛ فهؤلاء الذين كانوا من قبل يكوّنون عقبة أمام واقعية الدنيويين قد بدأوا في القيام بدور المحرك الأساسي لها، وهذا الانقلاب على السلوك الأخلاقي للإنسانية قد تم بعدة طرق.

أولاً: تبني «المثقفين» للمشاعر السياسية

بداية القول، إن «المثقفين» قد تبنوا المشاعر السياسية، ولا أحد ينكر أن الغالبية العظمى من رجال الأدب والفن وعدد كبير من العلماء والفلاسفة و«الكهنة» في أوروبا اليوم قد شاركوا في ترانيم الكراهية بين الأعراق والأحزاب السياسية؛ ناهيك عن إنكار تبنيهم المشاعر السياسية، ولا ريب أن أسماءً

مثل دانتي وبترارك ودو أوبيني (d'Aubigné) وبعض المدافعين عن كابوتشي (Caboche) أو الداعين إلى الوحدة سوف يكتفون بإظهار أن بعض «المثقفين» لم ينتظروا عصرنا الحالي كي ينغمسوا في هذه المشاعر بكل جوارحهم، وزبدة هذه الآراء أن «المثقفين» المجتمعين في الساحة كانوا استثناءً، على الأقل من بين العظماء منهم؛ فلو أنني استحضرت ذكرى توما الأكويني، روجر بيكون، جاليليو، رابليه، مونتين (Montaigne)، ديكارت، راسين، باسكال، لايبنتس (Leibniz)، كيبلر، هوغنس (Huyghens)، نيوتن، وحتى فولتير وبوفون (Buffon) ومونتسكيو (Montesquieu) (سأذكر القليل فقط بالإضافة إلى الأسماء التي تقدم ذكرها) فأرى أنني ربما أكرر أنه حتى هذه الأيام يظل رجال الفكر وأصحاب الضمير الحي بعيدين عن المشاعر السياسية، وأتفق مع جوته في قوله: «دع السياسة للدبلوماسيين والعسكريين»، ولو أنهم أخذوا هذه المشاعر بعين الاعتبار، فسوف يتبنون موقفاً نقدياً تجاهها، مثلما فعل فولتير، ولم يؤيدوها باعتبارها اتجاهاً سياسياً، أما إذا أولوها اهتماماً، كما فعل روسو وميستر (Maistre) وشاتوبريان (Chateaubriand) ولامارتين وحتى ميشليه (Michelet)، فإنه يكون تعميماً للمشاعر ولا يستعجلون ثمارها والتي واقعياً تلغي كلمة «مشاعر»، أما اليوم إذا ذكرنا أسماءً مثل مومسن (Mommsen)، ترايتشكي (Treitschke)، أوستفالد (Ostwald)، برونوتير (Brunetière)، باريس (Barrès)، لومتر (Lemaître)، بيجي (Péguy)، موراس

(Maurras)، دانونزيو (d'Annunzio)، كبلنج (Kipling)، فحقاً نقول إن «المثقفين» الآن يمارسون المشاعر السياسية بكل سماتها كالميول إلى فعل أي شيء، والتعطش لجني ثماره، والانشغال الكامل بأهدافهم التي يرمون إليها، ورفض البراهين، والانغماس في الشهوات والكراهية والأفكار الجامدة؛ فأبى «المثقف» المعاصر إلا أن يشارك الدنيوي الميادين العامة.

كذلك «المثقف» المعاصر عازم كل العزم على تقمص روح المواطن واستخدامها بشكل قوي؛ فهو يتباهى بتلك الروح؛ وكتاباته مليئة بالتقليل من شأن أولئك الذين ينكبون على الفنون والعلوم ولا يستغلون مشاعر الدولة لمصالحهم[1]؛ فنراه يقف بجانب مايكل أنجلو بشدة عندما يعيب على ليوناردو دافنشي اللامبالاة تجاه محنة فلورنسا، وخالف صاحب لوحة العشاء الأخير الذي كان رده بأن دراسة الجمال قد استحوذت عليه، فقد مضى زمن طويل منذ أن طالب أفلاطون بأن الفيلسوف يجب أن يقيد بالسلاسل ليضطر إلى اللجوء إلى الدولة، وكون شغله الشاغل هو البحث عن الأشياء الخالدة مع الظن بأنه صار في منزلة أكبر لأنه مع الدولة - فإن هذا هو ما يراه «المثقف» المعاصر، وكما أن الأمر واضح، فقد صار طبيعياً أيضاً أن ارتباط «المثقفين» بمشاعر الدنيويين قد رسخ هذه المشاعر في قلوبهم، بدايةً، ألغى هذا الارتباط المشهد

(1) لا سيما رينان و«الأخلاق التأملية» (H. Massis, Judgments, i).

الدلالي (الذي ذكرته أعلاه) لصنف من الناس وضعوا مصالحهم بعيداً عن الحياة الواقعية، ولما تبنى «المثقف» المشاعر السياسية، أضاف إليها تأثير عواطفه الجياشة إذا كان فناناً، أو قدرته الإقناعية إذا كان مفكراً، وفي كلتا الحالتين يضيف مكانته الأخلاقية[2].

---

(2) وهذه المكانة هي شيء جديد في التاريخ، على الأقل من وجهة نظري، وظهر تأثيرها في فرنسا عندما تدخل «المثقفون» في قضية دريفوس وكذلك عندما أصدر المثقفون الألمان بياناً رسمياً عام 1914، ليس فقط في بلادهم ولكن في جميع أنحاء العالم، الشيء الذي لم يحدث على مر العصور، فمن يتخيل أن الدعم الأخلاقي للشاعر ترنتيوس والكاتب الروماني فارو (Varro) كان له أثر كبير أثناء الحرب مع قرطاجة، أو حكومة لويس الرابع عشر التي وجدت تصديقاً من راسين وفيرما (Fermat) مما أعطاها قوة فوق قوتها في حربها مع هولندا، إن هذه القوة التي استمدتها قضايا اليوم من استحسان وتصديق المفكرين والمثقفين قد أضافت إلى العالم الجديد مجداً لم يعرف من قبل.
ولهذه المكانة أثران، الأول أن «المثقف» يدعم القضية عندما يعطي موافقة واستحساناً لها، وقد يضعف موقف القضية عندما يرفض التصديق عليها؛ فلو أن مفكرين مثل أوستوالد أو ماخ رفضا أفعال بلدهما، فإنهما بذلك قد أضعفا موقف البلاد وأضرا بالقضية، والمثقف الذي ينكر اليوم واقعية بلاده التي ينتمي إليها ويضعف موقفها، فإن لبلده الحق في إنزال العقاب به باسم مصالحها المادية، فالمثقف الذي ينكر الواقعية على بلاده وفاءً لواجبه الأخلاقي، فإنه يعاقب بالموت على يد وطنه.
وأشير هنا إلى نوع آخر من الفوضى، وهو عندما لا تعاقب =

وقبل أن أتابع الموضوع، أرى أنني يجب أن أوضح بعض النقاط :-

(أ) كنت قد تحدثت عن رجال الفكر كافة الذين سبقوا عصرنا الحالي، فعندما أقول إن «المثقفين» كانوا في الماضي يعارضون واقعية الدنيويين وأن «المثقفين» الآن يقومون على خدمتها، فأنا هنا آخذ بعين الاعتبار كل جماعة من هاتين الجماعتين إجمالاً؛ وأقارن السمات العامة لكل منهما، وهذا يعني أنني لا أريد أن يشعر القارئ بتناقض عند قراءة هذه السطور؛ والذي يجد مشقة عند تنبيهي بأن فلاناً من الجماعة السابقة كان واقعياً، وأن فلاناً من الجماعة الأخرى ليس كذلك، طالما هذا القارئ قادر على أن يدرك بأن كلاً من هاتين الجماعتين توضح السمات التي أشرت إليها، كذلك عندما

= الدولة «المثقف» عند إنكاره للواقعية، وحدث ذلك في فرنسا أثناء قضية دريفوس، فالمثقفون الذين طالبوا بالعدالة المجردة قد أضعفوا قوة الدولة بمثاليتهم فأودعتهم السجن، ولكن عندما يؤدي «المثقف» دور الدنيويين، فإن النتيجة تكون فوضى سياسية، وتزداد تلك الفوضى عندما يتحدث الدنيوي ويتصرف على أنه من «المثقفين»، فعندما أرى المفكرين يهتمون بأمن الوطن، والسياسيين ينشرون الحب بين الناس، أتذكر قول دانتى: «إنك لما منحت الدين لمن ولد للحروب، وجعلت المَلِك ينشر التعاليم الدينية، فإنك بذلك انحرفت عن طريق الصواب»، إن هذا النوع الثاني من الفوضى قد أنكرها الكثيرون، ولكنها ليست مهمتي كي أحاربها.

أتحدث عن «مثقف» واحد، فأنا أتناول أعماله بسماتها الرئيسة، أي هذا الجزء من مبادئه الذي يفوق جميع المبادئ الأخرى، حتى لو كانت بقية المبادئ تتناقض مع تلك المبادئ الفائقة؛ وهذا لا يعني أنني ينبغي أن أكف عن إعجابي بالفيلسوف ماليبرانش بأنه رائد من رواد الفكر الليبرالي لأن بعض ما جاء في كتابه «الأخلاق» يكاد يحث على العبودية، أو أن أتخلى عن إيماني بالفيلسوف الألماني نيتشه كونه فيلسوفاً أخلاقياً للحروب، فقط لأنه نادى في نهاية كتابه «زرادشت» بالعصبية التي تتفوق على الأناجيل. وأرى أن أقل سبب لإعجابي بهما أن ماليبرانش الذي يدافع عن العبودية ونيتشه الذي يدعو إلى المذهب الإنساني لم يكن لهما تأثير على الإطلاق (بخصوص هاتين النقطتين)، إنما غرضي هنا هو التأثير الذي تركه «المثقفون» في العالم، وليس ما حاك في أنفسهم.

(ب) قد يختلف معي البعض قائلين: «كيف تتعامل مع رجال مثل باريس (Barrès) وبيجي (Péguy) على أنهما «مثقفان» وفي نفس الوقت تلومهما لعدم وجود روح «المثقفين» فيهما عندما يكونوا أصحاب فعل، فالفكر السياسي لديهم يشغله فقط احتياجات الحاضر، وتحركه أحداث العصر، في حين أن السابقين نادراً ما كانوا يعبرون عن فكرهم السياسي إلا في «المقالات الصحفية؟» وأرد قائلاً: إن هذا الفكر، الذي ما هو إلا شكل من أشكال الحركات المعاصرة، قد أعلن عنه مؤلفوه بأنه ثمرة أسمى حركة فكرية مجردة، ونتاج التأملات الفلسفية

الصادقة، ولم يحب باريس أو بيجي أن يُنظر إليهما على أنهما من الكُتّاب الجدليين حتى في أعمالهم الجدلية[3]؛ فهذان الرجلان اللذان لم يكونا أبداً من «المثقفين» قد أعلنا أنهما من «المثقفين» وعُدا كذلك (فمنح باريس نفسه صفة المفكر الذي ينزل إلى الميدان)، فالأمر لهم كما لو أنهم يفخرون بمكانة خاصة وسط أصحاب الفعل، فأنا لا أتناول في هذه الدراسة «المثقف» كما هو بل كما ينبغي أن يكون وكما يتعامل في هذا العالم بهذه الصفة.

ولعلي أضع هنا نفس الجواب عندما أتحدث عن موراس وغيره من نشطاء **الحركة الفرنسية** ممن سيقال فيهم إنهم حقاً أصحاب فعل ومن المؤسف أن يطلق عليهم بأنهم «مثقفين»؛ فهؤلاء الرجال يدّعون ممارسة أعمالهم استناداً إلى الفكر المستمد من دراسة موضوعية شاملة للتاريخ ومن ممارسة الروح العلمية، وهم (المثقفون) يرجعون التفاف أصحاب الفعل حولهم إلى ادعائهم بأنهم من رجال العلم الذين يحاربون من أجل الحقيقة التي تقبع خلف جدران المختبرات القاسية،

(3) كتب باريس (Barrès) عام 1891 إلى محرر جريدة (La Plume): «إذا كانت لهذه الكتب أي قيمة، فلأنها نابعة من العقل واستمرار للفكر الذي وضعته بها في خمس سنوات، (تتضمن «هذه الكتب» حملة بولونجر التي أطلقها)، وقال في مقدمة مجموعة مقالات بعنوان «مشاهد ووثائق للقومية»: «وأرى لو أن دوميتش انتقد تلك الكتب بنظرة ثاقبة لوجد تطوراً في أعمالي وليس تناقضات».

ويرجعون ذلك أيضاً إلى المكانة المناضلة التي يتمتعون بها، ولكنهم في الأساس يتصرفون بوصفهم «مثقفين».

(ج) وأخيراً أود أن أوضح وجهة نظري بشأن نقطة أخرى فأقول: عندما ينزل «المثقف» إلى الميادين العامة فأنا أراه قد عجز عن تأدية مهامه بهذا التصرف - كالذين ذكرتهم - وذلك انتصاراً للمشاعر الواقعية سواء كانت تلك المشاعر طبقية أو عرقية أو قومية؛ فعندما اعتلى جيرسون (Gerson) منبر كنيسة نوتردام ليعلن عمن قتلوا لويس دوق أورليان (Louis d'Orléans)؛ ولما ذهب سبينوزا معرِّضاً حياته للخطر وكتب على أبواب منازل من قتل إخوة دو ويت (de Witts) عبارة «قتلة وحشيون»؛ وعندما ناضل فولتير من أجل عائلة كالاس؛ وحينما شارك زولا (Zola) ودوكلو (Duclaux) في دعم (قضية دريفوس)*؛ كان كل هؤلاء «المثقفين» يؤدون مهام المثقف الحق على أكمل وجه، وكانوا رهباناً في محراب العدالة المجردة إذ لم تمسّ نفوسهم مشاعر الأغراض الدنيوية(4)، وهناك أيضاً معيار موثوق نعرف به ما إذا كان «المثقف» الذي

---

* هي قضية اجتماعية وقعت أحداثها في فرنسا، اتهم بالخيانة في هذه القضية النقيب ألفريد دريفوس، وهو فرنسي الجنسية يهودي الديانة، هزت هذه القضية المجتمع الفرنسي طوال اثني عشر عاماً من 1894 وحتى 1906 وقسمته إلى فريقين: المؤيدين لدريفوس مقتنعين ببراءته والمعارضين له معتقدين أنه مذنب.

(4) سيحدثونني عن «المثقفين» الذين يدعمون في بعض الأوقات =

يمارس مهامه في العلن يفعل ذلك وفقاً لمهمته الحقيقية أم لا، وهذا المعيار هو: أن يُنبذ من الدنيويين الذين تتوقف مصالحهم بسبب «المثقفين» (سقراط والمسيح نموذجين)، ولعلنا نقول سلفاً: إن «المثقف» الذي يمدحه الدنيوي هو خائنٌ لرسالته.

لنرجع الآن إلى «المثقف» المعاصر وارتباطه بالمشاعر السياسية.

يبدو لي على وجه الخصوص أن هذا الارتباط الذي يتعلق بالمشاعر السياسية جديد وخطير، وأكرر إن الإنسانية لم تنتظر حتى الوقت الحاضر حتى تشهد انغماس «المثقفين» في وحل هذه المشاعر، ناهيك عن الشعراء الذين تتنهد قلوبهم الرقيقة «أوطاننا تسحرنا بجمال فاق التعبير»؛ وأما الفلاسفة، بدون العودة إلى العصور القديمة، عندما كان الجميع قبل عصر الرواقيين لديهم وطنية متّقِدة؛ وربما نلاحظ في التاريخ (منذ ظهور المسيحية وقبل وقت طويل من أيامنا) أن الكُتّاب والعلماء والفنانين وفلاسفة الأخلاق وحتى كهنة الكنيسة «الكاثوليكية» قد أظهروا علانية أو سراً ارتباطاً خاصاً بالجماعة التي ينتمون إليها، ولكن هذه العاطفة المنتشرة بين هؤلاء الرجال كانت قائمة على المنطق؛ وقادرة على الاعتراض وإدانة

= سلالة معينة أو أمة بعينها، حتى لو كانت سلالتهم أو أمتهم، ويرجع ذلك إلى إيمانهم بأن قضية تلك السلالة أو الأمة تتوافق زمنياً مع قضية العدالة المجردة.

أخطاء تلك الجماعة إذا ما رأوا أنها قد ارتُكبت حقاً؛ وكي أوضح ذلك بمثال أذكر إدانة فينيلون (Fénelon) وماسيلون (Massillon) لبعض حروب لويس الرابع عشر؛ وكيف استنكر فولتير تدمير ولاية بالاتينات؛ وكذا أدان رينان (Renan) عنف وعدوان نابليون؛ وهذا باكيل (Buckle) يعترض على تعصب إنجلترا السياسي تجاه الثورة الفرنسية؛ وفي العصر الحالي يستنكر الفيلسوف نيتشه وحشية الألمان مع الفرنسيين[5]، ولكننا في هذه الأيام لم نرَ إلا مفكرين، أو من ادّعوا أنهم أصحاب فكر، يعلنون صراحةً أن وطنيتهم لن تخضع لأي حكم أو مراقبة، وأعلنوا أيضاً (مثل باريس) أن «الدولة إذا أخطأت فيجب علينا أن نراها على صواب»، كذلك ألصقوا تهمة «خيانة الوطن» بأبنائه الذين يدافعون عن حرية العقل، أو على الأقل يمارسون حرية التعبير عندما يتحدثون عن وطنهم، وفي فرنسا لم ننسَ أثناء الحرب العالمية الأولى كم من «مفكر» هاجم رينان عندما تبنى مبدأ الحرية في الحكم على تاريخ بلاده[6]،

---

(5) يمكن ملاحظة نفس الوقائع عند القدماء، مثل شيشرون الذي أنكر على أبناء وطنه تدمير مدينة كورنث فقط انتقاماً للإساءة التي تعرض لها سفيرهم (De Officiis, I, xi).

(6) بالفعل في عام 1911 عندما استشهد أحد الكتّاب بهذه الجملة «من المستحيل أن يقبل أحد هذا القول بأن الإنسانية ينبغي أن تكون مرتبطة، لقرون مديدة، بتحالفات ومعارك ومعاهدات يلتزم بها ذوو العقول المحدودة والجهلاء والمتصفون بالأنانية =

ولا ننسى، قبيل ذلك الوقت، أن مجموعة من الشباب (تظاهروا بأنهم يريدون أن يسموا بعقولهم) وقفوا أمام معلمهم (يعقوب) الذي كان يسعى أن يعلمهم الوطنية التي لا تتنافى مع أي حق في نقدها، وبعد العدوان على بلجيكا والتجاوزات الألمانية في أكتوبر 1914، قال أحد المعلمين الألمان: «لا يوجد ما نقدم عنه أعذاراً»[7]، ولو أن بلادهم كانت في نفس الموقف لقال نفس الكلمات أكثر الزعماء الروحانيين في ذلك الزمن؛ مثل باريس (Barrès) في فرنسا، أو دانونزيو (d'Annunzio) في إيطاليا، أو كيبلينغ في إنجلترا؛ إذا ما حكمنا على موقفه أثناء اعتداء دولته على البوير*، أو وليام جيمس في الولايات المتحدة؛ وذلك بموقفه من غزو أبناء بلده لكوبا[8]، فأنا الآن

= الذين كانوا في العصور الوسطى على قمة شؤون هذا العالم» وشعر أنه من الضروري أن يضيف «من المؤسف أن هذه العبارات كتبها رينان؛ فلا أحد يكتب مثل هذه الكلمات اليوم إلا وسيطلقون عليه فرنسي غير وطني» (G. Guy-Grand, La Philosophie Nationaliste, p. 165). وهذا هو الغريب في الأمر دون أن يطلق عليه كتبها رجال الفكر.

(7) ظهرت هذه العبارة في دراسة للمونسنيور شابون بعنوان «La France et l'Allemagne devant la doctrine chrétienne». (نشرت بتاريخ 15 أغسطس 1915).

* البوير جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين الذين توغلوا في أفريقيا.

(8) انظر كتابه **خطابات**، الفصل الثاني.

أوافق بشدة على أن هذا النوع من الوطنية العمياء هي التي تصنع الدول القوية، وإن وطنية رينان وفينلون ليست من النوع الذي يضمن بناء الإمبراطوريات، بل تحدد ما إذا كانت مَهمة «المثقفين» هي تأمين الإمبراطوريات.

إن تعلق هؤلاء «المثقفين» بالمشاعر السياسية يظهر بصورة خاصة بين هؤلاء الذين أطلق عليهم «نخبة المثقفين»؛ وأقصد بذلك رجال الكنيسة؛ ففي الخمسين سنة الماضية في كل دول أوروبا كانت الغالبية العظمى من هؤلاء الأشخاص لم يرتبطوا فقط بالمشاعر السياسية[9] ومن ثم صاروا لا يقدمون للعالم

---

(9) انظر كيف هم الآن يقبلون بالخدمة العسكرية طوعاً، وأرى أن هذا الموضوع جدير باهتمام المؤرخين، فهو يحمل بين طياته ارتباطاً صادقاً بالوطن عند هؤلاء الذين يقبلون الخدمة العسكرية طوعاً، رغم أن القانون يغفل عن أي ارتباطات دنيوية أخرى، كذلك ظهر في الحرب العالمية الأولى أن أكثر الكهنة القادرين على حمل السلاح كانوا سعداء بالدفاع عن الوطن، مهما كانت تلك الدولة ومهما كانت فكرتهم عن عدالة تلك القضية؛ فبعض الأديرة البلجيكية التي تأسست في الخارج عند إعلان الحرب وصدقت عليها الحكومة كي تستمر بالخارج، أصرت على الرجوع إلى العاصمة لأداء الخدمة العسكرية، وقد يفسر هذا التصرف من هؤلاء الرهبان على أنه خوف من انتقاد أبناء وطنهم وليس تصرفاً نابعاً من الوطنية

ولكن أهم نقطة هنا تهم المؤرخين هي أن فرض الخدمة العسكرية على الكهنة والرهبان لم يواجه أي اعتراض من الكنيسة؛ حتى أن بعض الوعاظ في الكنيسة قالوا: «لا يوجد أي شك في =

قلوباً متعلقة بالله - بل يبدو أنهم قد تبنوا تلك المواقف بنفس المشاعر التي أشرت إليها كما هي موجودة لدى رجال الأدب، وهم أيضاً يظهرون استعدادهم لدعم بلادهم في ظلمها الجائر، ويظهر ذلك بوضوح في رجال الدين الألمان في أثناء الحرب الأخيرة (الحرب العالمية الأولى) إذ لم يبدِ أحدهم احتجاجاً على الاعتداءات التي مارستها بلادهم، ولا يوجد دليل على أن صمتهم كان نابعاً من حكمة أو عقل[10]، ونقيض هذا الموقف

= شرعية الخدمة العسكرية»، وعندما نبحث في قاموس الأعذار للمذهب الكاثوليكي (Dictionnaire apologetique de la foi catholique) سنجد جهوداً مضنية من المؤلف (Father de la Brière) ليثبت أن حمل السلاح في الدرجات الكهنوتية مخالف لقوانين الكنيسة، وفي كتاب حلم البستان (Le Songe du Verger)، وهو ملخص للمذاهب الأخلاقية الحالية في فرنسا في القرن الرابع عشر، ذكر حوار بين فارس وأحد رجال الدين عندما طالب رجل الدين الحق في شن الحرب فأخبره الفارس «سلاح رجال الدين هو الصلاة والدموع»، أمر مخزٍ أن نرى جندياً يحث رجل الدين (المثقف) أن يؤدي دوره الحقيقي، **(وهنا نقول أن الكاتب يقصد بهذه القصة إسقاطاً على المثقفين والمفكرين فسلاحهم هو «الفكر والقلم» في وجه الاستبداد وليس لمناصرته في الظلم).**

(10) وهذه بعض الأسباب التي أبداها الكاثوليكي الألماني لموقفه بين أبناء عقيدته: «(أ) عدم معرفتهم الكاملة بوقائع ووجهات النظر لدى الدول المحاربة والدول المحايدة؛ (ب) الوطنية، والتي لا تقبل بالانفصال عن الوحدة التي تربط الشعب الألماني ببعض؛ (ج) الخوف من الصراع الثقافي، والذي يمثل خطورة إذا وافق الكاثوليك الألمان على الحملة التي بدأت في فرنسا ضد =

نجد علماء اللاهوت الإسبان في القرن السادس عشر، مثل بارتولومي دي لاس كاساس (Bartholomew de las Casas) وفيتوريا (Vittoria)، قد استنكرا الاعتداءات الوحشية التي مارسها أبناء قومهم عند غزو أمريكا، إنني لا أدّعي أن مثل هذه المواقف هي القاعدة المنتشرة بين رجال الدين، ولكني أتساءل: هل هناك دولة واحدة اليوم تفعل ذلك، أو حتى ترغب في أن يُسمح لها بذلك؟[11]

= نهج الألمان في شن الحروب»، وهنا يسترعى انتباهنا السبب الثاني؛ أي أن الرغبة في إقامة الوحدة بين أبناء الوطن الواحد يلغي الدافع الأخلاقي للقضية، وهذا هو السبب الذي لم يجعل بوسويه يعترض على العنف الذي استخدمه لويس الرابع عشر.
وأذكر هنا في عام 1914 عندما أشار مستشار ألمانيا بتمان هولفيغ في مبنى الرايخستاج (البرلمان السابق) إلى استخدام العنف مع بلجيكا رغم التزامها بالحيادية على أنه نوع من الاعتذار، فأنكر عليه عالم اللاهووت فون هارناك «محاولة اعتذاره عن شيء لا يستدعي الاعتذار». (A. Loisy, Guerre et Religion, p. 14).

(11) كان رجال الدين في الدول المتحالفة حريصين على شجب الظلم الناتج عن اتحاد رجال الدين الألمان عام 1914، فقد استغلوا القدر الذي جعلهم ينتمون إلى دول تناصر العدل؛ ففي عام 1923 وقت وقوع حادثة كورفو، عندما وقفت إيطاليا موقفاً معادياً لليونان كموقف النمسا الظالم تجاه صربيا عام 1914، لم أكن أعلم أن رجال الدين الإيطاليين عبروا عن غضبهم تجاه هذا الموقف، وفي عام 1900 عندما تدخل الجيش الأوروبي في الشؤون الصينية (ثورة الملاكمين) وارتكب الجنود تجاوزات تجاه الشعب الصيني، لا أذكر أي احتجاجات صدرت من رجال الدين للدول المعنية.

وأشير هنا أيضاً إلى سمة أخرى من سمات الوطنية لدى «المثقف» المعاصر وهي كراهية الغرباء (xenophobia)؛ وتعني كره أي شخص «الشخص آخر من خارج الوطن» (الأجنبي) ورفض واحتقار أي شيء ليس «من داخل الوطن»، وقد اتبع هذه الأيام ممن يُدعون رجال الفكر كل هذه الاتجاهات الثابتة بين الشعوب والتي تعد أمراً مهماً في حياتهم، هذا بالإضافة إلى التنفيذ الصارم لهذه الاتجاهات وبدون أي تفكير في هذا الأمر، مما يسترعي الانتباه لهذا الاتباع؛ ونعلم كيف كان المفكرين الألمان في الخمسين سنة الماضية يعلنون بشكل منهجي سقوط جميع الحضارات إلا تلك التي تنتمي لسلالتهم، وفي فرنسا كيف كان الفرنسيون ممن يدّعون العقلانية يهاجمون من يبجلون نيتشه أو فاجنر (Wagner) أو حتى كانط أو جوته[12]، ويمكنك أن تتخيل مدى غرابة هذا الشكل من الوطنية بين رجال الفكر في فرنسا عند ذكر أسماء مثل لامارتين أو فيكتور هوجو أو ميشليه (Michelet) أو برودون (Proudhon) أو رينان، أو أن يحترموا فقط «المثقفين» الوطنيين في العصر الذي يسبق عصرنا مباشرةً، وضرورة لا محيص عنها أن أذكر مرة أخرى: كيف كان أثر «المثقفين» على مشاعر «الدنيويين» عند ممارستهم كراهية الغرباء؟

---

(12) وهناك موقف بارز للفيلسوف الفرنسي بورتوكس، وستجد استنكاراً واضحاً له بقلم تشارلز أندلر في كتابه «أصول القومية الجرمانية» (Les Origines du Pangermanisme).

وعندما يخبرونني أنه في نصف القرن الماضي (التاسع عشر)، وخاصة أثناء العشرين سنة قبل الحرب، كان الموقف من الأجانب في فرنسا أن أُجبر الفرنسيون على التحيز الوطني الأكثر عنفاً، وأن الوطني الصادق هو الذي يوافق على هذا التحيز والتعصب، إنني لا أقول عكس ذلك؛ ولكن أقول فقط: إن «المثقفين» الذين يتبعون هذه العصبية قد خانوا واجبهم الإنساني والديني الذي يقيم شعائر العدل والحق في مواجهة الشعوب التي تمارس الظلم الذي يرفضه أي دين على وجه الأرض، والواقع أن هؤلاء «المثقفين» المعاصرين قد أعلنوا بأنهم لا يعلمون ماذا يقصد بالعدالة أو الحق أو أي «قيم روحية» أخرى، وأن الحق عندهم مرتبط بالمصلحة، والعدل بالظروف والأحوال، وكل هذه الأفكار قد نقلها الفيلسوف اليوناني كاليكليس (Callicles) ولكن مع اختلاف بسيط وهو: أنه قد ثار على كل المفكرين المهمين في عصره.

كذلك ينبغي أن يُقال: إن «المثقفين» الألمان هم من مهَّدوا الطريق لظهور هذا التعصب الوطني الذي يمارسه «المثقف» الحالي، وكان «المثقفون» الفرنسيون يتأثرون، ولفترة طويلة، بروح العدالة المطلقة تجاه الثقافات الأجنبية (ولا ننسى مبدأ الكونية* الذي نادت به الحركة الرومانسية)، في حين أن بعض «المثقفين» الألمان مثل ليسينغ (Lessing) وشليجل

* cosmopolitanism

(Schlegel) وفيشته (Fichte) وجورس (Goerres) كانوا يضمرون في داخلهم إعجاباً شديداً «لكل ما هو ألماني»، واحتقاراً لكل ما هو غير ألماني؛ فالمثقف القومي ابتداع ألماني في الأساس، وهذه أيضاً هي الفكرة الرئيسة التي ستتكرر في هذا الكتاب باستمرار، أي أن أكثر الاتجاهات السياسية والأخلاقية التي تبناها «المثقفون» في أوروبا في الخمسين سنة الماضية كانت ذات أصل ألماني.

ربما يقال إن ألمانيا عندما أسست لنفسها ما يسمى بـ«المثقف» القومي وحققت قوة إضافية لا تخفى على أحد منّا، قد صنعت بذلك أنماطاً من «المثقفين» استخدمتها باقي الدول، وغني عن البيان أنه لمّا كان لألمانيا مثقفون مثل مومسن (Mommsen)، حرصت فرنسا بصورة خاصة أن يكون لديها باريس (Barrès) بعد معاناتها لمّا وجدت نفسها في وضع شديد التدني بشأن التعصب القومي، ورأت أن وجودها مهدد بالزوال، لذا على كل مواطن فرنسي يهمه بقاء وطنه أن يسعد بما تملكه فرنسا من أدبٍ قومي قائم على العصبية في نصف قرن من الزمن، ومع ذلك نأمل أن يرقى هذا المواطن الفرنسي ولو للحظة فيترك المصالح السياسية وينسى ما يسمى بالتفوق العرقي، وأن يرى أنه من المحزن أن تقوده مجريات الأحداث العالمية إلى الابتهاج بهذه الأمور.

وعلى الجملة ينبغي أن يقال: إن هذا الاتجاه الواقعي قد فُرض على «المثقفين» المعاصرين، خاصة على «المثقف»

الفرنسي، نظراً لوجود عوامل سياسية، سواء كانت خارجية أو داخلية، ظهرت في أمتهم، ورغم أن هذا قد يكون خطيراً، إلا أن تلك الخطورة قد تتلاشى إذا رأينا «المثقفين» يعانون من هذا الاتجاه الواقعي؛ فيشعرون بأن قيمتهم تتضاءل بسببه، وكيف أنه يهدد حضارتهم العظيمة، وتنتشر الرذيلة والقُبح في هذا الكون، ولكننا في الحقيقة لا نشهد شيئاً من ذلك، إذ في المقابل نراهم يسعدون بتطبيق هذه الواقعية؛ ويؤمنون بأنهم قد صاروا في مرتبة أفضل بفضل حميتهم القومية التي تخدم الحضارة وترتقي بها الإنسانية - في نظرهم، حينها سنشعر أننا أمام تحدٍ أكبر من المهام التي تعوقها أحداث العصر، إذ نواجه سيلاً من الأفكار الأخلاقية لدى هؤلاء الذين ينشرون الفكر في العالم.

وأودُ أن أشير هنا إلى سمتين أخريين للوطنية التي يتحلى بها «مثقفو» اليوم واللتان تبدوان لي جديدتين، وثاني هاتين السمتين نجحت في تحريك هذه المشاعر بقوة بين الناس.

فأما السمة الأولى فإنها تظهر بوضوح إذا ما قورنت بما كتبه أحد المؤلفين في القرن الخامس عشر، تلك السطور الخالدة أثبتت أفعال كاتبها مدى حبه العميق لوطنه، يقول غيتشارديني (Guicciardini): «إن كل الدول والممالك هالكة لا محالة؛ فكل شيء له نهاية، سواء بسبب خارجي أو بفعل القدر؛ ولهذا السبب ترى المواطن الذي يشهد سقوط ونهاية بلده لن يشعر بالأسى تجاه هذه الكارثة مثلما يبكي على الخراب الذي عمّ به هو شخصياً، فقد واجهت بلاده مصيبة

كانت حتماً ستقع فيها؛ ولكن سوء حظه الذي أحزنه أنه وِلِد في وقت وقعت فيه هذه الكارثة»، ويتساءل أحدهم: هل يجرؤ مفكر واحد في العصر الحديث يتعلق بوطنه مثل كاتب السطور السابقة على التعبير عن رأيه بكل حرية، مهما كانت طريقة التعبير، وأذكر هنا أعظم الأسباب التي دفعت المعاصرين إلى هذا الرأي: وهو عدم إيمانهم بوجود دول أخرى تفوق دولتهم في نوع من أنواع التطور والذي بسببه قد يزيل هذه الدولة ويمحوها؛ فالقدماء لم يمنعهم حبهم الشديد لبلادهم أن يؤمنوا بأن القدر فوق كل شيء، والمدينة القديمة كانت تحت العناية الإلهية ولكن لم يؤمن أحد حكمائها بأنها مقدسة أو أنها ستبقى للأبد، ونقل لنا الأدب القديم أن منشآتهم مهددة دائماً بالزوال، في رأي الأدباء، وبقاءها نعمة إلهية قد يسلبها الله في أي وقت[13]؛ فهذا ثوسيديديس (فيلسوف يوناني) كان يتأمل شكل العالم إذا اختفت أثينا من الوجود؛ وبوليبيوس الذي يصور لنا فاتح قرطاجة متأملاً المدينة الهالكة قائلاً: «ستواجه روما نفس المصير يوماً ما»؛ وأما فيرجيل فكان يمدح الفلاحين في الحقول الذين لا تعنيهم «روما والملك الزائل».

---

(13) وربما رأينا ذلك في أحد مشاهد مسرحية **سبعة ضد طيبة**: «يا إله مدينتنا، احفظ بلادنا وبيوتنا وأبداننا... وأنت يا من نزلت بديارنا، هل ستخون هذه الأرض؟» وبعد ستة قرون وجدنا أن حماية مدينة طروادة من مخاطر أعدائها القادمين من البحر كان فقط بسبب حفظ الإلهة جونو لها، وعلى أي حال يعود السبب أيضاً إلى اعتقاد داخلي بأن دم الطرواديين منحهم عهداً بالخلود الأبدي.

ولكن في العصر الحديث نرى مَن جعلوا مِن مدينتهم صرحاً يتحدون به السماء، وكل هذا بمساندة «المثقفين».

والسمة الثانية من سمات الوطنية لدى «المثقفين» المعاصرين هي رغبة في إبراز عقولهم الخاصة لصناعة العقل القومي الذي يتفاخرون به أمام العقول القومية الأخرى بأشكالها المختلفة، ونعلم جميعاً أنه في أثناء الخمسين سنة الفائتة، كان العلماء وأصحاب الفكر على كلتا ضفتي نهر الراين يعرضون آراءهم باسم العلوم الفرنسية والعلوم الألمانية، ورأينا كيف كان الكثير من كتّابِنا في نفس الفترة يهتز وجدانهم تجاه الذوق الفرنسي والمعرفة الفرنسية والفلسفة الفرنسية، ويعلن البعض أنهم يمثلون الفكر الآري والرسومات الآرية والموسيقى الآرية، وردّ عليهم آخرون بأن هناك معلماً له جدة يهودية ولذلك يتمتع بعبقرية سامية تستحق التبجيل، وليست القضية هنا هي التساؤل حول ما إذا كان عقل العالِم أو الفنان هو دليل على جنسيته أو عرقه بل هو إشارةٌ إلى رغبة «المثقفين» المعاصرين في أن يكونوا كذلك وهذا أمر جديد علينا، فلم يسعَ راسين (Racine) أو لابروبير (La Bruyère) إلى إبراز أعمالهم أمام العالم وأمام أنفسهم بأنها صورة عن العقل الفرنسي، كذلك لم ينسب جوته أو فينكلمان (Wincklemann) أعمالهما إلى العبقرية الألمانية[14]. وتوجد هنا حقيقة واضحة، تظهر بصورة أساسية

---

(14) ومع أن الألمان يبدون أنهم هم من اختلقوا تلك المشاعر =

بين الفنانين؛ فمن الواضح أننا نرى أناساً تقوم أعمالهم، ربما يقال إنها الأعمال المهنية، على إظهار الشخصية الفردية، هؤلاء الذين صاروا على وعي شديد بهذه الحقيقة منذ قرن من الزمان بواسطة الحركة الرومانسية، والآن (إذا صحّ القول) يتخلون عن هذا الوعي ويحاولون تصوير أنفسهم بأنهم كائنات جماعية تجسد روح الجماعة (القومية)، إن هذا التنازل عن الفردية من أجل «كيانٍ غير شخصي وباقٍ» يتوافق مع نوع آخر من الحركة الرومانسية؛ فالواقع أن هذا الدافع الذي حرك الفنان يمكن أن يُفسر على أنه رغبة (والتي لم يخفها باريس Barrès) لإسعاد نفسه بنفسه، إذ إن الوعي بالأنا الفردية يتضاعف بقوة عندما يتحول إلى وعي بالأنا القومية، في حين أن الفنان يجد في الوعي الثاني أيضاً موضوعات غنائية؛ وربما يقال إن الفنان

= التي أرفضها، فالكاتب المسرحي ليسينغ والشاعر الألماني شليجل هما أول من أشادا بموهبة شعرائهم تعبيراً عن الروح القومية، وشعور نابع من سخطهم على انتشار الأدب الفرنسي العالمي، ذلك بأن جماعة البلياد الفرنسية (الذين سيثورون علي بكل تأكيد) قد استخدموا منهجاً قومياً ولغة قومية في التعبير عن عاطفتهم؛ ولكنهم لم يضفوا طابعاً قومياً على هذه العاطفة كي يناهضوا المشاعر القومية الأخرى، لا جرم أن إضافة صفة القومية على العقل بصورة منهجية هو من صنع العصور الحديثة، وأما العلماء، فالذي دعم تلك النزعة القومية لديهم هو اختفاء اللغة اللاتينية التي كانت هي لغة العلم؛ ولا يستطيع أحد القول بأن اندثار اللاتينية كان عاملاً في اندثار الحضارة معها.

ليس غافلاً عن مصلحته الخاصة عندما يطلق على نفسه تعبير «عبقري أمته»، وبهذه الطريقة يدعو أبناء العرق الذي ينتمي إليه كي يصفقوا له على عمله الذي طرحه أمامهم[15]، فمهما كانت دوافع تلك العقول العظيمة أو التي عُرِفت بذلك، فإن تصرفهم كان خلاف ما هو متوقع منهم عندما نسبوا قيمة أعمالهم إلى الأمة المنتمين إليها وإحداث صخب عنصري حول ذلك؛ إنهم بهذا التصرف يزيدون من عنترية الدولة ويعززون تجبرها وعجرفتها مما يجعلها تتعالى بتفوقها أمام جيرانها[16].

ولا يمكنني أن أتحدث عن هذا التجديد في موقف «المثقفين» من غير أن أستشهد بما قاله رينان (Renan)، والذي

---

(15) يرى نيتشه أن هذا الأمر ينطبق على فاجنر الذي رأى بأن هناك مكاناً شاغراً يجب أن يملؤه، بعد أن وصف نفسه بأنه مسيح الفن الألماني، في حين أن أغلب مؤلفاته الفنية كانت تلقى انتشاراً عالمياً كأفكاره الفلسفية (انظر كتابه **هو ذا الإنسان** «Ecce Homo» صفحة 58 «ما لا أستطيع أن أغفره لفاجنر هو تعاطفه مع ألمانيا»)، وقد يتساءل أحدنا: هل يمكن لمثل هذا الكلام أن يقال على أحد رواد الفكر في لغة اللورين أو اللغة البروفنسالية (وهما لغتان منتشرتان يتحدث بهما أقلية في فرنسا).

(16) دائماً ما يكون إضفاء القومية إلى أصحاب الفكر والفن مذاقاً غير مستساغ؛ ففي الاحتفالية بمئوية بترارك عام 1904، لم توجه الدعوة إلى دولتي جوته وشكسبير لأنهما لا ينتميان إلى اللغة اللاتينية؛ ولكن وجهت الدعوة إلى الرومانيين، ولا أعلم إن كانت أوروجواي ضمن من وجهت لهم الدعوة أم لا.

أشار إليه جميع المفكرين منذ سقراط وحتى يومنا هذا: «لا ينتمي الإنسان إلى لغته أو عرقه؛ وإنما ينتمي إلى ذاته فقط، فهو كائنٌ حر، أي كائنٌ أخلاقي»، ويرد باريس (Barrès) على هذا الكلام، وسط تصفيق من أقرانه: «أن تكون أخلاقياً ليس معنى ذلك أن ترغب في التحرر من عرقك»، وهنا يظهر بوضوح تعظيم روح القومية التي لم تسمع عنها الدول من قبل إلا قليلاً من الكهنة الروحانيين.

ولكن «المثقفين» المعاصرين ما زالوا يقدمون فضل ما لديهم؛ فقد صرحوا بأن فكرهم لا يمكن أن يكون نافعاً ولا يؤتي ثماره إلا إذا ظلوا داخل بلادهم، وما لم «تُقتلع» جذورهم منها، ونراهم يهنئون فلاناً بعمله في مدينته بيرن، وآخر في مدينة بيري، والثالث لأنه يعمل في مدينة بريتاني الفرنسية، وهم لا ينادون بهذه القاعدة من أجل الشعراء فقط، بل للنقاد والفلاسفة الأخلاقيين وأصحاب النشاط الفكري البحت، فأنت عندما تؤكد نبوغ العقل للدرجة التي يرفض فيها أن يتحرر من أرضه، سيجعل «المثقفين» المعاصرين يؤمنون بمكان بارز حافل بالإنجازات في المجالات الفكرية، ويتضح أن فكر هذه الفئة من الناس قد تغير منذ أن أعلن بلوتارخ قائلاً: «المرء ليس شجرةً ولم يخُلق كي لا يتحرك ولا أن تكون جذوره ثابتة في التربة التي ولد فيها»، ورد الفيلسوف اليوناني أنتيستنيس (Antisthenes) على زملائه الذين يؤيدون

ارتباط الإنسان بأرضه فقال لهم «هم يقتسمون المجد مع الجراد والحلزون».

وخلاصة القول: إنني أنكر فقط رغبة «المثقف» في الشعور بأنه خاضع لسلالته ويظل مرتبطاً بتراب وطنه للدرجة التي تتحول بها هذه الرغبة لموقف سياسي ودافع قومي، وكي أوضح هذه النقطة بطريقة أفضل، دعوني أقتبس هذه الأنشودة التي وجهها أحد «المثقفين» المعاصرين إلى «أرضه ومن ماتوا عليها»، أنشودة خالية من أي مشاعر سياسية:

(وهذه شجرة البلوط التي أجلس تحت ظلالها ويأتي دورها لتتكلم فتقول:

«اقرأ وردد تحت ظلي أناشيد القوطيين التي أسمع صوت أغانيها في الماضي يتردد ممزوجاً بحفيف أوراقي، فأرواح أجدادك التي تكمن في هذه الأناشيد عمرها أكبر من عمري الطويل، فتعلم يا رفيقي كيف تتعرف على أجدادك البسطاء، تنشر لحظات الفرح وأوقات الترح التي عاشوها، واعلم أيها المخلوق الفاني أن عمرك لن يطول أكثر من هذه السنوات القليلة، فكن تقياً وقدس تراب وطنك، وتذكر كلما وطئت تراب وطنك أنه غالٍ ومقدس، وأحب أجدادك الذين ماتوا واختلط رفاتهم بهذه الأرض التي تمدني بالغذاء، وعقولهم التي انتقلت إليك، فكان بينهم بنيامين الذي ملأ الحياة بهجة في حياته، ولا تلم السابقين على قلة معرفتهم أو ضعف أفكارهم،

أو حتى أوهام الخوف التي جعلت قلوبهم قاسية في بعض الأحيان، ولكنك كنتَ حينها صغيراً. وتذكر أنهم كافحوا وعانوا من أجلك وتمنوا لك الخير، ولا تنسَ أنك مدين لهم بكل شيء في حياتك»[17].

(17) أناتول فرانس (La Vie Littéraire)، المجلد الثاني صفحة 274. إن النزعة القومية عند الكُتّاب الفرنسيين والتي أشرت إليها هنا لها تبعات أخرى غير التبعات السياسية؛ فلا أحد يمكن أن يخبرني كم عدد الذين زيفوا مواهبهم وتجاهلوا مواهبهم الحقيقية، في نصف قرن مضى، سعياً وراء «مشاعر القومية الفرنسية»، وخير مثال على ذلك كتاب رحلات سبارطة (Voyage de Sparte)، إذ توضح صفحات عديدة في هذا الكتاب كيف كانت ستتحول إلى عمل أدبي رائع لو أن المؤلف لم تغلبه نزعته اللورينية تحت سماء يونانية، وهنا نأتي إلى أغرب سمات الكُتّاب في هذا العصر؛ وهي رفضهم أن تتحرر عقولهم، وتعطشهم لوجود «أنظمة» (ومنها جاء الحظ الذي رافق موراس والفيلسوف الفرنسي ماريتان)، هذا التعطش الذي نتج عن الفراغ الفكري عند كثير منهم، (ولكي تتعرف أكثر على الفراغ الفكري عند باريس راجع مقال كرتيوس «باريس والأسس الفكرية للقومية الفرنسية»، مقتطفات من كتاب (Union pour la Verite)، مايو 1925؛ والفراغ الفكري عن موراس انظر مقال جاي جراند، نفس المرجع؛ ويقول لويس ديمير (L. Dimier) في كتابه (Vingt Ans d'Action Française): «لم أر نفساً أكثر بؤساً من هذه النفس»، ولكن ليس موضوعي هنا البعد النفسي للكُتاب المعاصرين بصرف النظر عن مواقفهم السياسية.

ثانياً: وضع «المثقفون» أعمالهم في خدمة المشاعر السياسية

لم يكتفِ «المثقفون» بتبني المشاعر السياسية، إذا كنا نقصد بذلك أنهم يضعون هذه المشاعر جنباً إلى جنب مع أعمالهم المكلفين بها بصفتهم «مثقفين»، ولكنهم وضعوا هذه المشاعر نصب أعينهم عند تنفيذ هذه الأعمال، كذلك سمحوا لأنفسهم، أو رغبوا في ذلك، أن تندمج هذه المشاعر مع أعمالهم بوصفهم فنانين وعلماء وفلاسفة، ويغيرون من طبيعة أعمالهم ليمتاز نتاجهم الفكري والثقافي عن غيرهم. والحق أننا لم نرَ أعمالاً سياسية كثيرة وسط تلك التي تعكس فكر وثقافة التجرد.

ربما لا يندهش البعض إذا كانت هذه الحالة مع الشعراء؛ فلا ينبغي أن نطالب الشعراء بفصل أعمالهم عن مشاعرهم، فالمشاعر هي روح الشاعر، والسؤال الوحيد الذي يمكن طرحه هو: هل الشعراء يكتبون قصائدهم ليعبروا عن مشاعرهم أم أنهم يبحثون عن المشاعر ليُقرِضوا الشعر؟ ومهما يكن من أمر، فنحن لا ندرك لماذا استبعدوا المشاعر القومية أو الحزبية من تلك الأشعار التي تنبض بالحياة؛ فشعراؤنا السياسيون، وهم ليسوا بكثير، قد نسجوا على منوال فيرجيل (Virgil) وكلاوديانو (Claudian) ولوكان (Lucan) ودانتى (Dante) ودوبيني (d'Aubigné) ورونسار (Ronsard) وهوجو (Hugo)، ولكن لا

يمكننا أن ننكر أن المشاعر السياسية، كما عبر عنها كلوديل (Claudel) أو دانونزيو (d'Annunzio)، هي مشاعر معبرة وموحدة إلا إنها ينقصها الوضوح والشفافية، تحتقر خصومها دون مراعاة لشعور الآخرين، وحسب ما قاله الشاعر المذكور (دانونزيو) فهذه المشاعر تؤكد بوضوح صفتها السياسية، وتتكيف بذكاء مع جشع وطمع المؤيدين ومع أقصى حد لضعف الغرباء (الأجانب) - وأقول: إن هذه المشاعر السياسية هي شيء مختلف عن التصريحات البليغة لما كتبه فيكتور هوجو عن مآسي «السنة العجيبة»، إنّ عملاً مثل (La Nave)*، الذي يحمل فكرة قومية نفعية وواضحة مثل القومية التي اتبعها بسمارك إذ كانت الموهبة الشعرية تُستخدم لتمجيد هذه الشخصية النفعية، يبدو لي وكأنه شيء جديد في تاريخ الشعر، خاصة الشعر السياسي؛ و تأثير ذلك التجديد على عقول «الدنيويين» تحدده الحالة الذهنية الراهنة للشعب الإيطالي[18].

---

* هي مسرحية غنائية للشاعر الإيطالي دانونزيو (d'Annunzio).

(18) أرى أن الشعراء قد أحدثوا هذه الظاهرة النفعية، حتى أن البحرية الإيطالية في البندقية أرسلت خطاباً إلى دانونزيو بعد نشر مسرحية (La Nave) «في اليوم الذي تطل برائعة جديدة على الحاكم القديم (البحر المتوسط) فوق البندقية، واليوم خضعت مقاطعة بولا لنزع السلاح، تشكركم البحرية الإيطالية في البندقية على مشاعركم ونأمل أن تتجه إيطاليا الثالثة في نهاية المطاف لتسليح سفنها وتبحر إلى العالم بأكمله».

إن أكثر مثال واضح على تكريس الشعراء موهبتهم الشعرية في خدمة المشاعر السياسية هو النوع الأدبي الذي أُطلق عليه «الفلسفة الغنائية»، ويعد باريس (Barrès) هو أحد رموزه البارزين، وقد بدأ هذا الأدب عندما اتخذ من الحالة الذهنية الفلسفية محركاً للعواطف مثل مذهب وحدة الوجود (Pantheism) (وهو مذهب تشكيكي يعد الكون وحدة واحدة وينظر له نظرة مقدسة)، ثم كرس نفسه لخدمة المشاعر العرقية والقومية، وهنا تتضاعف الحركة الغنائية بسبب تأثير روح الفكر المجرد (ويتظاهر باريس بسعيه وراء هذا الفكر - ويقول أحد الفلاسفة فيه أنه قد استغل الفرصة)، واستخدمه المثقفون لإثارة المشاعر السياسية لدى الدنيويين، على الأقل لدى أهم فئة منهم وهم القراء ومن يظنون أنفسهم أنهم مفكرون؛ علاوة على ذلك، فيما يتعلق بالشعراء وخاصة الشاعر الذي ذكرته آنفاً، من الصعب معرفة ما إذا كان هذا الميل الشعري هو الذي يدعم هذه المشاعر السياسية الواقعية والراهنة، أم أن هذه المشاعر هي التي تُكرس لمساندة الموهبة الشعرية التي تبحث عن الإلهام.

ولكن يوجد «مثقفون» يخلطون المشاعر السياسية مع أعمالهم وهم على وعي كامل لما يقومون به، وهذا الانحطاط واضحٌ وجليٌ لدى المثقفين أكثر منه عند الشعراء؛ وأقصد هنا الروائيين والكتّاب المسرحيين، أي المثقفين الذين يتلخص دورهم في تصوير مشاعر الإنسان وصراعاته بطريقة موضوعية

قدر الإمكان - هذا الدور الذي يقومون به بكل شفافية وإخلاص كما قدمه شكسبير وموليير وبلزاك، ولعل أحدنا يلاحظ كيف انحرف هذا الدور كثيراً عما سبق عندما خضع العديد من الروائيين المعاصرين للأغراض السياسية؛ ليس لأنهم ينشرون أفكاراً «متحيزة» في أعمالهم الروائية (بلزاك كان يفعل ذلك دوماً)، بل لأنهم جعلوا أبطالهم يشعرون ويتصرفون وفق المشاعر التي يراها المؤلف بدلاً من الفهم الحقيقي للطبيعة الإنسانية، وأستشهد هنا بتلك الروايات التي يظهر فيها التقليديون دائماً في النهاية، مهما كانت أخطاؤهم، بشخصياتٍ نبيلة، في حين أن الشخصية غير الدينية لا تفعل غير التصرفات الدنيئة رغم جهودها الكثيفة[19]؛ وروايات يكون فيها الزعماء السياسيون هم أصحاب الفضيلة، أما الدناءة فهي من نصيب البرجوازيين[20]؛ وأخرى يعرض فيها المؤلف العلاقة بين أبناء وطنه والأجانب من دولة أخرى، وبصورة مباشرة يعلي من شأن

---

(19) قارن بينهم وبين بلزاك الذي، رغم كونه من المحافظين، لم يتردد في إظهار حزب المحافظين وخاصة الكاثوليكي في صورة سلبية، إذا كان يرى أن ذلك هذه هي الصورة الحقيقية، انظر كتاب إرنست سيلير (Balzac et la morale romantique) والذي هاجم فيه بلزاك بشدة.

(20) «Resurrection» و«Jean-Christophe» (المستمدتان من أسلوب جورج ساند)، وعلى الجانب الآخر، أرى أن رواية البؤساء قد أنصفت البرجوازيين كثيراً، رغم أنها رواية متحيزة في الجوانب الأخرى.

وطنه وشعبه[21]، وخلاصة القول: إن هذا العمل يحمل بداخله آفتين؛ ذلك بأنه لا يهيج المشاعر السياسية في صدر القارئ فقط، بل إنه يجرده من واحدة من أبرز الآثار الحضارية للأعمال الفنية، أي أن المتفرج يُفرض عليه سبر أغوار النفس بواسطة تصوير النفس البشرية فيشعر أنها حقيقية فيولي اهتمامه فقط بالحقيقة[22]. فمن وجهة نظر الفنان وقيمة عمله فقط،

---

(21) على سبيل المثال الروايات الفرنسية في فترة ما قبل الحرب والتي تصور الفرنسيين في إقليم الألزاس واللورين، وربما يتضح لنا تماماً أن الألمان منذ عام 1918 ألفوا روايات مطابقة لذلك.

(22) لعلي هنا أقتبس الفقرة الآتية فيما يتعلق بآثار هذا التصوير:
«إن مشهد عرض صورة إنسانٍ على إنسانٍ آخر يحمل في داخله تبعات أخلاقية؛ أولها: إعمال العقل بالفكر وتعزيز القدرة على التأمل واتساع الآفاق نحو رؤى متعددة، والتي تنتج عادة عن التعمق في نفوس الآخرين بعد التجرد من الذات وذلك لفهم طبيعة أفعالهم ومشاركة مشاعرهم والتعاطف مع معاناتهم وتقدير دوافعهم، وبذلك تتصل مشاعر الفنان بالمشاهد أو المستمع، وتنشأ مشاعر فهم الآخرين ومشاركتهم لتضاهي مشاعر الغطرسة وهي حالة من التسامح والإحسان، وكذلك العدل في أحيانٍ كثيرة، ومن ثم تقدم للمشاهد دروساً في الفضيلة يستطيع بواسطتها مدح أفعال أو أفكار أو رفضها والتي تعرض أمامه إذ يستبعد فيها مصالحه الخاصة، إذاً الظاهرة الأساسية التي تصور الأخلاق أو الإنسانية الشعورية تقع في نفس المشاهد الذي يرى في نفسه شخصاً آخر، أي نزاهة مجردة من نفسه إلى نفسه، وتعميم المشاعر، والحكم القائم على الكليات، والمناجاة للوصول إلى المشاعر الثابتة والواضحة والمحددة لتوجيه الرغبات.

نستطيع القول بأن نزعة التحيز تدل على انحطاط كبير؛ وقيمة الفنان، التي تجعله ذا قيمة كبيرة حول العالم، هي أنه **يلعب** دور المشاعر الإنسانية بدلاً من أن يعيشها، وأنه يجد في مشاعر هذا «الدور» نفس مصدر رغباته وابتهاجاته ومعاناته كالرجل العادي الذي يجدها في البحث عن الأشياء الحقيقية؛ فلما كان هذا النوع البارع من الأعمال الغزيرة يضع نفسه في خدمة الوطن أو طبقة ما، ولما تحول الإنصاف والعدل إلى منفعة يسعى إليها الجميع، حينئذ أستطيع أن أقول مثل الشاعر **سيفريد** «Siegfried» مؤلف «العذراء والصخور» عندما أطلق آخر زفرة له قائلاً: «لقد فقد العالم قيمته».

تقدَّم أن بعض «المثقفين» قد كرّسوا أعمالهم في صالح المشاعر السياسية، وهم الشعراء والروائيون والكُتّاب المسرحيون والفنانون، أي أولئك الذين مصرح لهم بأن يوفروا مساحة أساسية للمشاعر، حتى الجامحة منها، ضمن أعمالهم، ولكن هناك نوع آخر من «المثقفين» نصدم كثيراً بتجاوزهم لنزاهة العقل، كذلك كان تأثيرهم على «الدنيويين» كبيراً بسبب منزلتهم المرتبطة بوظائفهم؛ وأتحدث هنا عن المؤرخين. والظاهرة هنا جديدة، كما الحال مع الشعراء، حيث وصلت درجة عالية من الوضوح، وبديهي أن الإنسانية لم تنتظر العصر الحالي لتشهد استخدام «التاريخ» لدعم التحزب أو المشاعر القومية؛ ولكن غنيٌ عن البيان أننا لم نشهد حدوث ذلك بنفس العقل المنهجي ونفس قوة الوعي اللذان نراهما في المؤرخين الألمان في نصف

القرن الفائت وعند أنصار الملكية في فرنسا في العشرين سنة السابقة، ويعد نموذج فرنسا هو الأكثر وضوحاً بانتماء المؤرخين من أنصار الملكية لوطن حقق مجداً أبدياً في تاريخ العقل البشري عندما أنكروا علناً الكتابة الواقعية للتاريخ وقاموا بصياغة ميثاق التاريخ الموضوعي ولكن طبقاً لما كتبه أسلافهم من المؤرخين الفرنسيين وحدهم، كأعمال بوفورت (Beaufort) و فريريت (Fréret) وفولتير وثيري (Thierry) ورينان وفوستيل دو كولانجيس (Fustel de Coulanges)[23]، ولكن هذا التجديد الواقعي هو اعتراف بنزعة المحاباة والتحيز، ونية معلنة لاستخدامه منهجاً مشروعاً؛ لهذا يقول أحد المفكرين في ألمانيا: «المؤرخ الصادق هو الذي ينقل الحقائق التي تؤدي إلى عظمة ألمانيا»؛ ويثني نفس المفكر على المؤرخ الألماني مومسن (الذي هو نفسه يتفاخر بذلك) لأنه كتب التاريخ الروماني «الذي تحول إلى تاريخ ألمانيا ولكن بأسماء رومانية»؛

(23) انظر دراسة وفوستيل دو كولانجيس بعنوان (De la manière d'ècrire l'histoire en France et en Allemagne)، سنلاحظ أن استنكار الكاتب للمؤرخين الألمان ينطبق كلياً على بعض المؤرخين الفرنسيين في السنوات الأخيرة، مع هذا الفارق: «أن الألمان يغيرون التاريخ لتمجيد وتعظيم بلادهم، أما الفرنسيين فيمجدون النظام السياسي، والنتيجة كانت أن «انحياز» فلاسفة ألمانيا أدى إلى حرب قومية، أما في فرنسا فقد قادوها إلى حرب أهلية، فهل ينبغي أن أتساءل: كيف لهذه الأحداث أن تثبت التقدم الأخلاقي لفرنسا؟

وهذا ترايتشكي (Treitschke) يتباهى بنفسه لأنه لا يستخدم منهج «الموضوعية الهزيلة التي تنافي روح التاريخ»؛ ويقول جيزبريخت (Giesbrecht): «لا ينبغي أن تحلق العلوم خارج سماء الوطن، بل يجب أن تكون لها طابع وطني؛ يجب أن تكون ألمانية»، كما أنَّ أنصار الملكية عندنا لا يتخلفون أبداً عن مسيرة النفاق الوطني؛ فظهر أحدهم مؤخراً، وهو مؤلف كتاب «تاريخ فرنسا» الذي يعرض فيه محاولة ملوك فرنسا، منذ عصر كلوفيس، في منع حرب 1914، وهو يدافع عن المؤرخين الذين يعرضون الماضي من وجهة نظر مشاعر عصره[24].

وعندما يصر «المثقف» المعاصر على إضافة نزعة التحيز إلى السرد التاريخي، فإنه بذلك يحط من قدْر مهمته الحقيقية، ولا أبالغ القول بأن هذه المهمة هي كبح لمشاعر «الدنيويين»؛ فهو لم يثر فقط مشاعر العامة ببراعة أكثر من ذي قبل، ولم يجردهم فقط من المشهد الإيحائي لرجل كل ما يشغله هو التعطش للحقيقة، بل يمنعهم أيضاً من الاستماع إلى خطاب مختلف عما يُقال في الميادين العامة، هذه الخطابات التي تأتي لتوضح أن أكثر المشاعر المعارضة ذات أساس راسخ وضرورية

---

(24) *Revue Universelle* 15 أبريل 1924، وهنا يظهر أغرب اتجاه من اتجاهات المعاصرين؛ وهو اتباع مذهب الذاتية الذي حاربه أسلافهم دون ادخار أي مجهود يبذل.

للدولة المادية، لذا تحث القارئ الذي لديه أي قدرة على تجاوز أي شيء ليتحرر من مشاعره القاسية، على الأقل لفترة بسيطة.

إلا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول: إن رجالاً مثل ترايتشكي (Treitschke) ومن على شاكلته من الفرنسيين لم يكونوا مؤرخين؛ بل كانوا رجال سياسة استخدموا التاريخ لدعم قضية ما والانتصار لها هو الهدف المنشود؛ وبديهيٌ أن زعيمهم في هذا المنهاج لم يكن لونين دو تيمون (Lenain de Tillemont) إنما هو لويس الرابع عشر الذي هدد بسحب راتب المؤرخ ميزراي (Mezeray) إذا أصر على الإشارة إلى عيوب الملكية القديمة؛ أو نابليون الذي أمر قائد الشرطة باتخاذ الاجراءات اللازمة لكتابة تاريخ فرنسا بطريقة تناسب عرشه، ولكن الداهية فيهم من تظاهر بارتداء قناع التجرد من أي منفعة أو شهوة[25].

---

(25) وأدرج هنا بعض الملاحظات التي أملاها نابليون في مدينة بوردو عام 1808، إذ توضح تصوره عن التاريخ كما دونه المؤرخون في الماضي، مع وجود بعض التعديلات اللازمة:
«لا أتفق مع وزير الداخلية في المبادئ التي وضعها هنا؛ قد تكون مناسبة منذ عشرين سنة مضت، أو ستين سنة من الآن، ولكنها لا تناسب هذا العصر، فيلي (Velly) هو أحد المؤرخين الذين كتبوا عن فرنسا بالتفصيل، فالتسلسل الزمني المختصر للمؤرخ هينولت (Hénault) كان كتاباً كلاسيكياً ممتعاً، وأرى أن نفعه سيكون أفضل إن استمر هذا التسلسل، ومن الأهمية بمكان أن تُكتب هذه الأحداث التسلسلية بنفس الروح، لذا أمرت وزير الشرطة أن =

إنني على يقين بأن هؤلاء الذين أتهمهم بخيانة رسالتهم في الحياة، ومبادئهم المنصفة التي يجب أن تناسب منزلتهم كونهم مؤرخين أو علماء نفس أو فلاسفة أخلاقيين، سيكون ردهم، إذا لم يؤثر ذلك على سمعتهم، كالآتي: «لسنا رهباناً في محراب المبادئ الروحية وعالم المثالية؛ إنما نحن خدّاماً لعالم الماديات، والحزب السياسي، وخداماً للدولة الوطنية، فإنّا نخدم الوطن بالقلم بدلاً من السيف، فنحن الجيش الروحي للمادية».

وأذكر النقاد من بين هؤلاء الذين عليهم أن يقدموا للعالم صورة العمل الفكري الشريف والمنصف، ومع ذلك استبدلوا الأغراض الدنيوية بمبادئهم ومهامهم، فالجميع يعلم أن عدد هائل من النقاد اليوم يرون أن العمل الفكري يعطي ثماره فقط

= يهتم باستمرار تسلسل الأحداث عن ميلوت (Millot)، فكانت رغبتي أن يرجع كلا الوزيرين إلى التاريخ الذي كتبه فيلي وتاريخ الرئيس هينولت....
وأرى أنهما سيكونان منصفين في الكتابة عن هنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ولكن دون نفاق أو مداهنة، فيجب رسم مذابح سبتمبر وأهوال الثورة بنفس صبغة محاكم التفتيش ومذابح الستة عشر، وينبغي لهما أن يتجنبا المشاعر عند الحديث عن الثورة، حتى لا يتطاول أحد على الثورة فيعارضها، ولا يهاجموا أو ينتقدوا حياً أو ميتاً، فلا توجد قوة فردية يمكنها تغيير الأسباب والتنبؤ بالأحداث التي تنشأ من طبيعة الأشياء والظروف».

عندما يخدم مصالح الحزب المنتمي إليه، أو يجعله بين أمته «نابغة»، أو يوفق بين المذهب السياسي والنظام السياسي الذي يعيش فيه، أو أي أسباب أخرى للعيش بأمان، وكما قلت سابقاً: إن «المثقفين» المعاصرين يصرون على أن المنفعة هي التي تقرر العدالة، بل تحدد أيضاً الجمال؛ ذلك الذي لم يكن من إبداعاتهم القليلة في التاريخ، ولكن هؤلاء الذين يتبنون هذا النوع من النقد ليسوا نقاداً صادقين، إنما هم رجال سياسة، يستخدمون النقد (Criticism) لدعم مخططاتهم النفعية، وهنا تكتمل المشاعر السياسية التي نال شرفها المعاصرون؛ فلم يفكر لويس الرابع عشر أو حتى نابليون في استخدام النقد الأدبي في دعم النظام السياسي الذي يؤمنان به[26]، وصفوة ما انتهيتُ إليه أن هذا التحول قد آتى ثماره؛ فمثلاً إذا اتفقت مع أنصار الملكية في فرنسا أن النظام الديمقراطي مرتبط ارتباطاً حتمياً بالأدب الرديء، فأنت تتعامل مع هذا النموذج وكأنه كارثة حقيقية في دولة مثل فرنسا، التي اتخذت من الأدب حياة، على الأقل بين هؤلاء الذين يظنون أن فيكتور هوجو ولامارتين من المفكرين الضعفاء[27].

---

(26) ظن اليسوعيون أنهم يفعلون ذلك لمحاربة الحركة الينسينية. (See Racine, *Port-Royal, pt. i*)

(27) أما موضوع نقص الحس الأدبي الذي يرافق هذا النقد السياسي بين أتباعه، انظر مقال لويس ديمير في كتابه (*Vingt Ans d'Action Française*)، ص 334.

وأهم ما يميز «المثقف» الحديث برغبته في استخدام المشاعر السياسية فيما يقدم من عمل فني أو فكري، هو أنه يفعل ذلك بمقتضى الفلسفة، أو ما وراء الطبيعة (metaphysics) إن صح القول، ويقال إنه حتى القرن التاسع عشر ظل علم ما وراء الطبيعة هو القلعة الحصينة للنظريات المحايدة، ولاقى هذا العلم، من بين أشكال الأعمال العقلية كافة، الاحترام التام الذي نقله عالم رياضيات إلى نظرية الأرقام متفوقاً على جميع فروع الرياضيات عندما قال: «هذا هو حقاً الفرع النقي من علومنا، وأقصد بذلك أنه لم يتأثر بأي من التطبيقات العملية»، والواقع في أمر المفكرين الذين تخلو حياتهم من أي امتيازات دنيوية، مثل أفلوطين (Plotinus) وتوما الأكويني وديكارت وكانط، وحتى الذين آمنوا بسمو ورفعة أمتهم أو الطبقة التي هم منها (مثل أفلاطون وأرسطو)، لم يفكروا أبداً في توجيه نظرياتهم المثالية ناحية إثبات هذا التفوق العرقي أو ضرورة قبول العالم لهذه الفكرة؛ فربما نجد أن توجهات اليونانيين الأخلاقية كانت قومية، ولكن علم ما وراء الطبيعة عندهم كان علماً عالمياً، كذلك الكنيسة نفسها رغم موافقتها على المصالح القومية أو الطبقية ضمن مبادئها، إلا أنها لم تؤمن إلا بوجود «الله» و «الإنسان» في علم الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة).

ولكن شهد عصرنا الحالي أبرز علماء الميتافيزيقا يوجهون نظرياتهم إلى تمجيد أوطانهم وانتقاد غيرهم من الدول بل ذمهم أيضاً، إضافة إلى ذلك يناصرون أبناء وطنهم ويؤيدون عزيمتهم

في فرض سيادتهم باستخدام قدرة العبقرية التجريدية، وقد جعل فيشته وهيجل من نجاح العرق الألماني نتيجة حتمية وأساسية لتطور البشرية، وأثبت التاريخ تأثير ما فعله هؤلاء «المثقفون» على عقول شعوبهم من عدمه؛ ولعل من الضروري أن أضيف: إن مشهد الميتافيزيقا الذي يأخذ طابعاً وطنياً قد قدمه الألمان فقط، فلم نرَ في فرنسا فيلسوفاً، حتى في هذا العصر المليء بـ «المثقفين» القوميين، أنشأ نظاما ميتافيزيقياً يمجد فرنسا، كذلك لم يفكر أبداً أوجست كونت (Auguste Comte) أو رينوفير (Renouvier) أو برجسون (Bergson) في وسم الهيمنة الفرنسية على أنها نتيجة حتمية لتطور العالم، ويتضح مدى التدهور الذي وصلت إليه الميتافيزيقيا كما حدث للفن قبلها، إن العار سيلاحق الفلاسفة الألمان عندما أحالوا الشرفاء الذين يقدسون الدين إلى امرأة سيئة السمعة مشغولة بالصياح باسم مجد أبنائها.

ثالثاً: «المثقفون» يمارسون لعبة المشاعر السياسية على حساب معتقداتهم

ولما كان «المثقفون» قد انفصلوا عن تقاليدهم ومارسوا بحزم دور الدنيويين في تطلعهم إلى تثبيت أنفسهم في ميدان الواقعية، فإنهم قد توسلوا في ذلك بمعتقداتهم ونظام القيم التي قدموها للعالم؛ فهؤلاء الذين ظلوا لمدة عشرين قرناً يستهينون بالمشاعر العملية من أجل أهداف مجردة وصادقة، قد أعدوا أنفسهم (بعلم ووعي سيذهلان التاريخ) لمهمة صناعة هذه

المشاعر، والدوافع التي تجعلها مقبولة عند الآخرين، وتلبيسها ثوب الفضيلة، في حين أنهم لا يستطيعون إظهار ازدراء لهذا العالم الذي ترفع في كل الأحوال عن الحياة المادية، وسأبين الآن السمات الأساسية لهذه الظاهرة.

1 - «المثقفون» يشيدون بالانتماء إلى القومية وينكرون شعور العالمية

شرع «المثقفون» في البداية في الإشادة بإرادة الإنسان في أن يتكون لديه شعور بالتعالي كونه أفضل من غيره، ويصفون أي نزعة لوجود الفرد العالمي بالوضيعة، ونستثني منهم بعض الكُتّاب مثل تولستوي وأناتول فرانس؛ الذين لاقت أفكارهم رفضاً لدى الكثير من زملائهم، أما جميع الفلاسفة الأخلاقيين الأوروبيين الذين كان لهم تأثير في نصف القرن الماضي مثل بورجيه (Bourget) وباريس(Barrès) وموراس (Maurras) وبيجي (Péguy) ودانونزيو (d'Annunzio) وكبلنج (Kipling)، والغالبية العظمى منهم من الألمان، قد أشادوا بأولئك الذين يشعرون بقيمة أنفسهم داخل أوطانهم ويتفاخرون بأعراقهم، ذلك ليمتازوا عن غيرهم بل يخالفونهم أفكارهم، ويحبطونهم إذا تطلع أي فرد منهم للشعور بالذات بصورة عامة وكذلك إذا تجاوز التطلعات العرقية، فقد شرع هؤلاء، الذين كان عملهم منذ عصر الرواقيين (Stoics) مخصصاً لهدم فكرة الغطرسة

القومية لصالح شيء نظري لا ينتهي تأثيره، في رفض أي مشاعر من هذا النوع والمناداة بأخلاقيات هذه الغطرسة المتعالية، وفي عصرنا الحالي، تخلى أحفاد إيراسموس ومونتين وفولتير عن مبدأ الإنسانية وعدوه انحطاطاً أخلاقياً، بل جعلوه تراجعاً ثقافياً أيضاً، ذلك بأنه «غيابٌ تام للعقل العملي»، وهذا العقل العملي قد أصبح مقياساً للقيم الثقافية عند هؤلاء «المثقفين».

وأود هنا أن أجري مقارنة بين الإنسانية (humanitarianism) كما أعنيها هنا - والتي هي شعور تجاه طبيعة الإنسان المجردة، وحسب تعريف مونتين «هي الصورة الكاملة لحالة الإنسان» - وبين الإنسانية التي هي شعور الحب لجميع الكائنات البشرية الموجودة في الواقع؛ فالأول (الذي نسميه دائماً المذهب الإنساني «humanism») مرتبط بمفهوم معين، فهو عبارة عن مشاعر العقل الخالصة والخالية من أي حب دنيوي، فمن السهل أن نجد من يبحث في مفهوم الإنسان دون أدنى رغبة في التعرف على شخص واحد، فهذا هو مفهوم حب البشرية عند عظماء المفكرين مثل ماليبرانش وسبينوزا وجوته، وكل هؤلاء الرجال لم يكونوا متلهفين، كما يتضح، على أن يلقوا بأنفسهم في أحضان جيرانهم؛ أما المفهوم الثاني للإنسانية فهو حالة قلبية تتجه نحو العامة من الشعب، وظهرت هذه الحركة بين الفلاسفة الأخلاقيين في حقبة اختفت فيها المذاهب الفكرية بينهم فأفسحت المجال للمشاعر العاطفية،

وأعني هنا القرن الثامن عشر (تحديداً مع ديدرو) وقبل كل شيء في القرن التاسع عشر عند ميشليه وكينيه (Quinet) وبرودون ورومان رولان وجورج دوهاميل، إن هذا الشكل العاطفي من الإنسانية مع تجاهل صورته الفكرية يفسر عدم انتشار هذا المذهب بين كثير من أصحاب العقول المميزة، الذين اكتشفوا في ترسانة الأيديولوجيا السياسية مفهومين متناقضين؛ الأول هو «هراء الوطنية»، والثاني «مذهب العالمية»[28].

إن الإنسانية التي تحترم الطبيعة المجردة للإنسان هي الوسيلة الوحيدة التي تجعلنا نحب جميع الجنس البشري، ومن الواضح أننا بمجرد أن ننظر إلى الإنسان بطريقة واقعية، سنجد حتماً أن طبيعة هذا الإنسان مقسمة بمقادير مختلفة، ونتفق مع رينان في قوله: «كلنا بشر وكلنا أبناء آدم... ولا أرى سبباً في أن تكون إحدى الشعوب الملونة المتخلفة خالدة»، وعندما عجز المعاصرون القائلون بالمساواة عن إدراك عدم وجود مساواة إلا في المجردات وأن عدم المساواة هو جوهر الواقعية، فإنهم

---

(28) الفرق بين هذين المذهبين عبر عنه جوته تعبيراً بارعاً (Dichtung und Wahrheit) عندما ربط تجاهله وزملاءه بأحداث 1789: «في دائرتنا الصغيرة نحن لا نهتم بالأخبار وما تقوله الجرائد؛ فهدفنا هو أن نفهم الإنسان؛ أما بالنسبة للناس فنترك لهم حرية الاختيار»، وغني عن البيان أن «العلوم الإنسانية» كما أسسها اليسوعيون في القرن السابع عشر هي «دراسة الأكثر أهمية بالنسبة للإنسان» وهي على أي حال أعمال إنسانية.

ببساطة قد أظهروا فقر عقولهم بالإضافة إلى غبائهم السياسي[29].

والمذهب الإنساني، كما تقدم تعريفه، لا علاقة له بمبدأ النزعة الدولية (internationalism)؛ فهذه النزعة الدولية تعارض الغطرسة القومية ليس دفاعاً عن المشاعر الروحية، بل من أجل نوع آخر من الغطرسة ومشاعر دنيوية أخرى؛ فهذه الحركة يتبناها فئة معينة من الناس هم: العمال وأصحاب البنوك وأصحاب المصانع، الذين يتحدون عبر الحدود باسم المصالح العملية والخاصة، ويعارضون الروح القومية فقط لأنها تعيق حركة مصالحهم[30].

وإذا عقدنا مقارنة بين هذين المذهبين، سنجد أن المشاعر القومية تظهر في صورة الحركة المثالية والمجردة، والمذهب الإنساني، باختصار، يختلف تماماً عن مبدأ الكونية

---

(29) وهذا ما أدركته الكنيسة جيداً، فنتيجة هذه الحقيقة هي: أن الحب يمكن خلقه بين الناس بشحذ المشاعر تجاه الإنسان المجرد، ومواجهة المنفعة الشخصية بداخلهم تجاه الرجل المجرد؛ وذلك بتوجيههم إلى التأمل الروحي وتجنب دراسة التاريخ (انظر ماليبرانش)، وهذا هو الاتجاه المخالف لاتجاهات «المثقفين» المعاصرين، ولكن هؤلاء المثقفين ليس لديهم أدنى رغبة في خلق الحب بين الناس.

(30) وهكذا سيتبنون الروح القومية إذا بدت أنها تخدم مصالحهم؛ ومثال على ذلك الحزب القومي الاشتراكي (الحزب النازي).

(Cosmopolitanism) الذي يرمي بوضوح إلى الاستفادة من امتيازات الأمم وثقافاتها كافة، وهو خال على الإجمال من أي انحياز مطلق للأمور المعنوية والأخلاقية[31]، ودعونا نعود الآن إلى حركة «المثقفين» التي يحثون الناس بها على العلو والتفاخر مما يجعلهم في أفضلية على غيرهم من الأمم.

إن ما يدهش التاريخ في هذه الحركة التي ينتمي إليها «المثقفون» هو إكمالهم تحقيقها بوضوح، إذ حرضوا شعوبهم على الشعور بكل ما يميزها عن غيرها من الأمم؛ بشعرائها أكثر من علمائها، وبحكاياتها الشعبية أكثر من علومها الفلسفية، ذلك بأن الشعر يتميز بالنزعة القومية أكثر من غيره من الفنون، ومستقل بذاته أكثر من نتاج الأعمال الفكرية البحتة[32]، ومن

---

(31) أعلن بعض القوميين، الذين يميلون إلى احترام الكونية ويدركون أن قيمتهم هي فكرهم ولكن لا يرغبون في التضحية بقوميتهم، أن الكونية تعكس «القومية التنويرية»، واستشهد بول بورجيه، الذي صاغ هذا المصطلح (Paris-Times, June, 1924)، بأمثلة من جوته وشتاندال «إن أسلافهم ظلوا محتفظين بهويتهم الألمانية في حين كانوا يتدارسون حركة الفكر الفرنسي، والفرنسيون احتفظوا بهويتهم الفرنسية أثناء مطالعتهم الفكر الإيطالي»، ونتساءل كيف لهذين الرائدين أن أظهرا «القومية» المستنيرة بالاحتفاظ بالهوية الألمانية والفرنسية، من الواضح أن السيد/ بورجيه يسبب القلق للقومية والقوميين.

(32) تقريباً كل الأعمال ذات الدعاية القومية في دول أوروبا الشرقية الصغيرة هي مختارات من الشعر، وقليل من الأعمال الفكرية، =

هنا بدأوا يدفعون الناس للثناء على صفات الشعراء باعتبار أنهم ينتمون إلى هذه الشعوب وليس لهم سمعة عالمية، وحدث مؤخراً أن أحد الكُتّاب الإيطاليين مدح لغته لأنها فقط تُستخدم في إيطاليا، واحتقر اللغة الفرنسية لأنها تُمارس عالمياً[33]، وهؤلاء المثقفون يحرضون شعوبهم على الشعور المتعالي بقيمة أنفسهم في كل شيء يجعلهم أفضل من غيرهم، ليس فقط فيما يخص لغتهم وفنونهم وآدابهم، بل حتى في لباسهم ومنازلهم وأثاثهم وطعامهم، وظهر أثناء نصف القرن المنصرم تجربة عامة رأينا فيها كُتّاباً بارزين (لن نذهب إلى أبعد من فرنسا) بدأوا يحثون الشعب على تشجيع الموضة الفرنسية والكوافير الفرنسي وغرف الطعام الفرنسية والمطبخ الفرنسي والسيارات الفرنسية، علاوة على ذلك أنهم شجعوهم على أن يكونوا مميزين حتى في عيوبهم؛ ويقول فوستيل دو كولانجيس: إن المؤرخين الألمان قد شجعوا شعبهم على أن يشعروا بالنشوة تجاه هويتهم، حتى وإن كانت تتسم بالبربرية، ولم يكن الفرنسيون ليتخلفوا عن هذا الركب، إذ كانوا يرغبون في أن يقبل أبناء وطنهم فكرة «الحتمية القومية» في «مجملها الذي لا يتجزأ»، يقبلوها في ظلمها كما

= راجع الكلمات التي ألقاها إميل بوتروكس في أغسطس 1915 على لجنة الاتفاق الودي (بين فرنسا وبريطانيا) ضد الشعور الذي يهتم كثيراً بالفكر، لأنه «في حد ذاته يميل إلى أن يكون شيئاً مستقلاً أو مشتركاً لكل الكائنات التي لديها معرفة».

(33) Les Nouvelles Littéraires, 25 th September, 1926

في حكمتها، في تعصبها كما في ثقافتها، وفي ضعفها كما في عظمتها، ويقول موراس: «إن أذواقنا هي ملك لنا وحدنا، فنحن فقط من لهم الحق في اختيار طريقتنا في الحياة والحكم المطلق عليها»، وأكرر: ليس الغريب في هذا الموضوع أنه قيل للناس علناً، ولكن الغريب أن من قاله هم «المثقفون»، تلك النخبة التي رامت إلى حث أبناء وطنهم على الشعور بقيمة الذات فيما يشترك فيه غيرهم، قيل ذلك في فرنسا على لسان أحفاد مونتين وباسكال وفولتير ورينان.

إن تمجيد هذه الخصوصية القومية ينتشر بشكل خاص بين من أسميتهم «نخبة المثقفين» - أي رجال الدين، هؤلاء الذين ظلوا قروناً يحذرون الناس، نظرياً على الأقل، من نزعة الاحساس بتمايزهم عن غيرهم، كي يجتمعوا معاً ويتعارفوا فيما بينهم تحت مظلة الدين المقدسة، أما الآن فقد صاروا يثنون على هذه الاختلافات فيما بينهم، وذلك بحسب مكان الموعظة التي يلقونها، فنراهم يتحدثون عن «إخلاص الروح الفرنسية» أو «ثبات الضمير الألماني» أو «دفء القلوب الإيطالية»[34]، تخيل

---

(34) وهنا نموذج من الحيل البارعة التي يضطر هؤلاء إليها لاسترضاء العقيدة المسيحية بالدعوة إلى الخصوصيات القومية: «نود أن نضع نموذج الكونية في علاقة إيجابية بالحقيقة المعاصرة للصورة القومية، التي تنتمي إلى جميع جوانب الحياة، حتى الحياة المسيحية» باستور ويت نقلاً عن كتاب (Guerre et Religion, A. Loisy)، وهنا تظهر عقول الأطفال التي تميل إلى تربيع الدائرة.

معي المشهد الآتي: المسيحُ يدخل إحدى كنائسه اليوم ويرى تمثالاً لبطلة قومية (جان دارك) السيف معلق على خصرها والراية تحملها بيدها، والغريب أن هذا التمثال يرمز إلى الإيمان بالمسيح، وهو الذي قال على لسان واحد من رسله: «وفيه لا فرق بين يوناني ويهودي، أو مختون وغير مختون، أو متحضر ومتخلف، أو عبد وحر، بل المسيح هو الكل وفي الكل»[35] (رسالة بولس إلى أهل كولوسي، إصحاح 3).

والواقع في أمر هذه الخصوصية القومية أنها مذهب جديد في تاريخ الكنيسة بلا شك؛ على الأقل بالصورة الجلية التي نراها اليوم، لن أرجع للوراء بعيداً، ولكن سأذكر القديس أوغسطينوس الذي دعا في كتابه «مدينة الله» إلى التخلي عن أي نزعة وطنية، وبوسويه الذي بيّن لنا غضب المسيح في قوله «يبدو أننا نسينا أننا كلنا بشر بمجرد أن بعض الأنهار والجبال تفصل بعضنا عن بعض»، وحتى وقت قريب من عام 1849، شدّد أساقفة المجمع المقدس على أن «حركة القوميات هي من آثار الوثنية، وأن اختلاف الألسنة ما هو إلا نتيجة لخطايا البشر»، لا جرم أن هذا الإعلان كان له أهمية شديدة، فكان أول مَن دعا إليه فرانسيس جوزيف، أكثر الكاثوليكيين الذين

---

(35) أليس غريباً أن تستبدل الكنيسة في العشرين سنة الماضية بوصاياها «القتل محرم، ولو كان قتلاً خطأً أو عمداً» وصية أخرى «القتل محرم، بدون حق أو عمداً»؟

ناهضوا النزعات الانفصالية بين شعوب الإمبراطورية التي يحكمها؛ ولا أبالغ القول بأن الكنيسة عادت لا تصدر هذه البيانات، حتى وإن كانت من أجل المصلحة، وقد أخبرت بأنه حتى لو أرادت الكنيسة فعل ذلك، فإنها ستفعل ذلك بشرط أن يعود إليها الكهنة دون أن يحظوا بشعبية الناس، كما لو أن وظيفة «رجل الدين» أو المثقف عدم نقل الحقائق التي تثير غضبهم، أو أنه سيدفع سلامته ثمناً لذلك.

ويدور سؤال في ذهني، مع أنني لا أحب كثرة التساؤلات؛ هل يوجد أسقف واحد في أي كنيسة أوروبية يجرؤ أن يصرح علناً أن: «الكنيسة تعد دار عبادة وطنية وعالمية، ولكن هاتين الصفتين لا تتوافقان، فالعالم قد جاء من أصل واحد، أو قل ما شئت بلغة الكنيسة، هو أرض المنفى المشتركة» (وجاء في الأدب الرعوي لأسقف مقاطعة بوي (Puy) فرانك دو بومبينون (Le Franc de Pompignan) «ما يسمى بفلسفة الكافرين المعاصرين» 1763، وكلمة «الكافرين» هنا تعني الذين يرفضون عالمية الكنيسة).

ويرى بعض «المثقفين» أنهم يؤدون مهمتهم على أكمل وجه عندما يمجدون ويعلون من شأن الخصوصيات القومية، وهم بذلك في انسجام تام مع الروح الأصيلة للكنيسة، وخاصة مع تعاليم علماء اللاهوت في القرون الوسطى (هذه هي الفرضية التي وضعت الكاثوليكية في مواجهة مع المسيحية)، إن الحقيقة تستوجب علينا أن نوضح بأن أكثر هؤلاء اللاهوتيين قوميةً قد

اقتصروا في تعريف الخصوصيات القومية بأنها طبيعة حتمية للعالم المادي والدنيوي، والتي يجب أن يكون لها إجلالها كأي شيء يخضع لإرادة الله، وأن هؤلاء لم يحرضوا الناس على تعزيز هذا الشعور في صدورهم، ناهيك عن أنهم ما زالوا يفكرون في وضع هذا التعزيز أمامهم باعتباره ممارسة لكمال الذات الأخلاقي.

لما أيدت الكنيسة في الماضي جزءاً من الوطنية، فقد كان ذلك فقط لتعزيز روح الأخوة بين المواطنين، كحب المرء لأخيه، وليس لمعاداة الآخرين؛ وموافقتها على الوطنية ما هي إلا امتداد لحب البشرية وليس تقييداً لحريتها[36].

---

(36) ومثال على ذلك هذا النص المقتبس من بوسويه: «منذ أن اضطررنا إلى حب الناس كافة ولأن الحقيقة أن المسيحية لا يوجد فيها غريب أو أجنبي، فإن جميع الأسباب تجتمع لحب المواطنين بعضهم لبعض، فالحب الذي يشعر به الإنسان تجاه نفسه وأهله وأقرانه يجتمع في الحب الذي يشعر به تجاه وطنه...» (Politique tirée de l'Ecriture Sainte, I, vi)، وهذا يؤكد عبارة سانت إيفرموند: «حب الوطن هو الحب الحقيقي للآخرين» ويبدو أن الكنيسة تفضل الاستمرار في تقديم الوطنية تحت هذا الجانب من الحب والذي سيسمح لها بتمجيد تلك المشاعر دون انتهاك مبادئ المسيحية، ولكن جاء أصحاب الواقعية ليذكروا الكنيسة بأن مفهوم الوطنية أشمل من الحب، بل يتضمن «حمل الكراهية للأجانب» (Maurras, Dilemme de Marc Sangnier) فمن سينقذنا من هؤلاء الذي يخبرونا بالحقيقة؟

وفي الآونة الأخيرة - تحديداً عندما عوتب البابا بيندكت الخامس عشر لأنه لم ينكر على ألمانيا أثناء الحرب الأخيرة غطرستها القومية - حدث أمر هو الأبرز في ذلك الوقت؛ أنْ ظهرت مدرسة في قلب الكنيسة تحاول إثبات أن هذه النزعة القومية تشير إلى طاعة البابا لتعاليم السيد المسيح، الذي دعا بوضوح إلى حب الإنسان لوطنه؛ وأود أن أتساءل: هل هناك ما يدل على عزم «المثقفين» المعاصرين على وضع سمعتهم وأعمالهم تحت هيمنة المشاعر السياسية أكثر من موقف رجال الكنيسة الذين جعلوا من المسيح رسولاً للقومية؟

لقد وصف هؤلاء المسيحيون أنفسهم بالكلمات الآتية:

«لم ينظر يسوع المسيح إلى خارج حدود وطنه بغرض منح عطاياه للأمم الأخرى، فقد قال للمرأة الكنعانية التي شفى لها ابنتها بعد إلحاحها: «لم أُرسل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة» (متى الاصحاح 15 - 24). وأرسل أول تلاميذه إلى بني إسرائيل، ولاحظوا كيف كان مصراً على ألا يذهبوا إلى أي مكانٍ آخر، «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى الاصحاح 10 - 6)، وسيأتي وقت لاحق ننقل فيه الأخبار الطيبة إلى الأجانب، ولكن علينا أن ننقلها إلى شعبنا أولاً، فهذا ما كان يقصده بهذه الكلمات المليئة بمعاني الوطنية والحب: «بيت إسرائيل»، هم جماعة من الناس يشتركون في الدم واللغة والدين ولهم نفس التقاليد ويتقاسمون «بيتاً» واحداً،

فهذه الخصوصيات القومية قسمت الكثير من الحدود»[37].

وقالوا أيضاً:

«إن أكثر ما تميز به يسوع عندما وافق على دفع الجزية لقيصر روما ورفض الإكليل الذي قدمه له بعض الناس في الصحراء، لم يكن حكمته وعدله فقط، بل وطنيته، وأهم سمة لتعاليم المسيح هي الوطنية المطلقة...»[38]

ويستطيع القارئ، إن أراد، أن يبحث ويكتشف جمود الأدلة التي بنى هؤلاء المبشرون فرضيتهم عليها (أحد هذه الأدلة أن المسيح كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بعادات بلاده، ويظهر ذلك عندما قبل الختان بعد ثمانية أيام من مولده)، وما أريد أن أؤكده هو حرص هؤلاء المسيحيين على أن يصفوا معلمهم يسوع بأنه داعمٌ للغطرسة القومية، على الأقل في أيام حياته.

إن هذه الآراء بشأن موقف الكنيسة تجاه القومية تبدو لي وكأنها لم تتغير في التصريحات الأخيرة للكرسي البابوي فيما يتعلق بنمط القومية الفرنسية، وبالنسبة لهذه التصريحات فقد أدانت القومية التي تعادي المسيحية علناً (فهذه صورة استثنائية من القومية) ولم تنطق بكلمة لوم على الشعوب التي ترغب في

---

(37) A. Lugan, La grande loi sociale de l’amour des hommes, liv. ii, chap. iii

(38) Père Ollivier, Les Amitiés de Jesus, p. 142

إنزال أنفسها منزلة الأفضلية على غيرها ورفضها للمذهب العالمي (Universalism)، والسطور الآتية توضح تصريح أحد الأعضاء الرسميين للآراء البابوية رداً على أحد المنادين بالمذهب العالمي:

«حقيقي أننا جئنا كلنا من أب واحد؛ ولكن القدماء انقسموا في البدء ولم يجتمعوا مرة أخرى، تفرقت العائلات وتشتت شملهم؛ وبديهي أننا نحب تلك الأخوية بين الناس؛ ولكن هل كل من ماتوا هم آباءٌ لنا؟ هل جميعهم أحبونا؟ هل كافحوا واجتهدوا من أجلنا؟ عاش البعض منهم في الجانب الآخر من هذا الكون، بل عاشوا في عالم آخر إن صح القول؛ ظل البعض منهم يعادوننا، حتى وإن ساندوا أجدادنا، كان ذلك فقط من أجل الحماية أو زيادة ثروتهم من أجل غيرنا وليس لصالحنا، إذن، كيف نكون مدينين لهم؟ فلو كان الوطن متاحاً للجميع، فقد صار حانة وليس وطناً»[39].

من الواضح أنه يجب علينا أن ننظر بين هؤلاء الذين غادروا الكنيسة وسنجد كهنة مسيحيين ينشرون التعاليم الصحيحة لسيدهم المسيح، ويعلنون على الملأ: «إنجيل المسيح لا يعرف

---

(39) ذكر هذا الكلام في مقال بعنوان «Patrie» (Dictionnaire apologétique de la foi catholique) 1919، وسيلاحظ القارئ السمة العملية الغريبة في هذا المقال، والاتجاه لحب فقط من يقدمون لنا المنفعة.

وطناً بل يطمس حدود أوطان آبائنا»[40]

ويرفض «المثقف» المعاصر مذهب الاتجاه العالمي، وذلك لصالح الطبقة التي ينتمي إليها وليس من أجل مصالح الوطن فقط، وقد شهد هذا العصر مجموعة من الفلاسفة الأخلاقيين الذين صرحوا لطبقة البرجوازيين (أو الطبقات العاملة) أنهم يجب عليهم، بعيداً عن محاولات التركيز على تميزهم عن غيرهم والإحساس بسمو طبيعتهم البشرية، أن يمارسوا هذه العنصرية بحكمة ومن غير انتقاص، وأنه لا يسعى في الاتجاه الوطني إلا كل شريف ولا يرغب في الوحدة العالمية إلا كل ناقص وضعيف؛ ضعيف المكانة والعقل، ولا يخفى على أحد أن هذه الأفكار كانت بذرة كتاب تأملات في العنف (Réflexions sur la violence) الذي أثنى عليه رسل الفكر المعاصر، لقد كان موقف «المثقفين» المعاصرين تجاه الاختلافات الطبقية أكثر أهمية من موقفهم بشأن الاختلافات القومية وكان أمراً محدثاً في مواقفهم السياسية، وكي تتجلى لك نتائج هذه الآراء والكراهية الجديدة التي أضيفت للطبقات كي تمارس العنف ضد خصومها، ما عليك إلا أن تطلع على الفاشية الإيطالية عند الطبقة البرجوازية، وعلى البلشفية الروسية عند الطبقة العاملة[41].

---

(40) Loisy's Guerre et Religion، ومع ذلك يتحدث عدد من رجال الدين بنفس الطريقة؛ انظر (Le Christ et la Patrie, Guillot de Givry)

(41) نعلم أن الفاشية الإيطالية والبلشفية الروسية مستمدتان من =

ونرى مرة أخرى الواقعية تتوارى خلف ستار الكنيسة، فرأينا بعض الوعاظ الكاثوليك يبذلون غاية ما في الوسع ليثبتوا أنهم فقط يطبقون تعاليم الكنيسة عندما يحثون الطبقة البرجوازية، باسم الأخلاق، على إدراك قيمة الذات باعتبارهم أفضل من الطبقات الأخرى، والانغماس دينياً في إعلاء قيمة الصفات التي تناسب تلك الطبقة، وبخاصة ما قاله (جوهانيت) لتعزيز فكرة الخصوصية القومية(42).

من السهل علينا أن نوضح الغموض الذي بني عليه هذا الادعاء، فالواقع أنّ الكنيسة تعترف بالفروق الطبقية، فهي تحت

= مؤلف كتاب (Reflections on Violence)، فقد دعا إلى العنترية الطبقية بطريقة إنسانية، ولكن دون تصريح بتغليب مصلحة طبقة على أخرى، وفي دعوته إلى العنترية الطبقية هناك نوع من الحيادية محاطة بالعجرفة، هذا النوع الذي توارثه أتباعه.

(42) وحتى تعاليم المسيح يثبتون لأنفسهم أنهم يسيرون على نهجها؛ فيقول ر. جوهانيت «لقد حاولت أن أبين وجود قدر كبير من تعاليم المسيحية لدى فئة البرجوازيين، عندما تكون خالصة، فمهاجمة البرجوازي، باسم المسيح، فقط لأنه برجوازي، تبدو لي مفارقة جريئة» ولكن هذا المؤلف لم يقتبس نصاً واحداً من الإنجيل، إلا بعض تفسيرات القديس توما الأكويني الذي مدحه على «مشاعر الحب الواقعية» وتجسيده لفكر المسيح عيسى، والعمل التالي هو أفضل مثال على رغبة «المثقفين» في احترام وتبجيل الروح العملية (النفعية)

On the subject of Christian doctrine in the matter of property, see Father Thomassin, *Traité de l'aumône*.

المؤمنين بالتعرف على هذه الطبقات المتدنية وتقديم الاحترام لها، كما فرضه الله علينا، وتحث أيضاً الأثرياء أن يقبلوا بهذا الوضع، ويمارسوا الأنشطة التي تتضمن هذه الأفعال، ويؤدوا «الواجبات التي تعينهم في الحياة»، كذلك أخبروهم أن هذه الممارسات يرضى لها الرب بل وهي كالصلاة يتقربون بها إليه، ولكن الكنيسة لم تحثهم أبداً على أن يتفاخروا بهذه الفروق، فضلاً عن أنها تفعل ذلك باسم الأخلاق؛ وعلى العكس، فقد دعتهم باسم الأخلاق (في ظل هذه الحياة المترفة) إلى الإيمان بأفضلية جوهر الأشخاص، وأن علياء الذات تكون بالإنسانية التي يتقاسمها جميع البشر رغم تباين الطبقات وظروف الحياة[43]؛ فالمسيح يقبل الإنسان الذي يدعو إلى التصالح والتسامح، كما تقول الكنيسة علناً وبصفة مستمرة، أي الإنسان الذي يطرد من قلبه أي شعور بأنه أفضل من غيره (راجع **موعظة** بوسويه عن التصالح)، إذاً أرى أنه لا ليس ضرورياً الإصرار على سمات تلك التعاليم المسيحية - وأتحدث هنا عن التعاليم وليست الممارسات، ولكن لا أحد يستطيع أن يتخيل الرغبة الجامحة للعديد من وعاظ الكنيسة في المحاولة لإيجاد بعض الوسائل لتقديس الغطرسة البرجوازية بواسطة آيات الإنجيل[44].

---

(43) قد يقال إن البرجوازية في اللاهوت المسيحي وظيفة وليس طبقة.

(44) المهمة الأساسية للكنيسة في هذا الشأن تتضح في السطور الآتية: «ينظر ماليبرانش دائماً، مثل بوسويه، إلى الظلم الاجتماعي وعدم المساواة على أنهما نتيجتان لتفشي الخطيئة في المجتمع، =

لعل من الأهمية بمكان أن أشير إلى شكل آخر ومهم من أشكال تمجيد الخصوصية القومية لدى «المثقفين»، ألا وهو تمجيد الأنظمة الخاصة للأخلاق ونبذ الأخلاق العالمية؛ ففي نصف القرن المنصرم كان من تعاليم إحدى المدارس بأكملها، ليس فقط من أصحاب الفعل ولكن من الفلاسفة البارزين، أن الشعب يجب أن يصوغ مفهوماً حول حقوقه وواجباته وذلك بدراسة موهبته الخاصة وتاريخه وموقعه الجغرافي وظروفه الخاصة التي قد يقع فيها، وليس بما يسمى بضمير الإنسان في كل مكان وزمان، إلى ذلك، دعت نفس المدرسة إلى أن الطبقات عليها أن تؤسس لها ميزاناً للخير والشر، والظروف الخاصة التي تحيط بها، وأن تزيل من أمامها المشاعر التي تسبب لها إعاقة مثل «العدالة المجردة» و «الإنسانية المجردة» وأي أخلاق عامة تنتمي «للعادات والتقاليد»، ونشهد هذه الأيام، مع وجود باريس (Barrès) وموراس وسوريل وحتى دوركهايم (Durkheim)[45]، إفلاساً حقيقياً بين «المثقفين» من

= لذا ينبغي تحمل هذا الظلم، إذ يتوافق السلوك الخارجي مع هذه الخطايا . . . . فيجب ألا نحاول التخلص من هذا الظلم حتى لا ينزعج السلام العالمي بهذه المحاولات، وقد لا تنجح في النهاية، وفي داخلنا علينا ألا نولي أي اهتمام بهذه الظروف والأحوال، ذلك بأن الحياة الحقيقية لن نجدها هناك (H. Joly, *Malebranche*).

(45) أما العلاقة بين نظريات دوركهايم ونظريات هؤلاء التقليدين الفرنسيين، فيمكنك الاطلاع على: D. Parodi, La Philosophic contemporaine en France

الروح التي بحثت عن مفهوم الخير في قلوب الناس البريئة والمعطاءة، منذ أفلاطون إلى كانط، ويثبت نموذج ألمانيا عام 1914 نتائج تعاليم مثل هذه المدارس التي تثني على جماعة من الناس منحوا أنفسهم طلاقة الحكم على أخلاقهم وسلوكياتهم، وتقديس شهواتهم التي أدت إلى تبرير العنف وهدوء البال عند تنفيذ مخططاتهم، وربما نرى يوماً ما نفس الشيء في أوروبا بأكملها متمثلاً في الطبقة البرجوازية، ما لم تنقلب عقيدة هذه الطبقة ضدها ونرى البديل في الطبقات العاملة[46].

ولا أستشعر الحرج عندما أقول: إن غضب بعض الفلاسفة الأخلاقيين الفرنسيين على ما فعلته ألمانيا عام 1914 أمر يثير دهشتي، فإذا عدنا ستة عشر عاماً إلى الوراء، في الحقبة التي وقعت فيها «قضية دريفوس» المشهورة، كان هؤلاء الفلاسفة الأخلاقيون يدعون أبناء وطنهم إلى نفس الأفكار، فيحثونهم على رفض مفهوم العدالة المطلقة، إلا إذا كانت تلك

---

(46) «ألمانيا لها الحكم المطلق على النهج الذي تسير عليه» (Major von Disfurth, November, 1914)، فيبدو أن فلسفة القومية عند الفلاسفة الأخلاقيين هي في الأساس ألمانية، أليس من اللافت للنظر أن هيجل وزيلر أرادا أن يثبتا بأي ثمن أن أفلاطون في كتابه «الجمهورية» عرف المدينة الفاضلة بأنها تصلح فقط لليونانيين، وليس لبقية الشعوب؟ (P. Janet, Histoire des idées politiques, tome 1, p. 140).

العدالة في صالح «فرنسا»، ومكرسة لعباقرتها وتاريخها واحتياجاتها الدائمة[47]، واحتراماً لهؤلاء المفكرين - وأقصد احترام ثباتهم - أود أن أقول: إن هذا السخط على ما حدث عام 1914 لم يكن نابعاً من مبدأ أخلاقي، بل فقط كانت رغبتهم في إنزال عدو أمتهم منزلة المذنب أمام العالم الساذج.

وصفوة ما انتهيتُ إليه أن عمل «المثقفين» المذكور آنفاً يوضح إصرارهم على خدمة مشاعر الدنيويين وخبرتهم في ذلك؛ فإذا ما هم دفعوا أبناء وطنهم إلى تبني السلوكيات الأخلاقية الخاصة بهم فقط ورفض أي أخلاقيات عالمية، فهم بذلك يظهرون في صورة المشجع على الرغبة في التميز عن غيرهم من الأمم، وأقصد بذلك فن تطور المشاعر القومية لديهم، على الأقل في جانب واحد فقط، ولا شك أن الرغبة في تفويض شخص واحد بالحكم على أفعال شخص آخر واحتقار آراء الآخرين تمثل مصدر قوة لأي أمة، كما أن أي محاولة للتباهي والفخر تُعد مصدر قوةٍ لأي كيان، يقوم مبدؤها الأساسي على

---

(47) كتب باريس عام 1898: «لا يزال العلماء يختلفون حول مفهوم العدل والحقيقة، عندما يدرك كل إنسان يحترم ذاته أنه يجب أن يقيد التساؤل حول العدل بين رجلين محددين، في زمنٍ معين وفي ظروف خاصة»؛ وهذا ما قالته ألمانيا حرفياً عام 1914 رداً على من وجهوا لها اتهامات، ولن تجد واحداً من الفلاسفة الأخلاقيين في فرنسا قبل باريس - حتى دي ميستر أو بونالد - قال بأن إنساناً يحترم ذاته لا يرى العدالة إلا في ظروف خاصة.

تأكيد الأنا ضد العالم الخارجي - مهما قيل عكس ذلك، وليست «الغطرسة العنيفة» هي ما أدت إلى انهزام ألمانيا في الحرب الأخيرة (الحرب العالمية الأولى)، كما أكد ذلك بعض المنظرين الذين قرروا بأن روح الضغينة يجب أن تكون عنصراً من عناصر الضعف في الحياة العملية، بيد أن الحقيقة هي أن قوتها المادية لم تضاهِ غطرستها، فعندما تجد الغطرسة قوة مادية مكافئة في نفس المستوى، فإنه أبعد أن تسقط الدول؛ والشاهد على ذلك روما وبروسيا تحت حكم بسمارك، فالمثقفون الذين حرضوا فرنسا منذ ثلاثين عاماً على أن يكون لها الحكم المطلق على أفعالها الخاصة بل احتقار أي أخلاقيات دائمة، قد أظهروا أنهم يدركون تماماً المصالح القومية، باعتبار أن المصلحة هي أمر واقعي بالكلية ولا تستطيع فعل شيء تجاه المشاعر المجردة، ولا أعلم ما إذا كانت مهمة «المثقفين» هي خدمة هذا النوع من المصالح أم لا.

ولم يقف «المثقف» المعاصر في وجه الأخلاق العالمية فقط من أجل احتقار البشرية، ولكنه فعل ذلك أيضاً مع الحقيقة العالمية، وهنا تظهر موهبة «المثقفين» الإيجابية في جهودهم لخدمة مشاعر الدنيويين، فالواضح أن الحقيقة تمثل عائقاً كبيراً أمام هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في منزلة أعلى من غيرهم؛ ومنذ اللحظة التي قبلوا فيها الحقيقة، أدانتهم الحقيقة بسبب شعورهم بالتعالي على كل ما هو عالمي، وتأمل مدى سعادتهم عندما علموا أن الحقائق العالمية محض وهم، ولا يوجد إلا

الحقائق الخاصة، مثل «حقائق مدينة لورين وحقائق بروفينس وحقائق بريتاني، وتوافق هذه الحقائق على مدار قرون عديدة قد صنع ما هو نافع ومقدس وحقيقي في فرنسا»[48] (وعلى نفس الوتيرة تتحدث جارتها عن كل ما يتعلق بحقيقة باللغة الألمانية)، وعلى الجانب الآخر يُنظر إلى باسكال أن لديه عقل مهرج، وما هو صواب على أحد جانبي جبال البرانس قد يكون خطأً فادحاً على الجانب الآخر! وتسمع الإنسانية نفس التعاليم بشأن الطبقات وتعلم أنه يوجد حقيقة برجوازية وحقيقة خاصة بالطبقة العاملة؛ أو قل كما تشاء، إن وظيفة عقولنا يجب أن تختلف وفقاً لكوننا برجوازيين أو من العمال؛ ويخاطب سوريل الطبقات العاملة قائلاً لهم: إن مصدر مشاكلكم أنكم لا تفكرون بالطريقة العقلية التي تناسب طبقتكم، ونفس الشيء يقول به مذهب جوهانيت لطبقة الرأسماليين، وربما سنرى آثار ذلك الفن الراقي للمثقفين في إثارة مشاعر علو الذات بين الطبقات.

إنّ تقديس كل ما هو قومي واحتقار أي شيء عالمي ما

---

(48) L'Appel au Soldat، قارن ذلك بالتعليم الفرنسي التقليدي، الذي يدعي باريس بأنه الوريث له: «مهما كان بلدك، فعليك أن تؤمن بما تريد أن تؤمن به إذا كنت في بلد آخر، (Logique de Port-Royal, iii, xx.) ولا ينبغي لنا أن نعتقد بأن مذهب الحقائق القومية يهدف فقط إلى حقيقة أخلاقية، فبعض المفكرين الفرنسيين قد اشتاطوا غضباً في الفترة الأخيرة لأن أفكار أينشتاين قد لاقت قبولاً عند أبناء وطنهم من الفرنسيين.

هو إلا انعكاس للقيم التي يتميز بها مذهب «المثقفين» المعاصرين الذين نشروا هذه المذاهب في مجال الفكر أكثر منه في السياسة، إن علوم الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) التي تبناها أثناء العشرين عاماً الأخيرة هؤلاء المفكرون أو الذين يدّعون الفكر، قد أُسست على أنها حالة عليا للوعي الإنساني، تلك الحالة التي - «على المدى الطويل» - نجحنا في إدراك قيمة أنفسنا على المستوى الفردي، مميزين عن أي شيء إلا أنفسنا، وتجاهلنا تماماً الأنماط الفكرية (المفهوم والمنطق وسلوكيات الكلام) التي من بواسطتها فقط سنصبح على وعي كامل بأنفسنا فيما هو مشترك بيننا وبين الآخرين، وتمثل الميتافيزيقا صورة سامية من صور التعرف على العالم الذي يتناول كل شيء فريد من نوعه ومميز عن غيره، ومليء بمشاعر الاحتقار تجاه العقل الذي يسعى إلى اكتشاف الحالات العامة للبشرية، وقد شهد عصرنا واقعة غير معروفة حتى الآن، على الأقل من وجهة نظري؛ وهي أن الميتافيزيقا تدعو إلى توقير ما هو مميز ومختلف ورفض كل ما هو دائم (الروحانيات)[49]، وعلى

---

(49) إن هذا الاحترام والتبجيل لفكرة التميز والاختلاف كان لأجل مصالحهم؛ أو بمعنى آخر خطوة نحو الخلود الروحاني، وقد أوصى لايبنتس وسبينوزا بالتعرف على «الأشياء الغريبة»، أما رينوفير بوصفه معادياً لمفهوم معين من العالمية، فلم يستخدم قيمة فلسفية للتعرف على «الغريب والمميز في الأشياء»

See G. Seailles, "Le Pluralisme de Renouvier," Revue de Metaphysique et de Morale, 1925.

الإجمال: لا شيء يوضح مدى رغبة «المثقف» المعاصر في احترام الجانب العملي والواقعي للحياة، ورفض الجانب المثالي والميتافيزيقي الحقيقي، ففي تاريخ الفلسفة جاء تقدير الفرد من المفكرين الألمان (شليجل وفيشته ولوتسه)، في حين أن العقيدة العالمية التي تتبناها الميتافيزيقا (التي رُفضت كما رُفض العلم التجريبي) هي ميراث يوناني للعقل البشري، ومرة أخرى، إضافة إلى الجانب الأعمق للمثقف المعاصر، فإن مذهبهم يظهر انتصار القيم الألمانية وسقوط الحضارة اليونانية في العصر الهلنستي.

وأود أن أشير هنا إلى صورة أخرى، ليست أقل شأناً، والتي يتناولها «المثقفون» المعاصرون عند نشر مذهب الخصوصية القومية، وأعني مذهبهم الذي يدعو إلى الاهتمام بأي شيء موجود في الوقت الحالي فقط، أي الذي يكوّن حالات خاصة متتابعة، مثل «التحول» و «التاريخ»، وليس أبداً الذي يقدم حالة من الاستمرارية عبر الزمن في ظل سلسلة من الحالات المتميزة، وأخص بالذكر هنا إصرارهم على أن النظر في هذه الأمور من وجهة نظرهم التاريخية هي الرؤية الفلسفية

= كذلك لم يوافق على ميثاق الميتافيزيقا الحديثة: «إن اختلاف هؤلاء الفلاسفة منذ عهد سقراط حول رفض ما هو خاص والميل نحو التعرف على الأشياء العامة هو ما يستحق التأمل، لذا يجب ألا يكون احترام المعرفة قائماً على معرفة الحقائق الثمينة، وهل هناك حقيقة ثمينة ليست مادية أو فردية؟» (وليام جيمس).

والمهمة فقط، وأن ضرورة النظر إليها من منظور الأبدية ما هو إلا كعبث الأطفال مع الأشباح، فلا تملك إلا أن تبتسم لهم. وغني عن البيان أن هذه التصورات تلهم كثيراً من أنصار الفكر الحديث، فنجدها بين فئة كبيرة من النقاد الأدبيين الذين اعترفوا بأنهم يسعون إلى الناحية الجمالية في أعمالهم أكثر من التعبير عن التطلعات «الحالية» «للروح المعاصرة»[50]، وربما نجد داخل مدرسة كاملة من المؤرخين الأخلاقيين الذين ينجذبون نحو مذهب ما لأنه فقط يجسد أخلاقيات عصره والروح العلمية لهذا العصر، لا لأنه يحقق العدل والخير؛ (وهذا هو السبب الرئيس الذي جعل سوريل يعجب بنظريات برجسون، ويعجب نيتشه بفلسفة نيقولاس الكوزاني)، ولعلنا نرى ذلك على وجه الخصوص عند علماء ما وراء الطبيعة، فلما طرحوا نظريات مثل **التطور** أو **الزمن** أو **التطور الخلاق** أو **التعددية** أو **التجربة المتكاملة** أو **العالم الملموس***، إذا بهم يعلموننا أن الثابت يتطور عبر الزمن وحسب الأحوال، وينادون بسقوط هذا النوع من العقل الذي ساد منذ أفلاطون إلى كانط مقدساً الوجود المتصور بلا تغيير[51]. وإذا افترضنا، مع فيثاغورس، أن الكون

---

(50) رأي أدبي مهم أنكر مؤخراً على أحد النقاد (بيير ليسر) عدم قدرته على فهم «الأدب المعاصر».

* Entwickelung or Duration or Creative Evolution or Pluralism or Integral Experience or the Concrete Universal

(51) ليس غريباً أن نجد الميتافيزيقيا التاريخية عند الشعراء؛ فكلنا =

هو محور الحياة المنظمة والموحدة، وأن أورانوس* هو مكان التحول والانتقال، حينها يمكننا القول بأن علماء ما وراء الطبيعة المعاصرين يضعون أورانوس في قمة ميزان القيم ويعدون الكون ذا قيمة مهملة، فمن الواضح أن «المثقفين» حتى عندما يمارسون مهنة ما وراء الطبيعة، يعلمون الدنيويين أن الواقع هو ما يستحق الاهتمام وأن ما وراء الواقع يستحق السخرية[52].

= يعلم مذهب كلوديل المسمى «اللحظة الحالية» (لأنها تختلف عن باقي اللحظات فهي ليست من الماضي)؛ وريمبو قبل أن يقول: «على الإنسان أن يكون مواكباً للعصر»، وعند بعض رجال الدين أو المثقفين فالعقيدة الدينية صالحة فقط للزمن الذي تنتسب إليه، وأكرر بأن تلك الخصوصية القومية قد بدأها الألمان؛ يقول شليرماخر: «لا يوجد تفسير ثابت للأخلاق عند الكنيسة المسيحية في كل عصورها؛ فكل واحدة لها قيمتها الكاملة والمتكاملة للزمن الخاص بها»، وكي تتعرف على القومية الألمانية وتحولاتها في هذا الصدد انظر:

(Parodi, le Problème moral et la Pensée contemporaine)

* في الميثولوجيا الإغريقية إله السماء

(52) إن هذه الآراء حول مذهب الخصوصية القومية الحديث لا أراه قد ضعف بظهور المدرسة الفلسفية الحديثة (Neo-Thomism) والتي تقارن مذهب الكينونة بمذهب الصيرورة؛ فوفقاً لآراء زعماء هذه المدرسة فمن الواضح أن الجنس البشري ينتمي فقط، رغم الدعوات الإنسانية، إلى سلالته والجماعة التي هو منها، ولكن في هذه الحالة الجماعة أوسع وأشمل من الأمة، ويقولون مثل ما قال المسيحي في القرن الثاني: «نحن بشر والآخرون خنازير =

2 - «المثقفون» يشيدون بالانتماء إلى الحياة المادية وينكرون حب الروحانية

وما زال «المثقفون» يستخدمون أفكارهم في تحريك واقعية الدنيويين (رجال السياسة وأنصارهم) بطرق شتى إلى جانب تمجيد القومية ورفض العالمية، فقد وضعوا في أعلى مستوى للقيم الأخلاقية امتلاك المزايا الملموسة والقوة المادية ووسائل تساعدهم على تحقيق مرادهم؛ فقد وقفوا ينبذون أي سعي وراء المكاسب الروحانية الخالية من أي قيم مجردة غير مادية.

أولاً وقبل كل شيء، يعود ما يفعلونه إلى أسباب تتعلق بالدولة؛ فلمدة عشرين قرناً نشر «المثقفون» في جميع الأوساط أن الدولة يجب أن تكون عادلة، أما الآن فهم ينادون بأن تكون الدولة قوية ولا تبالي بشيء عن العدل (تذكر موقف المفكرين الفرنسيين تجاه قضية دريفوس)، وإيماناً منهم بأن قوة الدولة تقوم على السلطة؛ فقد دافع هؤلاء «المثقفون» عن الأنظمة الاستبدادية والحكومات الدكتاتورية وأهداف الدولة والأديان

= وكلاب»، كذلك ينبغي أن أنظر اعتباراً إلى الخصوصية القومية التي يدّعي أصحابها بأن عملهم هو من أجل الإنسانية، ويرون أن الفئة المنتمين إليها تمثل العالم؛ «أنا روماني، فأنا إنسان» (موراس)، «أنا جرماني، فأنا إنسان» (فيشته) وهكذا.....، وبهذا توضح هذه الادعاءات المكانة الأخلاقية لهذا العالم مع المذاهب المتعددة.

التي تدعو إلى الخضوع للسلطة، ولكن لم يرفضوا كل المؤسسات التي تدعو إلى الحرية والتعبير (بالقدر الكافي لهم)[53]، إن نبذ الليبرالية، لا سيما من الغالبية العظمى من الأدباء، سيكون أحد عجائب هذا العصر في التاريخ كله، خاصة من جانب فرنسا؛ فلما كانوا مغرمين بالدولة القوية، نراهم يمدحون الدولة التي انتهجت الطريقة البروسية، حيث لكل منهم منصباً ويأخذ أوامره من الذي يعلوه مركزاً، والجميع يعمل من أجل مجد الأمة، دون أن يتركوا مساحة للرغبات الفردية[54]، كذلك أرادوا للقطاع العسكري أن يهيمن على

---

(53) رأينا أكثر المفكرين الليبراليين في التاريخ يعترفون بضرورة الخضوع والاستسلام للحكم السيادي؛ فيعلن سبينوزا أنه «لا تنجح الحكومة إذا دافع كل فرد عن حقوقه وحقوق الآخرين»، وتضمنت «خطابات ديكارت» نصوصاً لصالح «أهداف الدولة»، وقال أنصار الملكية في فرنسا قديماً إن العدل هو الوظيفة الرئيسة للحاكم؛ فيقول أحد المنظرين «من أهم حقوق الملك أن يضع القوانين والتشريعات العامة في المكان الملائم لمملكته» (Guy Coquille, Institution du droit des Français, 1608)

ويبدو أن أنصار الحكومات المعاصرين، وحتى الفرنسيين منهم، قد استلهموا هذا الفكر من المفكر الألماني الذي قال: «للدولة مهمتان: تحقيق العدالة وشن الحروب، ولكن الحرب بقدر كبير هي الأهم» (ترايتشكي).

(54) بشأن مذهب «النموذج البروسي» حتى بين «المثقفين» الإنجليز، انظر:

(Elie Halévy, Histoire du Peuple anglais, Epilogue, livre ii, ch. i)

الدولة، ويطالبون بحقه في أي امتيازات، بل يناشدون القطاع المدني أن يوافق على هذا الحق؛ وذلك نابعٌ من مذهبهم الذي ينادي بالدولة القوية (وأسباب أخرى سأذكرها لاحقاً) (انظر كتاب «*L'Appel au Soldat*» وتصريحات العديد من الكتّاب بشأن قضية دريفوس)، وليس غريباً أن نرى رجال الفكر في أيامنا هذه يحقرون من شأن التوجا* أمام السيف، خاصة في بلد يضم مونتسكيو ورينان، ثم بعد ذلك ينادون بالدولة القومية ونبذ العدل، وأن تكون فوق الجميع في علاقاتها مع الدول الأخرى، وتحقيقاً لهذا الغرض نراهم يسبحون بحمد رئيس الدولة ويشيدون بإرادته في مساعي المجد والعظمة، ورغبته في إقامة «حدود قوية»، وجهوده في أن يقع جيرانه تحت هيمنته، بل يمجدون الوسائل التي من شأنها ستحقق هذه الأهداف وفق رؤيتهم، ومن هذه الوسائل: العدوان المفاجئ والخداع وسوء النية وعدم احترام المعاهدات، إن هذه المبررات المكيافيلية قد ألهمت جميع المؤرخين الألمان في نصف القرن المنصرم، وفي فرنسا درسها كثير من التربويين المؤثرين ممن ينصحون فرنسا بتأليه ملوكها لأنه من المفترض أن يكونوا نماذج للروح المادية البحتة، إلا أنها لا ينبغي أن تقدم الاحترام لأي عدالة سخيفة في علاقاتهم مع جيرانهم.

---

* التوجا هي ملابس يونانية - رومانية والكاتب يقصد هنا ملابس تمثال سيدة العدالة التي تحمل بيدها سيفاً واليد الأخرى ميزاناً.

ويمكننا توضيح هذا التجديد في موقف «المثقفين» باقتباس رد سقراط المشهور على الواقعية عند جورجياس:

«لقد أثنيتم على شخصيات مثل ثيموستوكليس وكيمون وبيركليس، الذين قدموا لأبناء وطنهم السعادة، وتوفير كل شيء يرغبون فيه دون أن يهتموا بتعليمهم كيف يميزون الطعام الخبيث من الطيب. ثم يتوسعون في الدولة، فيهتف أبناء أثينا، ولكنهم لا يعلمون أن هذا التوسع ما هو إلا ورم خبيث يفسد الدولة، وكل ما حققه هؤلاء السياسيون السابقون أنهم شغلوا المدينة بالموانئ ومستودعات الأسلحة وبناء الأسوار وفرض الضرائب وما إلى ذلك من الرعونة والعنترية، ولم يقدموا أي شيء من العدالة أو التسامح».

ويمكننا القول بأن الدعوة إلى الجانب الروحي في هذه الكلمات قد تبناها حتى وقتنا هذا، نظرياً على الأقل (وهذه هي النظريات التي أتناولها هنا) هؤلاء الذين قدموا إلى العالم مقياساً للقيم، إما عن طريق الكنيسة أو في عصر النهضة أو في القرن الثامن عشر، وتستطيع أن تتخيل الضحكة الساخرة لفيلسوف مثل باريس أو أي من دعاة الأخلاقية الإيطاليين (في حديثهم فقط عن العرق اللاتيني) عندما يقللون من شأن تأثير المكاسب التي تتحقق من العدالة، والطريقة الحازمة التي كان سقراط يحكم بها على هؤلاء الذين صنعوا لأمتهم قوة مادية، ويرى سقراط أن النموذج المثالي لـ «المثقف» المخلص لواجبه الحقيقي هو الذي ينظر إلى التوسعات والموانئ ومستودعات

الأسلحة وبناء الأسوار على أنها «رعونة»، وأن التسامح والعدالة هما من الأمور التي تستحق الاهتمام والجدية، ويرى هؤلاء الذين يجب عليهم اتباع آراء سقراط أنه من العدل أن نصف سقراط بالأحمق - «غامض» - وإنما الأمور الجادة هي صناعة الأسلحة وبناء الأسوار، فاليوم صار «المثقف» وزيراً للحرب، إضافة إلى ذلك فقد اتفق أكثر الأخلاقيين المعاصرين تبجيلاً مع القضاة الذين أدانوا سقراط، وكأنه حارس أمين للمصالح الدنيوية[55]، لذا لن تسمع من الذين يدرسون النفس البشرية عن الليلة التي أغمض فيها كريتو (صديق سقراط) جفني معلمه.

ذكرتُ أن «المثقفين» المعاصرين قد نادوا بالدولة القوية وعدم الالتفات إلى أي شيء مقترن بالعدل؛ والحق أن «المثقفين» قد منحوا هذا البيان صفة الوعظ والتعاليم الأخلاقية، وفي أحيانٍ كثيرة لا أستطيع أن أجزم بأن هذا نابع من وجدانهم الخاص، فعندما أشار مكيافيلي على الأمير تنفيذ خطة العمل المكيافيلية، لم يضف إلى هذه الأفعال أي نوع من الأخلاق أو الجمال، فالأخلاق عنده تظل كما هي عند الآخرين ولا تفنى؛ لذلك هو يرى أنها لا تتوافق مع السياسة، ويقول مكيافيلي: «على الأمير أن يكون دائماً لديه استعداد واضح لفعل الخير، ولكنه يجب أن يكون قادراً على الخوض

(55) Sorel, Le procès de Socrate

في الشر عندما يضطر إلى ذلك»؛ وبذلك يظل الشر في رأيه شراً، حتى وإن كان يخدم السياسة، وأنصار الواقعية الحديثة هم دعاة أخلاقيات الواقعية؛ يرون أنه من الأسباب التي تجعل الدولة قوية هي أنها تتظاهر بسمات الأخلاقية لأنهم هم من يفعلون ذلك لا شك، وهذا هو السبب الذي يتحدثون عنه؛ فأعمال الشر التي تخدم السياسة والسياسيين تصبح حينها أعمالاً للخير لا للشر، والدليل على هذه الحالة هيجل ورابطة الشعوب الجرمانية والأديب الفرنسي باريس؛ ولكن تضعف هذه الحجة عند موراس ومريديه، مع تصريحه بأنه لا يدعو إلى الأخلاقية.

وربما لا يدعو هؤلاء المفكرون إلى مبدأ الأخلاقية، على الأقل بصورة علنية، فيما يتعلق بالحياة الخاصة، ولكنهم يدعون إليها بشكل واضح في السياق السياسي للأمور إذا كانت الأخلاق معنية بكل شيء يشمل ميزان الخير والشر، وهم يرون مثل هيجل، أن الجانب الأخلاقي في السياسة يعني المبدأ العملي (المادي)، وإذا نادى بقيمة العالم بأن الأخلاق تنافي الحياة العملية، فهي إذاً غير أخلاقية، وهذا هو المعنى الحقيقي لحملة «الوطنية الزائفة»، وفي هذا السياق يرى موراس أن الحياة العملية شيء مقدس وأن تعريف «الإلحاد» يكمن في إنزال الإله منزلة الإنسان مع أعماله السياسية أكثر منه في إنكار وجود الله، لذا رأيت أن أفضل وصفٍ لأعمال هذا الكاتب أنه

مقدِس السياسة[56] وخلاصة القول: إن فصل الأخلاق عن السياسة هو أكبر إنجاز حققه «المثقفون» المعاصرون لا شك، وكان أكثر ما استرعى انتباه المؤرخين أيضاً، والحق أن نقطة التحول الكبرى في تاريخ الإنسان عندما جاء المتكلمون باسم الفكر التأملي وأخبروه بقدسية التجبّر السياسي، وأي شيء يحول بينه وبين مراده هي محاولة بائسة، إن آثار تلك الأفكار كانت واضحة في المثال الذي ضربته ألمانيا عام 1914[57].

ويمكن ملاحظة المدى الذي وصل إليه «المثقفون» المعاصرون في التجديد الفكري في الواقع الذي يوضح أن

---

(56) ويتضح هذا عند كل حماة الدين الذين أنكروا ذلك الأمر، مهما كانت دوافعهم؛ فموراس جعل مشاعر الفرد في البحث عن مفهوم الدولة (أو دعمها) هدفاً للعبادات الدينية؛ فهو عمل دنيوي يراد به آخر روحي، ويقول موراس: «خلق الله الناس أجمعين؛ فأباح لنا أن نقدس أنفسنا كي نكون عظماء لا لنكون صالحين؛ فأظهر لنا الكمال في الدنيا، على الأرض وليس في السماء»، وهكذا كانت آراء نيتشه حين قال: «كن وفياً للأرض».

(57) وتتجلى أخلاق مكيافيلي في السطور القادمة، إذ يدرك كل عقل كيّس تعاليم جميع فلاسفة الواقعية المعاصرين، باختلاف جنسياتهم: «وفي علاقاته مع الأمم الأخرى، لا ينبغي للأمير أن يلتفت إلى قانون أو حق، إلا حق الأقوى، فتلك العلاقات تضع بين يديه وتحت سلطانه حقوق القدر الإلهية وحكم العالم، وترفعه فوق تعاليم الأخلاق الشخصية وإلى درجة أخلاقية أعلى، فيقبل الشعب هذا الأمر بكلمة واحدة: سلامتكم عندي فوق كل شيء» (فيشته نقلاً عن أندلر في كتابه **أصول القومية الجرمانية**)

الإنسان حتى وقتنا هذا قد سمع بنوعين من التعاليم التي تخص العلاقة بين السياسة والأخلاق؛ أحدهما من أفلاطون الذين قال: «الأخلاق هي التي تحدد السياسة»؛ والنوع الثاني الذي أقره مكيافيلي قائلاً: «السياسة لا علاقة لها بالأخلاق»، أما اليوم فنجد النوع الثالث في قول موراس: «السياسة هي التي تحدد الأخلاق»[58]، ولكن التحول الحقيقي هنا ليس طرح الفكرة عليهم بل أن يقبلوها؛ فالفيلسوف اليوناني كاليكليس قال: إن القوة هي المبدأ الأخلاقي الوحيد؛ ولكن عالم المفكرين وقتها نبذوه، وأذكر أيضاً أن مكيافيلي قد تعرض لهجوم من أكثر المحيطين به من الفلاسفة الأخلاقيين في عصره، على الأقل في فرنسا.

ولا يزال العالم الحديث يصغي إلى صنفٍ آخر من الفلاسفة الأخلاقيين الذين يدعون إلى الواقعية، فوصل تأثيرهم على نطاق واسع، ألا وهم السياسيون، وبذلك أشير إلى نفس التغيير المذكور آنفاً، وكان زعماء الدول في الماضي يمارسون الواقعية، ولكن لم يعظموا من قدرها؛ فهذا لويس الحادي عشر وشارل الخامس ملك إسبانيا وريشيليو (Richelieu) ولويس الرابع عشر لم يزعموا أن أعمالهم كانت تأخذ الاتجاه

---

(58) وتتلخص أفكار هذا الكاتب حين قال: «إن الخير من وجهة نظر السياسة هو خير؛ ولا أعرف معياراً للخير غيرها»؛ وهذا جعله يقول إنه لا يتكلم في مسائل الأخلاق الخاصة.

الأخلاقي؛ فكانوا يلتمسون مبادئ الأخلاق على ضوء الإنجيل، ولم يحاولوا إزاحتها لأنهم لم يطبقوها في الأساس[59]، فقد انتُهكت الأخلاقية في عصرهم، ولكن ظلت الأفكار الأخلاقية سليمة؛ ولهذا السبب لم تمس حضارتهم بسوء رغم جميع الانتهاكات الحاصلة، أما موسوليني فقد نادى بالأخلاقية في سياسة القوة التي اتبعها، إلا أن أي شيء يخالف سياستها يعد غير أخلاقي، ورجل الحكومة الذي كان يتبنى مبدأ الواقعية، مثل الكاتب، صار الآن رسولاً للواقعية؛ وأن سمو مَهمته - إن لم يكن لذاته - تمنحه ثقلاً بصفته رسولاً للواقعية.

فالحاكم في عصرنا هذا عندما يتحدث إلى الجمهور يكون مضطراً إلى الظهور في صورة الحاكم الأخلاقي، وأن ترتبط أفعاله بالنظام الأخلاقي والميتافيزيقي والروحي، وريشيليو الذي قدم ولاءه للملك، كان يمتلك القدرة على التحدث بلغة

---

(59) أدرج ريشيليو في كتابيه (Testament politique) و (Mémoires de Louis XIV pour l'Instruction du Dauphin) قائمة الخير والشر بتوقيع القديس فنسنت باول؛ «وعلى الملوك أن يحذروا عند كتابة المعاهدات، وبعد كتابتها، يجب أن يلتزموا بها دينياً، أعلم أن كثيراً من السياسيين يفعلون خلاف ذلك؛ ولكن دون اعتبار أن العقيدة المسيحية قدمت لنا الضد لهذه المبادئ، وأؤكد أن ضياع الكرامة أكبر من فقدان الحياة بأكملها، فالحاكم عظيم الشأن هو من يعرض حياته للخطر بل دولته أيضاً ولكن لا يخون العهد، الذي لا يمكن أن ينتهك قواعده من غير أن يخسر شرفه وسمعته وبالتالي يفقد قوة سلطانه» (Testament Politique, part 2, ch. vi)

الواقعية تاركاً الرؤى الروحانية إلى الآخرين، أما موسوليني وبتمان هولفيغ وهيريوت (Herriot) فهم مدانون على هذا العلو والتكبر[60]، علاوة على ذلك، أن ما سبق يوضح مدى ضخامة عدد هؤلاء الذين أسميتهم «مثقفين» في هذه الأيام، هؤلاء الذين يخاطبون العالم بنبرة متعالية، ولهذا يحق لي أن أطالب أن يولوا اهتماماً أكبر بأعمالهم وتصرفاتهم بوصفهم «مثقفين».

إن دعاة الواقعية السياسية كثيراً ما يطالبون بأن تدعمهم الكنيسة في مواعظها، وإذا خالفت آراءهم يلصقون بها تهمة النفاق، فهذه المطالب كانت قبل القرن التاسع عشر لا تمت لمواعظ الكنيسة بصلة، ولكن أوجدت لها مكاناً في العصر الحالي، ولا أبالغ إن قلت إن أحداً لن يستطيع أن يجد الآن نصاً لأحد اللاهوتيين المعاصرين ينكر بشدة حرب عدوانية كالنص التالي:

«كم اتسمت حربه بالطغيان الجائر؛ تلك الحرب التي يخوضها فقط إرضاءً لطموحه ورغبته في اتساع ملكه وهيمنته على أراضٍ خارج حدوده الشرعية، حرب نابعة من رغبته في

---

(60) والأمر نفسه ينطبق على الكاتب؛ فمكيافيلي الذي كان يكتب من أجل أقرانه، لم يحزن كونه ليس من الفلاسفة الأخلاقيين، وموراس الذي كان يكتب للجمهور لم يفعل ذلك، ففي وجود الديمقراطية، لا أحد يكتب دون ثمن، يقول هيجل: «لا يوجد إصلاح سياسي ما لم يصلح الدين والأخلاق».

الاستحواذ على دولة أكثر اتساعاً حتى يؤسس لملك مديد، حرب نابعة من خوفه من صاحب دولة ذات قوة عظمى بينهما سلام تام، أو من رغبة في نهب خصم له فقط لأنه يعتقد أن ذلك الخصم لا يستحق مقدرات دولته التي يحكمها أو أي حق شرعي ينسب إليه، أو لأن أحد الحكام قد ضايقه فأراد أن يتخلص من تلك المضايقات بقوة السلاح»[(61)]. ومن جانب آخر نرى كثيراً من الأعمال هذه الأيام التي يلوون بها ألسنتهم ليجدوا تبريراً لكل فرصة للغزو؛ ومثال ذلك، الرأي الذي يقول بأن الحرب هي ضرورة لحماية المصالح المشتركة والاستقرار العام، واستعادة ما تم الاستيلاء عليه ظلماً وجوراً، وقمع المتمردين والدفاع عن المظلوم»[(62)]. وهناك رأي آخر يقول: «الحرب تلجأ إليها البلاد إما للدفاع عن نفسها أمام أي معتدٍ، أو إزالة أي عقبات تعوق ممارسة حقوقها»[(63)]، وكانت الكنيسة تقول في بداية القرن المنصرم إن الحرب لا يمكنها أن تحقق

---

(61) Dictionnaire des Cas de Conscience (1712)، محال أن تجد دولة أوروبية تبني مقاطعة لها بمثل هذه المبادئ الأخلاقية، فهذه التعاليم هي ذات طابع غير مادي أو دنيوي، وأقصد هنا أنها خرجت من مشكاة «مثقف» صادق، كذلك يرى المفكر فيتوريا أن التوسع في الإمبراطوريات ليس من العدل.

(62) تلك هي نظرية ألفونسو ليجوري (Alfonso Liguori) الذي سادت اليوم تعاليمه في الكنيسة على تعاليم فيتوريا.

(63) Cardinal Gousset, Théologie morale

العدل إلا لأحد المتحاربين[64]، ولكنها تخلت الآن عن هذا الرأي وصرحت بأن الحرب قد تكون عادلة لكلا الطرفين، «من اللحظة التي يرى أحد الطرفين أن الحرب محتملة بعد الاستعانة برأي مستشاره، دون أن يعلم يقيناً بحقه»[65]، وهنا يظهر شيء خطير: إذ كانت الحرب في الماضي تُشن على خصم قد تسبب في إحداث ضرر مادي مصحوباً بضرر أخلاقي، في حين أن الحرب تشن هذه الأيام فقط إذا كان الضرر مادياً وليس مصحوباً بغل أو حقد[66]، كالاعتداءات المفاجئة على الحدود،

---

(64) تلك هي عقيدة الحرب في الفلسفة المدرسية (السكولاستية) التي أسسها توما الأكويني؛ فحسب تعاليم هذه العقيدة، يتصرف الأمير (أو الشعب) عند إعلانه الحرب وكأنه حاكم مطلق الذي تقع تحت قبضته الدولة الأجنبية، ذلك بأن هذه الدولة قد ارتكبت جرماً وترفض الرجوع عنه أو إصلاحه؛ وهنا على الأمير (الحاكم) الذي أعلن الحرب أن يعاقب المخطئ إذا انتصر، ولا يحق له أن يحقق أي مكاسب شخصية من وراء هذا النصر، ولكن الكنيسة والمثقفين اليوم قد تخلوا عن هذه الأخلاق؛ انظر:
(Vanderpol, La Guerre devant le Christianisme, titre ix)

(65) ويتضح هذا عندما تبنى الفاتيكان هذا الرأي عام 1914 بشأن الحرب بين فرنسا وألمانيا، واستغلت ألمانيا ما أطلق عليه اللاهوت «الجهل الحتمي»، وهذا يعني أن الشخص يبذل غاية ما في الوسع ليكون قادراً على فهم خصمه، فيتراءى لمن عنده حسن نية أن ألمانيا لها الحق في ذلك.

(66) مثل النظرية التي تقول بأن الحرب عادلة للطرفين، وهذا المذهب الذي سار عليه مولينا (Molina) الذي استبدل عقيدة الفلسفة المدرسية (السكولاستية) بالتعاليم الكنسية فيما يهم مسألة قانون الحرب.

وبديهي أن نابليون وبسمارك قد يجدان في تعاليم الكنيسة اليوم دوافع لحروبهما أكثر من ذي قبل[67].

وقد دعا «المثقفون» المعاصرون إلى هذه الواقعية، يخاطبون الطبقات والأمم، الطبقات العاملة والطبقة البرجوازية: «أعدوا أنفسكم لتصبحوا أقوياء، ابحثوا عن القوة أو ابذلوا ما بوسعكم لتحفظوها إن كنتم تملكونها؛ وتجاهلوا أي محاولات لجعل علاقاتكم بالطبقات الأخرى مليئة بالخير والعدل وأي شيء من هذا ''الهراء''[68]، فقد خُدعتم طويلاً بهذا النوع من العلاقات»؛ إجمالاً، لم يقولوا: «كونوا كذلك لأن الضرورة

---

(67) في كتاب **المعجم اللاهوتي** (Dictionnaire théologique of Vacant Mangenot) 1922 في مقال «الحرب» وجدت النص الآتي، والذي أوصي به للمعتدين الراغبين في الاختباء تحت ظل سلطة أخلاقية رفيعة: «ليس من حق رئيس الدولة فقط أن يسير على هذا النهج (أي الحرب)، ولكنه واجب أيضاً فرض عليه لحماية المصالح العامة المسؤول عنها، ولا ينطبق هذا الحق والواجب على الحرب الدفاعية فقط، بل على الحرب الهجومية التي تضطر الدولة إليها بسبب ممارسات الدولة المجاورة التي تؤلف مؤامراتها خطراً حقيقياً»، وستجد في نفس المقال نظرية الحرب الاستعمارية التي تشبه نظرية الشاعر الانجليزي كيبلنج عندما سماها: عبء الرجل الأبيض (the whiteman's burden).

(68) ينسب هذا التعبير إلى سوريل، انظر: (Julien Benda, Les Sentiments de Critias) وأيضاً **تأملات في العنف**، الفصل الثاني: «إنكم لا تشجبون بقدر كافٍ هؤلاء الذين يعلمون الناس الامتثال لمعاني العدل السامية التي تسير بهم نحو المستقبل».

تقتضي ذلك» بل نصحوهم بشيء جديد فقالوا: «كونوا كذلك لأن الأخلاق والجمال يتطلبان ذلك؛ فدليل رفعتكم هو أن تكونوا أقوياء، أما العدل فمكانه بين السفهاء من الناس»، هكذا كانت تعاليم نيتشه[69] وسوريل التي أيدها جمعٌ من المفكرين (كما يطلق عليهم) الأوروبيين؛ هذا هو التعصب الأوروبي الذي

---

(69) وينبغي الذكر أنه في أثناء هذا العمل فإني أهتم بتناول تعاليم نيتشه (وهيجل أيضاً) بقدر اتخاذها حجةً لتعاليم أخلاقية عظيمة، ولكن أعلم يقيناً أن هذه التعاليم هي في الواقع أكثر تعقيداً، لذا اقتبست التعليق الحكيم الآتي الذي مفاده أن بعض الفلاسفة قد لاموا أنفسهم على «الفهم الخاطئ لفكرهم الحقيقي»:
«لقد خضعت فلسفة نيتشه لنفس الاختبار الذي خضعت له فلسفة هيجل، ولا شك أبداً أن الموضوعات الفلسفية تعمل بمثابة ذرائع لمنح غطاء لنوع جديد للعدوان من جانب الهمجية البربرية، **ولكن حقيقة استخدامها والطريقة التي استُخدمت بها لهما مغزى لا ينبغي التغافل عنه**، أليس من معايير الفلسفة التي يمكن أن نطلق عليها عقلانية دون تحفظ أو لَبس، أن تظل صادقة أمام ذاتها دون أن تتأثر بالفساد؟ ومن جانب آخر، **فالأنظمة التي تبدأ بقبول التناقضات، وتحتفظ بالحق في الرد بأنها قادرة على التغلب عليها أو «التعايش» معها، فإنها ستسمح للعدو بأن يقيم بينها**، فيكون عقاب تلك الأنظمة أن تناقضاتها ما زالت تتشابه معها؛ وهذا ما حدث مع نيتشه» (L. Brunschvicg, Le Progrès de la Conscience dans la philosophie occidentale)، ويحتوي هذا الكتاب على عرض ممتاز لموضوعات فلسفة هيجل (Hegelian themes) وموضوعات فلسفة نيتشه (Nietzschean themes)، خاصة وأنهما قد أصبحا مصطلحين سياسيين.

أنتجته الاشتراكية، أفكار ماركس التي احتقرت أفكار برودون (Proudhon)[70]، وقال «المثقفون» نفس الشيء للأحزاب المتصارعة داخل نفس الدولة؛ فقالوا لحزب أو أكثر، حسْب اتجاهات كل منهم: «كن أنت الأقوى، واطرح عنك كل ما يعيق مسيرتك؛ حرر نفسك من السفهاء الذين يحرضونك على التسامح مع غريمك وتأسيس نظام للعدل والتفاهم»، ونعرف جميعاً إعجاب الكثير من «المفكرين» في جميع البلدان بالحكومة الإيطالية لأنها اتهمت من يعارضها بالخارجين عن القانون، وحتى وقت قريب من هذا العصر كان هناك الكثير من أتباع أرسطو المهتمين بالنفس البشرية يدعون الناس إلى وصم أي دولة بأنها سيئة السمعة لأنها كانت عصبة واحدة، أما أتباع موسوليني وموراس فإنهم يقدرون تلك الدولة أحسن تقدير[71].

---

(70) انظر كتاب (تأملات في العنف) الفصل الخامس «أخلاقيات العنف»، قد يقول قائل بأن العدل الذي ينكره سوريل هو العدل الموجود في المحاكم، والذي يراه عدلاً زائفاً، «عدل بقناع قضائي»، لذلك ليس هناك ما يشير إلى أن العدل الذي كان حقيقياً سيحظى باحترام منه.

(71) لا يمكننا التشديد في هذا الصدد على بعض الفلاسفة السياسيين في دفاعهم عن التعصب، الذي يمارسونه بتعالٍ وتعصب، والذي لم يظهر حتى الآن إلا في بعض الأحيان لدى المكلفين بتوصيل الأديان السماوية، وذكر ج.جاي جراند في كتابه (الفلسفة القومية) مثالاً على ذلك، انظر أيضاً إحدى هذه الدفاعات في (L. Romier, Nation et Civilisation).

إن تعظيم «المثقفين» المعاصرين لهذه «الدولة القوية» قد ظهر أيضاً في بعض الأعمال الفكرية التي سيتعجب منها أسلافهم، على الأقل العظماء منهم:

(أ) **إثبات حقوق العادات والتاريخ والماضي** (كي يساندوا أنظمة القوة) في مقابل حقوق العقل، فأما حقوق العادات، فلم يقل التقليديون المعاصرون، كما قال ديكارت أو ماليبرانش من قبل، إن العادات هي أصل كل شيء وأفضلها، ومن الحكمة أن نتبعها بدلاً من أن نخالفها، بل قالوا بأن العادات والأعراف لها حقوق، بل كامل الحقوق، وبالتالي فينبغي احترامها ليس فقط من منظور المنفعة ولكن من منظور العدالة؛ لذا فإن الجدل حول «الحق التاريخي» لألمانيا في إقليم الزاس و«الحق التاريخي» في الملكية الفرنسية لا يعدان من المواقف السياسية بل من المواقف الأخلاقية، وطالبوا أيضاً بأن تقبل الأعراف باسم «العدالة الحقيقية»، التي يراها أعداؤها بأنها مفهوم خاطئ[72]، وقد ظهرت أعمال فكرية جديدة لتحديد مفهوم

(72) «لم يؤسس العلم الحديث، بما أنه مقياس للحقيقة، المطالب الاستنتاجية لفهمه ولكن أسس الوجود الفعلي للواقع» (بول بورجيه)، ويقصد بـ «الحقيقة» هنا الحقيقة الأخلاقية؛ أما الحقيقة العلمية فما هي إلا حشو زائد، و «الواقع» هنا هو الواقع الذي يناسب مشاعر المؤلف، وعندما علق هوسونفي (d'Haussonville) على كلام بورجيه بأن الديمقراطية واقع، بل واقع لا يمكن تجاهله، فكان الرد بأن هذا الرأي يعد «تحيزاً»، وفجأة تعلمنا =

العدل من «الواقع النافذ» خاصة بين هؤلاء الذين ظلوا لمدة عشرين قرناً يستمدون معنى العدل من أنصار سقراط، ومن المحتمل أن تكون الروح اليونانية قد حل مكانها الروح البروسية وسط علماء الإنسانيات، والفكر الذي أتحدث عنه هو فكر هيجل الذي قال: «العدالة العالمية تكمن في تاريخ العالم» (Weltgeschichte ist Weltgericht).

(ب) **تمجيد السياسة القائمة على الخبرة** - والتي نعني بها أن المجتمع عليه أن يخضع لمبادئ أثبتت قدرتها على تحويله إلى دولة قوية، وألا يخضع «لأوهام» من شأنها أن تحقق له العدل، وبهذا المعنى العملي نجد أن مذهب السياسة التجريبية هو أمر محدث بين «المثقفين»، فلو أننا نقصد بعبارة احترام المبادئ التي أثبتت أنها قادرة على أن تنشر العدل في المجتمع وليس أن يصير قوياً فقط، فإن اقتراح تلك السياسة في مواجهة السياسة العقلانية البحتة قد ظهر في العالم الفكري بفترة طويلة قبل تلاميذ الفيلسوف تين (Taine) أو أوجست كونت (Auguste Comte)[73]. وقبل زمن طويل من «فلاسفة التجريبية المنظمة»،

= أن «القوارب صُنعت لتسير عكس التيار»، وهذا بالضبط ما يقوله الثوار.

(73) عندما ظهر هذا الكتاب في إحدى الدوريات، قال بعض الأشخاص بأن هجومي الكامل على «المثقفين» المعاصرين ضاع هباءً لأني لم أوفر مساحة كافية لمؤلف كتاب أصول فرنسا المعاصرة (Origines de la France Contemporaine)، وقالوا بأنه =

أراد سبينوزا أن يكون علم السياسة قائماً على العلم التجريبي، وأن الظروف التي تعيشها الدول يجب أن تكون تحت الملاحظة والتجريب، على الأقل من الناحية العقلية (راجع هجومه على

= (إيبوليت تين) كان أعظم مثقف واقعي في الخمسين سنة الماضية، في حين كان هؤلاء الذين هاجمتهم كنجوم تدور حوله، ولكن يبدو لي أن (تين) هو أول فيلسوف واقعي معاصر لسببين: فأما الأول هو إنكاره لمذهب الفردية؛ بمعنى أوضح، إنكاره للحرية الأخلاقية للمواطن؛ أما السبب الثاني إنكاره للفكر المثالي أو الثقافة المثالية.

«في حواره اللاذع عن الروح الكلاسيكية والحقيقة الأولى للعقل والفلسفة التي توجه الثقافة الأدبية بكل أنواعها، يأتي (تين) ليستخدم كلمات مشابهة لتلك الكلمات التي قالها خصوم الأدب القديم، ومماثلة للأفكار العامة التي لا تنفصل عنهم، وأيضاً للثقافة المجردة، وكان الهدف الوحيد من ذلك هو إعداد الأفراد لفكرة العالم التجريبي والعملي، وأناس يتعلمون كيف يتعرفون إلى العالم كما هو، فيحافظون عليه كما هو الحال الآن؛ ولكن قوانين تلك المدرسة ما زالت حديثة فلا يستطيع أحد أن يلومهم على شرور هذا العصر، أو أن يلقي عليهم مسؤولية الكراهية والحقد المنصبين على المجتمع ممن يشعرون بالرتابة والوهن في طبقاتهم، وحتى لو أن المقارنة بين المبادئ العامة للعقل والأخلاق والجمال من ناحية، والحياة التجريبية العملية من ناحية أخرى قد سببت ضيقاً من الحقائق الواقعية أكثر مما سببه الماضي، فمن المفارقات البائسة أن نسعى لتجنب هذا الخطر بمنع تعليم كل المثالية والآراء الكلاسيكية الراقية»:

(Renouvier, Philosophie analytique de l'Histoire, tome iv, p. 541).

المثاليين في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة»، الفصل الأول) ولكنه تعلم من الملاحظة أن هذه الظروف لا تقوم فقط على امتلاك الدول لجيش قوي وشعب مطيع، بل على احترامهم لشعوبهم وحتى الشعوب المجاورة[74]، ويتبع مذهب السياسة التجريبية اليوم هؤلاء الذي يتبنونه بموقف فيه قوة وليس غير ذلك، كما أنهم صرحوا فيما يتعلق بالأمور السياسية «لا يهتمون إلا بالحقائق فقط»، رغم أننا جميعاً نعلم إلى أي مدى تُفهم الأمور المطلقة بجمود وتحجر وعدم يقين، ويظهر هنا نوع جديد من المذهب الرومانسي، خاصة بين المفكرين الفرنسيين، والذي أطلق عليه دوماً رومانسية الفلسفة الوضعية، والتي سيتبادر إلى ذهن القارئ من هم روادها دون ذكرهم؛ علاوة على ذلك أن هذا المذهب سيؤدي إلى سذاجة العقل والتي تبدو لي أنها من إنجازات القرن التاسع عشر[75]، أي أن الاعتقاد

---

(74) وهناك مفكر آخر نسي فضله الفلاسفة التجريبيون؛ وهو كاتب هذه السطور: «إذا تخيلت معي خطورة شخص هيج الجماهير الكبيرة التي كوّنت الأمة الفرنسية، فمن يستطيع أن يوقف غضبهم أو أن يتنبأ بالنتائج التي يحملها هذا الغضب؟ وحتى لو كانت كل مزايا المشروع الجديد لا تقبل الجدل، فما الذي يجرؤ عليه أصحاب النية الطيبة أن يفعلوه لإلغاء العادات البائدة أو أن يغيروا المبادئ القديمة، أو أن يقدموا شكلاً جديداً للدولة غير التي وصلت إليها بعد وجود دام 1300 سنة؟» (جان جاك روسو)

(75) وتأخذ سذاجة العقل شكلاً آخر؛ وهو أن تعتقد بأنك ستجد في السياسة قوانين للسبب والنتيجة فعالة تماماً كقوانين الوزن =

بأن الأعمال الفكرية المستمدة من الماضي (باعتبار أنها موجودة) سوف تظهر بالنظر في الحقائق، بمعنى أوضح، نظرٌ وتحقيق للرغبات؛ كما لو أن تلك الرغبات التي تم النظر فيها ليست على قدر من الأهمية، أو ربما أكثر أهمية، لو أننا رأينا أنها ظهرت لتملأ المشهد العالمي الآن[76]، ولعل من الضروري أن أضيف أن مذهب الواقعية زُعم أنه هو الباحث الوحيد عن «العبرة من التاريخ» و «فلسفة التاريخ» والتي تُظهر مرة أخرى ضعف العقل الذي تحررت منه العصور السابقة، وعندما أسس بوسويه وهيجل علم فلسفة التاريخ لم يكونوا علماء

= أو الكهرباء، والخرافة العلمية أن نصدق بأن «السياسة علم» خصص لجميع المجالات، بما فيه الأخلاق؛ تلك الخرافة التي تعد من مكتسبات القرن التاسع عشر.

(76) يقول أحد المناصرين للواقع: «إن العقل العلمي الحقيقي هو الذي لا يحتاج إلى تبرير الامتيازات التي تبدو كأنها عناصر أولية للطبيعة الاجتماعية لا يمكن اختزالها» (بول بورجيه)، ولكن هذا «العقل العلمي» قد شوه بتمرد ضد هذه الامتيازات، ذلك التمرد الذي يعد أيضاً من «العناصر الأولية للعالم الاجتماعي ولا يمكن اختزاله»، وربما يخبرني أحدهم بأن التمرد ليس من عناصر الطبيعة الاجتماعية، إنما هو من عالم المشاعر التي تعارض الطبيعة الاجتماعية، وهذا هو وضع الدوغمائية: إذ ترى الاستقلال الاجتماعي للعاطفة، سواء تحولت العاطفة إلى عاطفة اجتماعية (التعاليم الاجتماعية)، أو اختزلت إلى صمت بالجبر والقهر (مدرسة موراس) أو بالمهارة (مدرسة بينفيل).

في الميتافيزيقا أكثر من تين أو كونت أو أي من طلابهما المشاكسين، ولكنهما على الأقل يعرفان أنهما كانا كذلك، وليس غير ذلك، بل لم يكونا ساذجين حتى يظن كلاهما أنهما من «العلماء المثاليين».

(ج) التصريح بأن أشكال الأنظمة السياسية يجب أن تتكيف مع «الإنسان كما هو ودائماً مهما سيكون عليه» (أي عندما يكون غير اجتماعي ودموي، وبالتالي يحتاج إلى أنظمة جبرية وتعليمات عسكرية مدى الحياة)، ويظهر في جهود الكثير من الشخصيات المؤثرة في العصر الحديث ليؤكدوا عدم مثالية الطبيعة البشرية أحد أغرب مواقفهم، إذ إن هذا النوع من الآراء يبين أن أعمالهم لا نفع منها وأن عقولهم خاوية؛ فعندما نرى الأخلاقيين والتربويين ومن يقدمون التوجيه الروحي (المثقفون) يصرون على الصورة الوحشية للإنسان وأن «الإنسان خلق هكذا» وأنه «ينبغي معاملته على هذا النحو» وأنه «لن يتغير أبداً»، حينها ستسألهم إذاً ما سبب الوجود في الحياة في نظرهم، وعندما نسمعهم يجيبون بأنهم «عقول إيجابية وليسوا مثاليين»، وأنهم «مشغولون بما هو كائن وليس بما ينبغي أن يكون»، ستنتابنا الحيرة لأنهم يجهلون أن الفيلسوف الأخلاقي من المثاليين وأن طبيعة العمل الأخلاقي تحدد هدفاً بالإصرار عليه، ولكننا نشعر بالراحة عندما نعلم أنهم لا يتجاهلون هذا الأمر، وأنهم يعرفون جيداً أنهم عندما يصرون على الهدف

فإنهم يخلقون تلك الوحشية الأبدية اللازمة للحفاظ على المؤسسات المحببة إليهم[77].

إن عقيدة الشر الموحشة للإنسان قد اتخذت منحى آخر لدى من ينشرون هذه الأفكار، فتلك هي المتعة الرومانسية في تصوير الجنس البشري على أنه محفوف بمخاطر ومِحَن لا مناص منها للأبد، ومن هنا يمكننا القول بأنه قد ظهر بين بعض الكُتّاب السياسيين المعاصرين ما يسمى **بالرومانسية التشاؤمية** الواقعية؛ ظهوراً مزيفاً في مطلقه مثلها مثل التفاؤلية لدى روسو وميشليه، وظهور يحمل كرهاً لمن نشأت لهم، في حين أن موقفها المتعالي وما يسمى بالعلمي قد لاقى إعجاباً لدى البسطاء[78]، كذلك نقَل هذا المذهب آثاره خارج عالم الأدب، وظهر على إثرها الإنسانية التي لا تعترف إلا بالغطرسة والسخرية فقط من البسطاء الذين يظنون أن أحوالهم ستتغير إلى

---

(77) الموقف الذي أنكره هنا ليس له علاقة بموقف مدرسة الفلاسفة الأخلاقيين الحديثة (Rauh, Lévy-Bruhl) التي أرادت الإنسان «كما هو»، ولكن لاكتشاف كيف سيتغير إلى الأفضل.

(78) التشاؤمية هنا، مهما قال أنصارها عنها، لا علاقة لها بمذهب التشاؤمية عند رواد القرن السابع عشر؛ فلم ينسب لافونتين أو لابروبير شيئاً حتمياً أو أبدياً إلى العلل التي يصورونها، حتى الرومانسيين التشاؤميين لم يزعموا بأن جهودهم لإحباط كل همة أو أمل مستندة إلى التقاليد الكاثوليكية (كما أشار إليهم جورج جويو).

الأفضل، ويعود ذلك إلى أن «المثقف» المعاصر قد قدم فكراً جديداً - إذ علم الإنسان معنى الإلحاد، ولهذا نحس بهذه الأفكار وهي تنتشر حولنا، وزعم الرواقيون (Stoics) أن الألم إذا تجاهلنا وجوده فلن نشعر به؛ ولكن هذا في شأن الآلام يمكن الجدل حوله، أما في مجال الكمال الأخلاقي فالأمر صحيح تماماً.

وأود أن أشير هنا إلى مبدأين أُلهم بهما «المثقف» المعاصر في دعوته إلى «الدولة القوية»، ولا أبالغ القول بأنهما جديدان لدى جموع المفكرين:

فأما الأول: أنهم بينوا للإنسان بأنه مخلوق عظيم إذ يتجاهل «مذهب الفردية»* ويحارب من أجل العمل ومن أجل أن يفكر مثل أسلافه وعرقه وفكره المحيط به، فمنذ ثلاثين سنة مضت، كان المفكرون الفرنسيون قد لعنوا ذلك الرجل (في قضية دريفوس) الذي «طالب بالبحث عن الحقيقة بنفسه» وأن يؤخذ برأيه بدلاً من رأي وطنه الذي لا يرى إلا ما يراه القادة الحكماء، لقد ابتُلي عصرنا هذا بأفكار كهنوتية تقول بأن النزعة الوطنية هي شكل من أشكال الفكر الجديرة بالثناء، وأن الفكر المستقل شيء تافه، وبديهي أن الجماعة التي تسعى للدولة

---

* الفردية هي موقف أخلاقي، فلسفة سياسية، أيديولوجيا، أو النظرة الاجتماعية التي تؤكد على القيمة المعنوية للفرد.

القوية لا حاجة لها للإنسان الذي يطالب بأن يفكر لذاته[79].

أما المبدأ الثاني فكان يدعو الناس إلى حقيقة أنه كلما زاد أفراد الجماعة (العشيرة) أسس ذلك لحقها، تلك هي المبادئ الأخلاقية التي سمعتها الأمم كثيرة السكان من مفكريها، في حين أن مفكرين آخرين أوحوا إلى شعوبهم أنه إذا انخفض معدل الإنجاب سيكونون عرضة لإبادة «مشروعة»، إن حقوق الكثرة التي يقرها هؤلاء الذين يدعون الانتماء إلى العقل-هو ما تراه الإنسانية المعاصرة، فمن المعروف أن قوة الدولة هي في تعدد أفرادها.

لم تكن دعوة «المثقفين» إلى الدولة القوية والوسائل الأخلاقية التي وطدت تلك الدعوة ذات أبعاد سياسية فقط، بل أيضاً على المستوى العام، وهذه كانت الدعوة إلى مذهب البراغماتية (Pragmatism) التي نشرها تقريباً جميع الفلاسفة الأخلاقيين المؤثرين في أوروبا في أثناء الخمسين سنة الماضية فكانت نقطة تحول في التاريخ الأخلاقي للنوع البشري، ولا أبالغ بأهمية الحركة التي جعلت المثقفين الذين علموا الإنسان لمدة عشرين قرناً أن معايير الأخلاق في أي فعل هي سموه عن

---

(79) إن هذه الفئة (الجماعة) من الناس يطلون علينا بتعبيرات تستقطب دعاة «القومية المتكاملة»: «من الآن فصاعداً ينبغي أن تنتهي تلك المثالية الساذجة (Utopia) التي تحدو الفرد إلى تفكير نابع من ذاته ورأسه».

المصالح الذاتية، وأن الخير هو ما يمليه عليه عقله إذا كان نافعاً للجميع، وأن إرادته تكون أخلاقية فقط إذا استمدت قانونها بعيداً عن أغراضها الذاتية؛ وبعد تعليم الإنسان تلك المبادئ صاروا الآن ينشرون بين الناس أن الفعل الأخلاقي هو ما يؤمّن الإنسان به حياته من أي أخطار تحيطه، وأن إرادته تصبح أخلاقية إذا كانت إرادة تسعى «للقوة»، وأن جزءاً من عقله الذي يحدد الخير هو إرادة «الحياة» التي تعد أكثر عداءً للعقل، وأن أخلاقيات أي عمل تقاس بتوافقها مع أهدافها، وأن الأخلاق هي فقط أخلاق الأحوال الواقعة، إن المثقفين المهتمين بالنفس البشرية يقفون الآن بجانب كاليكليس ضد سقراط، إنها ثورة ربما تبدو لي أهم من كل الاضطرابات السياسية[80].

---

(80) حول موضوع البراغماتية، خاصة عند نيتشه، والمكانة التي احتلتها (سواء اعترفوا بذلك أم لا) في جميع الأفكار السياسية والأخلاقية، انظر (R. Berthelot, Un Romantisme Utilitaire, tome i,)، وفي هذا السياق أود أن أبين التغيير في موقف البراغماتيين، خاصة بين فلاسفة الأخلاقية الفرنسيين، فأستشهد بقول مونتين: «لا يمكن التحدث عن جمال الفعل وإجلاله من منظور المنفعة» وهذا القول وافقه فيه جميعهم قبل مجيء باريس، وغني عن البيان أن نيتشه، رغم أنه لم يكن دائماً صادقاً مع أتباعه، إلا إنه قال «في مستقبل ليس ببعيد، سنعلم جميعاً أن مبدأ المنفعة، كأي شيء آخر، لم يكن غير شذرات من الخيال، وربما يكون غباءً قاتلاً سنهلك جميعاً بسببه».

وأود هنا أن أشير إلى بعض سمات تعاليم هذا المذهب والتي لم تُفهم بالقدر الكافي.

تقدم أن «المثقف» المعاصر يقول بأن رغبات المرء تصير أخلاقية لأنه يميل إلى تأمين حياته على حساب المحيطين به والمنازعين له؛ لذا علَّم الإنسانَ أن عرقه مقدسٌ لأنه قادر على أن يعيش على حساب العالم المحيط به؛[81] بمعنى آخر، كان دعاة الأخلاقية القدماء يقولون بأن عظمة المرء تكمن في وحدته مع هذا الكون؛ أما الأخلاق المعاصرة تعلم الإنسان أنه إذا خالف تلك الأخلاق فسيصير عظيماً؛ والسابقون نصحوا بألا يُنصِب الإنسان نفسه وصياً على الطبيعة «كإمبراطورية داخل إمبراطورية»؛ أما المعاصرون فنصحوا الإنسان بأن يردد مع الهابطين من السماء: «نريد أن نؤمن بأنفسنا ولا نؤمن بالله»؛ ويقول الأوائل، مثل صاحب كتاب **تأملات**: «أبداً لا نغتر بأنفسنا»؛ أما المحدثون فسيرددون مع نيتشه وموراس قائلين: «لا تؤمن إلا بنفسك، فقط بنفسك».

ومع ذلك لم تنشأ البراغماتية من هنا، فالمسيحية دعت الإنسان أن يواجه الطبيعة ولكن من نابع خصاله الروحية والعادلة: أما البراغماتية فقد حثت الإنسان أن يفعل ذلك باسم السمات العملية، فالمرء كان في الماضي يلقى التبجيل

---

(81) ولهذا السبب سميت البراغماتية بالإنسانية؛ انظر (F. Schiller, Protagoras or Plato)

والتعظيم لأنه كان قادراً على اكتساب مفهوم العدل وفكرة القانون وروح الدين؛ أما اليوم فقد لبس ثوب العظمة لأن لديه القدرة على صنع معدات وآلات جعلته المسيطر في هذا الكون. (انظر تمجيد نيتشه وسوريل وبرجسون للإنسان المسيطر «homo faber»).

يضاف إلى ذلك أن «المثقف» المعاصر يحترم المسيحية باعتبار أنها مدرسة للفضائل الإبداعية والعملية والمخصصة لدعم المؤسسات الإنسانية الكبرى، إن هذا التشويه العجيب لعقيدة من تعاليمها أن يكون الإنسان مكرساً لحب الأشياء الروحية فقط، لم يقتصر على الدنيويين وحدهم الذين وضعوا رغباتهم العملية تحت رعاية أكبر الأنظمة الأخلاقية؛ بل دعا إليه أيضاً كهنة المسيح أنفسهم، ولذا نجد أن من يبشر بالمسيحية البراغماتية اليوم، كما أعرّفها هنا، هم من يعتلون منابر الوعظ[82].

إن هذا التحريض على هذه المنافع الملموسة وعلى هذا النوع من العقل الذي يدعم تلك الفكرة، قد انعكس على «المثقف» المعاصر في تعاليم أخرى: ذلك بتمجيد الحياة

---

(82) ونعلم كيف اتفق الطرفان؛ ذلك بأنهم قالوا إن المسيح قد دعا إلى روح التضحية التي هي أساس المؤسسات الإنسانية، وكأن المسيح دعانا إلى التحلي بروح التضحية التي تفوز بالمعارك وتؤسس الإمبراطوريات!

العسكرية والمشاعر المصاحبة لها، وأيضاً بنبذ الحياة المدنية والأخلاقيات التي تحملها، ونعلم جميعاً المذهب الذي انتشر في أوروبا على يد كثير من الفلاسفة الأخلاقيين البارزين في غضون نصف قرن خلا من الزمن، وتمثل ذلك في دفاعهم عن «حرب التطهير»، واحترامهم لحامل السلاح «الطراز الأصلي للجمال الأخلاقي»، ومحاولة إظهارهم الجانب الأخلاقي «للعنف»، أو هؤلاء الذين وضعوا أنفسهم في مقارنة بالمبارزة وليس أمام هيئة تحكيم، في حين أعلنوا أن الإيفاء بالعقود هو «سلاح الضعفاء» وأن تحقيق العدل من «شيم العبيد»، فلا يظن أحد أنه خالف أتباع نيتشه أو سوريل - أي أكثر الأدباء المعاصرين ممن حاولوا وضع مقياس للقيم الأخلاقية - إذا قال أحدهم إن كوليوني (Colleoni) هو نموذج مثالي للإنسانية مقارنة بالسياسي لوبيتال (l'Hôpital)؛ فرحلات كوندوتييرو ليست غريبة على كاتب هذا العمل، إذ تظهر هنا مثالية النشاط العملي الذي لم تسمع عنه الإنسانية قبل ذلك الوقت من مثقفيها، على الأقل من هؤلاء الذين يتحدثون بصورة براغماتية.

لم يمجد نيتشه ومدرسته الحياة العسكرية لأنها تؤمّن المصالح المادية، بل لأنها تعد شكلاً من أشكال الواقعية العادلة، على خلاف الواقعية التي تتسم بها الحياة المدنية - في رأيهم، ومع ذلك تظل تلك الحياة التي يثني عليها هؤلاء الأخلاقيون هي تلك الحياة التي تحقق مكاسب مادية، فمهما قال مؤلف كتاب **تأملات في العنف** (سوريل) وأتباعه، فإن

الحرب هي التي تدر ربحاً أكثر من مكاتب المحاسبة؛ وما تضمه إلى ممتلكاتك أكثر نفعاً مما تتبادله، وما حققه كوليوني من مكاسب مادية أكثر مما حققه فرانكلين* (وبديهي أنني أتحدث عن رجل عسكري ناجح في حين لم يتحدث نيتشه أو سوريل عن التاجر الذي أفلس).

ولا أحد ينكر أن الأعمال غير المنطقية، التي تعد إحدى سمات الصبغة العسكرية، يؤيدها كثير من الرواد المعاصرين بسبب آثارها العملية، وعبّر مؤرخو تلك الأحداث قائلين: إنّ مذهب الرومانسية عند نيتشه وسوريل وبرجسون من الرومانسية النفعية.

وما أود الإشارة إليه هنا ليس تمجيد «المثقفين المعاصرين» للروح العسكرية، إنما غريزة الحرب لديهم، تلك العقيدة التي نشأت بدافع روح الانضباط أو التضحية الاجتماعية، والتي ظهرت في تصريحات نيتشه الآتية، وسانده فيها أحد دعاة الأخلاقية الفرنسيين والذي له أتباع كثر:

«تقوم قيم المحارب الأرستقراطي على تأسيس القوة البدنية والصحة الجيدة، دون الغفلة عما هو ضروري للحفاظ على هذه القوة البالغة مثل الحرب والمغامرات والصيد والرقص

---

* يقصد الكاتب هنا ما حققه كوليوني من مكاسب مادية كونه قائداً عسكرياً أكثر مما حققه بنيامين فرانكلين الدبلوماسي والسفير الأمريكي لدى فرنسا.

والألعاب البدنية والتمارين الرياضية، أو أي شيء يتضمن نشاطاً حراً فيه قوة ومرح».

«وهذه هي جرأة الأعراق النبيلة، الجرأة المجنونة والتلقائية... تلك التي لا تهتم بسلامة الجسم ولا تكترث للحياة أو الراحة....»

«ذلك الوحش الأشقر جميل الوجه الذي يتجول باحثاً عن ضحية أو مذبحة...»

«الفرح الشديد والبهجة التي يحس بها الأبطال عند كل هلاك ينزلوه بالأعداء، والسعادة التي تغمرهم بعد كل نصر وممارسة وحشية».

وأضاف ذلك الفيلسوف الذي اقتبس تلك العبارات (سوريل في كتابه **تأملات في العنف**، صفحة 360)، حتى لا يدع مجالاً للشك بشأن هذه التوصيات الموجهة إلى بني سلالته من البشر: «وواضح أن الحرية تتحقق إذا نظر الإنسان إلى قيم هوميروس الملحمية على أنها من سمات الشعوب البربرية فقط» (والتي يراها نفس القيم التي أشاد بها نيتشه).

أليس من الضروري أن نلاحظ هنا مرة أخرى أن سيطرة الحاضر الأخلاقي وسط عالم المثقفين والتربويين هي في الأساس سيطرة جرمانية، مما أظهرت إفلاس الفكر الروماني اليوناني؟ فقبل عصرنا هذا، لم تكن تجد في فرنسا فيلسوفاً (من بينهم الفيلسوف ميستر Maistre) أو حتى شاعراً (إذا اخترت

العظماء منهم) يمدح «فرحة النصر أو ممارسة الوحشية في الحروب»[83]، وكذلك الوضع في روما القديمة، وهي من الأمم التي منحتها الحروب سيادة وهيمنة، حتى أنني لم أجد نصاً واحداً يصف غرائز الإيقاع بفريسة على أنها شكل سام من أشكال الأخلاق البشرية في أعمال سيسرو أو سينيكا أو تاسيتس أو حتى في أعمال فيرجيل أو أوفيد أو لوكان أو كلوديان، وفي سياق آخر، نجد الكثيرين ينسبون هذه المرتبة إلى الغرائز التي تقوم عليها الحياة المدنية[84]، نجد إلى ذلك، في اليونان البدائية، وقبل عصر الفلاسفة بزمن بعيد، أن الأساطير قد منحت الأخلاق المدنية مكانة مهمة؛ فجاء في إحدى قصائد الشاعر الإغريقي هسيودوس أن أبوللو أمر بإغراق مقبرة سيكناس (Cycnus) بالمياه لأنه كان لصاً، إن دفاع فلاسفة البحر المتوسط عن غريزة الحرب ستكون إحدى عجائب التاريخ، فالبعض منهم يرى الأمر عادياً، بل وصل الأمر أنهم يدعون إلى التقارب بين قيم هوميروس الملحمية (ورأينا ما يقصدون من وراء ذلك) وبين قيم كورني[85] - كما لو كان

(83) يقول ميستر: «يظل المحارب الحق إنساناً حتى وهو ينزف دماً»

(84) على سبيل المثال، عندما صوروا الجندي يقول بعدما صعدت روحه إلى السماء: «يجب أن تعلموا يا رفاقي أنه لا شيء على وجه الأرض أحب إلى قلوب من يحكمون الكون من المجتمعات التي قامت على احترام القانون، التي نسميها مدناً» (Cicero, Scipio's Dream).

(85) سوريل، **تأملات في العنف**.

الأبطال عند الشعراء الفرنسيين يتقاسمون مع عشاق المغامرات والضحايا والوحشية الإخلاص والوفاء للوطن!

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كتابات نيتشه كانت تدعم الحياة العسكرية بعيداً عن أي هدف سياسي، [86] والواقع أن «المثقفين» المعاصرين ينشرون بين الناس أن الحرب تحوي قيماً أخلاقية وينبغي خوضها دون أي منفعة، ودافع عن هذه النظرية، المألوفة عند الفيلسوف الفرنسي باريس، أحد الأبطال الشباب والذي كان أيضاً من المفكرين المهتمين بالنفس البشرية لجيل كامل من الفرنسيين: «نحن في وطننا نحب الحرب ونخفي في داخلنا رغبتنا فيها، فدائماً نخوض الحروب ليس لغزو بلد أو تدمير شعب أو من أجل الصراع على المصالح... بل نخوض الحروب من أجل الحرب وليس لغرض آخر»[87].

---

(86) وبعيداً عن أي اتجاه وطني، لقد أثبت نيتشه وسوريل أن حب الحرب شيء مختلف تماماً عن حب الوطن، على الرغم أنهما في أحياناً كثيرة يلتقيان.

(87) (Ernest Psichari, Terres de Soleil et de Sommeil)، وفي كتاب **نداء السلاح** وعلى لسان إحدى الشخصيات التي جلبت استعطاف جميع المؤلفين «أرى أنه من الضروري وجود عدد معين من الرجال يسمون جنوداً والذين يضعون القتال هدفاً لهم؛ فيتلذذون بالمعركة، ليس من أجل النصر ولكن من أجل المنافسة، يصارعون مثل الصيادين الذين يستمتعون بالصيد وليس باللعبة!... أما الدور الذي يجب أن نلعبه، أو سنخسر سبب وجودنا في الحياة فلن يكون لها معنى، هو أن نحافظ على المبدأ العسكري، =

وكان الأخلاقيون الفرنسيون، حتى الذين كانوا عسكريين مثل (فوفنارج* - فيني**، ينظرون للحرب على أنها ضرورة مؤلمة؛ ولكن أحفادهم قالوا بأنها شيء عديم الفائدة ولكنها نبيلة، ولكن المذهب الذي انتشر زاعمين أنه لا علاقة له بالأهداف العملية وعُد بأنه مجرد فن، كان أقرب إلى الواقع والحياة العملية - فالحرب عديمة الفائدة هي خير تمهيد للحرب التي لها فائدة.

وقادت هذه الأفكار «المثقف» المعاصر (ورأينا ذلك عند نيتشه) إلى أنه أضفى قيمة أخلاقية إلى التمارين البدنية ومن ثَمّ ينادي بأخلاقيات الرياضة - وهذا هو الشيء البارز بين أولئك الذين ظلوا لمدة عشرين قرناً يدعون الناس إلى إقامة السلوك الحميد في أي حالة مزاجية، علاوة على ذلك، لا يحيد المنادون بأهمية الرياضة عن الجوهر العملي لمذهبهم، وينصح الفيلسوف الفرنسي (باريس) الشباب بأن يمارسوا الألعاب البدنية من أجل مجد بلادهم، فالتربوي المعاصر لا يستدعي في

= ليست عسكرية قومية، بل عسكرية عسكرية»، إن عقيدة هذا الفيلسوف الأخلاقي، على حد تعبيره، هي العسكرية المتكاملة، فقال: «البنادق الكبيرة هي الحقيقة الأكثر واقعية، بل هي الواقع المطلق في العالم الجديد»، وعليه ستكون هذه الحقائق مقدسة عند «الروحانيين» وأتباعهم.

* Vauvenargues كاتب وفيلسوف أخلاقي فرنسي

** Vigny كاتب وروائي وكاتب مسرحي وشاعر فرنسي

ذاكرته هؤلاء الذين يتجولون في معابد الإغريق أو رهبان دير كليرفو، بل يستدعي مؤسس مدينة صغيرة في بيلوبونيز (مقاطعة عسكرية في جنوب اليونان)، وإلى ذلك شهد العصر الحالي شيئاً جديداً: فالذين كانوا ينادون بالحياة الروحية يقولون إن المدينة اليونانية التي تستحق الاحترام هي إسبرطة، وذلك لوجود ساحات التدريب بها، وليس مدينة أفلاطون أو براكسيتيليز*، في حين أظهر آخرون احترامهم وتبجيلهم لروما وليس اليونان؛ وزبدة هذه الآراء أنها بُنيت على رغبة من ينشرون بين الناس مفهوم الأجسام القوية والأسوار المنيعة[88].

---

* نحات من أثينا أشهر آثاره تمثال «أفروديت».

(88) ويستمر هذا التقليل من شأن اليونان بين أنصار رابطة الشعوب الجرمانية لنراه بين كثير من الفلاسفة التقليديين في فرنسا منذ عصر ميستر (de Maistre) انظر:

Houston Chamberlain, *Genesis of the Nineteenth Century*, tome i, page 57

وقد قرأت في إحدى الدوريات (Notre Temps) أغسطس 1927، مقالاً بعنوان «نحو مثالية عملية» جاء فيه: «جيل الشباب الذي تدرب بهذه الطريقة، رياضياً أكثر منها أيديولوجياً، يدعم هؤلاء الذي يسألون: ألسنا على مقربة من فجر عهد جديد»، وهنا رجال الكنيسة لم يتخلفوا عن الركب مرة أخرى؛ ففي مجلة (La Vie Catholique) 24 سبتمبر 1927، وجدت إشادة حارة لملاكم عالمي، وختمت هذه الإشادة بكلمات: «وأخيراً نود أن نضيف أن توني(Tunney) كاثوليكي مؤمن ومتدين، وأختيه راهبتان في الكنيسة».

وعلى الإجمال، فقد انتهى «المثقف» المعاصر بتعاليم مذهب الواقعية إلى بعض المفاهيم، هذا المثقف الذي لم نلاحظ ظهوره في عصره بقدر كافٍ، ولم نتبين من الصدع الذي تركه نتيجة مفاهيم نشرها بين الناس في غضون ألفي سنة خلت.

(أ) **الثناء على الشجاعة**، أو بمعنى أدق الحث على جعل رغبة الإنسان في مواجهة الموت هي أسمى فضيلة، في حين أن فضائل أخرى، رغم سموها، قد جاءت في مرتبة متأخرة، وكانت هذه الأفكار دائماً، خاصة أفكار نيتشه وسوريل وبيجي وباريس، تنبع من الشعراء وقادة الجيش، ولكنها بالنسبة «للمثقفين» فهي مستحدثة بالكامل، وأقصد أولئك الذين قدموا للعالم ميزاناً للقيم باسم التأملات الفلسفية، أو هؤلاء الذين يريدون أن ينظر إليهم كذلك، فمنذ عصر سقراط إلى عصر رينان كانت الشجاعة ينظر إليها بوصفها فضيلة ولكن من مستوى أقل، وكانوا جميعهم يقولون مع أفلاطون: «تأتي الحكمة والزهد في المرتبة الأولى من مراتب الفضيلة؛ أما الشجاعة فتأتي بعد ذلك»[89]. فكانت الاتجاهات التي يحثون الفرد على

---

(89) **القوانين** لأفلاطون، الكتاب الأول؛ النص الحقيقي لأفلاطون هو: «الحكمة هي المرتبة الأولى من مراتب الفضيلة، ثم يأتي الزهد في المرتبة الثانية، أما الشجاعة فتحتل المرتبة الثالثة»، ولكن الشجاعة التي يقصدها أفلاطون هي استعداد الإنسان لملاقاة الموت (لو عدت للسياق، لا سيما الفقرة التي تتحدث عن الجنود «الذين يعرفون كيف يقاتلون ولكن أخلاقهم سيئة؛ متغطرسين =

احترامها ليست تلك التي يحارب من أجل أن يروي بها ظمأ ميوله إلى الواقع، ولكن تلك التي يتغلب بها على شهواته، وقد شهد العصر الحالي رهباناً روحانيين يتبوؤون الصفوف الأولى من رتب العقل التي لا سبيل للإنسان إلا أن يسعى لها ويضع أسسها[90]، وخلاصة القول: إن هذه القيم النفعية للشجاعة لم يعبّر عنها جميع الفلاسفة المعاصرين الذين أثنوا على تلك الفضيلة كما عبّر عنها نيتشه وسوريل بكل وضوح، وهذا ينقلنا إلى مفهوم آخر:

(ب) **إعلاء قيمة الفخر**، ويقصد به الاتجاهات التي أدت بالإنسان إلى تحمل المخاطر ليس من أجل منفعة -بصورة أدق: لرغبته في تحقيق المجد -**ولكنها خير مدرسة للشجاعة العملية**، وأثنى عليها دائماً الذين يحرضون الناس على السعي وراء

= وظالمين»)؛ وهكذا نرى أنه لا يعني بالشجاعة هنا شجاعة النفس أو مواجهة المصائب، كما فعل الرواقيون بعد ذلك، فدائماً ما تأتي شجاعة النفس بعد العدل - حسب مذهبه، فهي استكمالاً للعدل، والشجاعة التي وضعها باريس في المرتبة العليا لم تكن صبر الرواقيين، بل هي التحدي العملي للموت، أما نيتشه وسوريل فتعني عندهما الشجاعة جرأة ضرورية، وغير منطقية - وهي شكل من أشكال الشجاعة انتقصها الفلاسفة الأخلاقيون القدماء ومن ورائهم أتباعهم؛ (انظر كتاب **لاخيس** لأفلاطون؛ **والأخلاق** لأرسطو، الفصل الثامن؛ **والأخلاق** لسبينوزا؛ وحتى الشعراء «عقولنا تسبق غضبنا» روسنار).

(90) ويحافظ عليها.

الأشياء المادية؛ وفي هذا السياق، لعل القارئ يفكر في الاحترام الذي منح دوماً لفكرة المبارزات في الجيوش، رغم بعض ممارسات القمع التي تنشأ فقط من النظرة العملية للحياة[91].

إن المكانة التي احتلتها تلك الاتجاهات بالعديد من الفلاسفة المعاصرين أمر جديد عند هذه الفئة، خاصة في البلاد التي عاش فيها مونتين وباسكال و لابروبير (La Bruyère) ومونتسكيو وفولتير ورينان الذين كانوا يقصدون شيئاً مختلفاً عن عقيدة المجد عند الإنسان[92]، والغريب أن رجال الكنيسة الآن

---

(91) ستجد عند الفيلسوف الفرنسي باريس مثالاً واضحاً عن الإعجاب بمبدأ الفخر طالما أنه ينتج ثماراً نفعية إذا استغله قائد محنك، انظر:

(Une Enquête aux pays du Levant, chap. vii: "Les derniers fidèles du Vieux de la Montagne")

(92) وتظهر هذه الحالة بوجه خاص عند مونتين الذي أثنى على شعور الفخر باعتبار أنه مشاعر الفرد تجاه ضميره، وليس تجاه مجده – «اترك المتع التي لا تأتي إلا بموافقة الآخرين»، ويرى باريس في مونتين «غريباً لا يشاركنا انحيازنا»، لقد حار الفلاسفة والشعراء في شخصية باريس، فقبله لم أرَ كاتباً فرنسياً ذا مزاعم عقائدية يرجع القيم الأخلاقية العليا إلى حب المجد والتفاخر؛ فالفلاسفة الفرنسيون قبل عام 1890 لم تكن لديهم توجهات عسكرية، حتى من كانوا جنوداً منهم مثل فوفنارج وفيني، انظر:

(G. Le Bidois, L'Honneur au miroir de nos lettres, especially on Montesquieu).

ينشرون بين الناس فكرة المجد عن الانسان والتي ستوصله إلى ربه، فليس عجباً أن نسمع كلمات مثل التي سنذكرها من واعظ مسيحي: «إن حب العظماء وأصحاب المجد هو الطريق الموصل إلى الله، وأن الدوافع البطولية التي تتوافق مع البحث عن المجد في أصولهم، يساعد على تغيير الإنسان الذي لم يتعرف على الله أو نسي ربه، وأن يكتشف أعلى القمة بعد اعتياده على دوار محاولات مؤقتة للصعود إلى المرتفعات»[93]، ولا يسعنا هنا إلا أن نستشهد بالعظة التي ألقاها أحد تلاميذ المسيح على معلم مسيحي قد نسي كلمات معلمه:

«هل لاحظت أن التطويبات الثمانية وموعظة الجبل والأناجيل والأدب المسيحي القديم لا تحتوي على كلمة واحدة تشير إلى أن القيم العسكرية تأتي ضمن السبل الموصلة لمملكة السماء؟» (رينان، الخطاب الأول إلى شتراوس)[94].

---

(93) (The Abbé Sertillanges, *L'Héroisme et la Gloire*)، قارن هذه الخطبة بخطبتي بوسويه بعنوان «مجد العالم (The Honour of the World)»، يمكنك أن تقيس التقدم الذي حققته الكنيسة في غضون القرون الثلاثة في تنازلها عن المشاعر الدنيوية، انظر أيضاً نيكولا «On the true idea of valour»، ويجب قراءة خطب آبي سيرتيلانجز «حياة البطولة (La Vie héroïque) بالكامل؛ فهي إحدى آثار حماس رجال الكنيسة لإثارة غريزة الحرب؛ إنها دعوة صريحة لرجل الدين (أو المثقف) الذي يرتدي خوذة الحرب.

(94) لعلي أذكر هنا تعريف توما الأكويني لمعنى الشرف، والذي لا يمت بصلة للتعريف الذي وضعه آبي سيرتيلانجز: «الفخر =

وأحب أن أوضح هنا أنني لا ألوم الواعظ المسيحي على دعوته إلى حب المجد والمشاعر الدنيوية، بل ألومه على تظاهره بأنه بذلك يوافق تعاليم الكنيسة، فإننا لا نطالب المسيحي أن يخالف العقيدة المسيحية؛ بل نريده أن يعلم أنه إذا خالف عقيدته فإنه قد انتهك شرعها، ويعبر عن هذا الموقف ما قاله الكاردينال لافيجيري (Cardinal Lavigerie) عندما سأله أحدهم: «ماذا ستفعل يا أبانا إذا لطمك شخص ما على وجهك؟» فرد عليه: «أنا أعلم ما ينبغي فعله ولكني لا أعلم ماذا سأفعل»؛ **أعلم ما ينبغي فعله** وهكذا ما ينبغي تدريسه، فالذي يتحدث بهكذا طريقة، فإنه يفتح الطريق نحو شتى سبل العنف، ومع ذلك يحتفظ بالأخلاق المسيحية. فالأفعال هنا لا تعني شيئاً؛ ولكن الحكم عليها هو كل شيء.

ولعل من الضروري أن أذكر أنني لا أرفض نشر مفهومي الفخر والشجاعة بين الناس؛ ما أرفضه هو أن من ينشر هذه الأفكار هم «المثقفون»، وتبدو لي أن الحضارة يمكن بناؤها إذا وافقت البشرية على تخصيص الوظائف والمهام؛ وإذا وجدت فئة من الناس، بجانب هؤلاء الذين يمارسون المشاعر السياسية، من ينشرون قيم الفضيلة التي تنفع البشرية، ويقللون من قيمة تلك المشاعر ويرفعون من شأن المنافع غير المادية،

= شيء حميد (كحب المجد الشخصي) بشرط أن يكون الخير غايته، وحب الله أو الخير للناس هو هدفه».

وما أراه خطيراً أن هذه الفئة من الناس ربما قد توقفت عن تأدية هذه المهام، وأن الذين كانت مهمتهم إخماد الشعور بالمجد الشخصي ربما يمجدون نفس دوافع الروح كما يفعل قادة الجيوش.

وقد يقال لنا إن هذه الأفكار يفرضها الدنيويون والزعماء على «المثقفين»، على الأقل في وقت الحروب، كي يحققوا أغراضهم السياسية اليوم باستخدام جميع المصادر الأخلاقية للدولة[95]، وما يثير الدهشة أننا نرى «المثقفين» ينشرون أفكارهم بهذه الطريقة، كأنهم يفعلون طوعاً وبدون ضجر، ويملؤهم الحماس ويغمرهم الفرح.... وخلاصة القول: لقد صار «المثقفون» دنيويين كالدنيويين أنفسهم.

(ج) **الإشادة بالقسوة** ونبذ الحب بين الناس - أي الرحمة والخير والإحسان. ويأتي «المثقفون» مرة أخرى ليقوموا بدور الفلاسفة الواقعيين، ذلك بأنهم لم يكتفوا بتذكير العالم بأن القسوة والشدة ضروريتان من أجل تحقيق «النجاح» وأن الخير واللين ما هما إلا معوقان لمسيرة التقدم، ولم يقتصروا على نشر تعاليم زرادشت بين أبناء أمتهم والتي كان قد ألقاها على تلاميذه: «عاملوا الناس بقسوة، ولا تعرف الرحمة طريقاً لقلوبكم؛ تسودوا العالم بقوتكم»؛ بل أذاعوا بين الناس النبل

---

(95) انظر مشروع القانون الأخير لتعديل قانون الطوارئ، والمعروف بقانون بول بونكور (Paul Boncour Bill).

الأخلاقي للقسوة والغلظة، والهوان الذي يلحق بالإحسان والخير، وغني عن البيان أن هذه التعاليم لا يتعجب لها من يعيشون في بلاد لم تنجب رائداً للإصلاح[96]، ولكنها غير عادية في أرض عاش فيها من هو مثل فنسنت باول وفولتير الذي دافع عن قضية كالاس (defender of the Cala)، وتبدو لي السطور الآتية المقتبسة من كتاب جينولوجيا الأخلاق (Genealogy of Morals) شيئاً جديداً بالكامل وكأنها صدرت من قلم لأحد الفلاسفة الفرنسيين: «إن هذه الرأفة الضالة يكمن فيها حب فاسد؛[97] ذلك الحب الذي أخذ اسم الخير، فالضعيف فقط هو من يتغذى على نداه، وتنتشر هذه المأساة يوماً بعد يوم فملأت الأرض ووصلت إلى الأماكن المهجورة، فأينما حطت قدماك في أي مِصر، فلن تجد إلا تلك الوجوه العابسة الشاحبة التي تعلوها إيماءات لا معنى لها، تلك التي كانت أثراً لرغبة في إطالة عمر بائس»[98]، ولعلنا لاحظنا أيضاً كيف تقدم

---

(96) Lavisse's, Etudes d'Histoire de Prusse, page 30

(97) الحب هنا هو الحب المتصل بالطبقات الراقية، التي ينتمي إليها كاتب هذه السطور، ولا جرم أن هذا هو الحب الذي يسمح أيضاً برأفة لا تضر ولا «تُضل».

(98) (Charles Maurras, Action Française, tome iv)، وقد نفكر طويلاً في تعجب نيتشه «الإنسانية! كان هناك دوماً امرأة أقبح من كل النساء القبيحات!»، وأضاف المفكر الألماني اصطلاحاً مع آخر فرنسي «ما لم تكن هذه هي الحقيقة».

أصحاب المذهب الواقعي المعاصرون على أسلافهم، فلما قال مكيافيلي: «إن الأمير مجبر كي يحافظ على سلطانه وأن يحكم بلا رحمة أو إنسانية»، فهو يقول أن أي أفعال غير الخير والإحسان قد تكون ضرورة عملية، ولكنه على الأقل لم يتطرق إلى إن الخير هو ذلٌ للنفس، وصفوة ما انتهيت إليه أن مثل هذه الأفكار والتعاليم هي مساهمة القرن التاسع عشر في التعاليم الأخلاقية للبشرية.

وفي بعض الأحيان يدعي بعض «المثقفين» المعاصرين عند المناداة بمبدأ الوحشية والقسوة أنهم بذلك يحتذون بمثال أسلافهم العظماء، لا سيما أفكار سبينوزا بسبب اقتراحه المشهور الذي قال فيه: «الشفقة مفهوم ذميم، لا تنفع من يعيش وفقاً لعقله»، ولعلنا نشير هنا إلى أن هناك اتجاه للحد من الشفقة والرحمة، ليس لصالح ممارسة الوحشية ولكن من أجل الإنسانية التي يقودها العقل، إذ إن العقل وحده «يساعدنا على تقديم الخير للآخرين بديهياً»، وأما سبينوزا فيرى أن الشفقة هي فقط أقل درجة من الإنسانية التي يقودها العقل، وأضاف: «ينبغي أن أوضح أنني أتحدث هنا عن الإنسان الذي يعيش بالعقل، فإذا الإنسان لم يحركه العقل أو الشفقة لمساعدة الآخرين، فستغلب عليه صفة الوحشية، إذ لم يتبق له أي صفة من صفات الإنسانية». وأضيف على هذا القول بأن المنادين باستخدام العنف والقسوة لا يمكن أن يزعموا أنهم يستمدون التأييد من دعاة العدالة (ميشليه وبرودون ورينوفير) الذين انتهى

بهم المطاف إلى استخدام القسوة لأنهم ضحوا بالحب من أجل العدل، وليست القسوة التي تسعدهم، تلك القسوة التي وصفها الواقعيون المعاصرون بالمثمرة - ربما يكونون على حق[99].

ومحصلة الكلام أن الدعوة إلى استخدام القسوة والعنف لها آثارٌ نفعية أكثر من أي أفكار نشرها «المثقفون» المعاصرون، ومن الشائع بين فئة كبيرة ممن يطلق عليهم المفكرون الشباب، في فرنسا على سبيل المثال، أن القسوة هي الآن من الأشياء الجديرة بالاحترام، أما الحب الإنساني في كل أشكاله فلا يدعو إلا إلى الضحك والسخرية؛ فهؤلاء الشباب يؤمنون بالعقائد التي لا تحترم إلا القوة، ولا يبالون بأصوات المعاناة ويعلنون دائماً حتمية الحروب والاستعباد، كذلك ينبذون أولئك الذين يثورون على تلك الأفكار ويرغبون في تغييرها، وأود هنا أن أقارن بين هذه العقائد وبين الجماليات الأدبية لهؤلاء الشباب، واحترامهم لبعض الروائيين والشعراء المعاصرين الذين وصل عندهم غياب التعاطف مع الإنسانية درجة نادرة من الاكتمال، فهم يحترمونهم لهذه الصفة على وجه الخصوص، ومن هنا أريد منكم أن تنظروا غطرسة هؤلاء الشباب والجدية

---

(99) لا تتشابه تلك القسوة مع القسوة التي تحويها هذه الكلمات: «يخضع رجل العدالة إلى مشاعر العقل، والتي تبدو مؤسفة حينما يكون قلبه بارداً، ولكن ستسمو إذا كان قادراً على الحب» (رينوفير).

الموحشة اللتان ارتبطتا بهم عند اتباعهم لهذه المذاهب «الحديدية»، ويظهر أن «المثقفين» المعاصرين قد أوجدوا داخل المجتمع المثقف (إن صح التعبير) **مذهب رومانسية القسوة** الإيجابي.

وقد أنشأوا أيضاً **رومانسية الازدراء**، على الأقل في فرنسا، لا سيما مع الفيلسوف باريس، وبالتحديد منذ عصر فلوبير وبودلير، ولكن أرى أنهم قد مارسوا ازدراء الآخرين في الآونة الأخيرة في فرنسا لأسباب أبعد من الأسباب الجمالية؛ فهؤلاء الذين يرون أن شعور الازدراء تجاه الآخرين لا يجعلهم يحققون متعة الإحساس بلحظة رفعة وتعالي فقط، بل عندما تزداد مهارتهم في التعبير عن الازدراء فإنهم يسببون الأذى لمن يحتقرونهم ويلحقون بهم ضرراً شديداً، وفي الواقع إن طبيعة الازدراء الذي يعبر عنه باريس تجاه اليهود والتي يعلنها بعض الأساتذة الموالين للملكية تجاه المؤسسات الديمقراطية كل صباح لمدة عشرين سنة الماضية، تسبب أذىً كبيراً للضحايا، على الأقل عند أصحاب العقول المبدعة الكثيرة الذين يصح عندهم الاحتجاج بالإشارات النافذة من الدوائر العليا، إن المثقفين المعاصرين يستحقون التكريم في تاريخ الواقعية لأنهم فهموا القيمة العملية للازدراء.

بل يمكن القول أيضاً بأنهم قد أسسوا **لعقيدة الوحشية**، فيقول نيتشه «كل حضارة متقدمة تُبنى على الوحشية»، فهذا المذهب صرح به باريس (Barrès) في مواضع كثيرة في كتاب

الدم والشهوة والموت (Du sang, de la voluptè et de la mort)، ولكن ظلت عقيدة الوحشية، التي قد يُنظر إليها على أنها ضرورة لتحقيق «النجاح»[100]، محصورة في عدد معين من المشاعر الفنية، على الأقل في فرنسا، فهي بعيدة كل البعد عن المذاهب التي تدرس في المدارس كالقسوة والازدراء، ونلاحظ هنا أيضاً كيف كانت هذه العقيدة أمراً محدثاً عند هؤلاء الذين قالوا: «الجبن هو أساس الوحشية» (مونتين)، أو عندما نستشهد بأحد الفلاسفة العسكريين حين قال: «البطل هو الذي لا يشعر بالفخر عندما يجعل خصومه يشعرون بالجوع ويعيشون في بؤس وفقر، بل يفخر بتحمل هذا الجوع والبؤس من أجل الوطن، ولا يشعر بالفخر كذلك بالقتل بل بتحمل خطر مواجهة الموت (فوفنارجيس)[101].

(د) **عقيدة النجاح**، وأعني بها التعاليم التي تقول بأن الإرادة التي تتحقق يصبح لها قيمة أخلاقية، أما تلك التي لا

---

(100) وهذا هو رأي مكيافيلي (الفصل الثامن عشر) الذي لم يتخذ القسوة دليلاً على سمو ورفعة الثقافة.

(101) وجدت هذا النص لأحد أبطال الإمبراطورية الأولى: «أخشى شعور السعادة بقتل هؤلاء المجرمين بيدي (يتحدث عن بعض الألمان الذين قتلوا السجناء الفرنسيين بعد معركة لايبزج)، لذا أغمدت سيفي وتركت إبادة هؤلاء القتلة للقوات». (Memoirs of General Marbot, tome iii, page 344)، وفي فرنسا يقل تمجيد غريزة الحرب عند الجنود منه عند المؤلفين.

تنجح فإنها تستحق التجاهل والتحقير، وقد نشر هذه الفلسفة كثير من الفلاسفة المعاصرين في الحياة السياسية (أيضاً كل المفكرين الألمان منذ عصر هيجل، وعدد كبير في فرنسا منذ دي ميستر) وأيضاً درسوها في الحياة الخاصة، وفي هذا العالم الفكري في هذا اليوم يوجد عدد هائل من الناس الذين يرون أنهم يظهرون فضائلهم الأرستقراطية من إعلانهم عن تقديرهم المنظم لهؤلاء الذين «ينجحون» ويظهرون الازدراء تجاه الفاشلين في تحقيق إرادتهم، وأخذ أحد الفلاسفة الأخلاقيين في الاعتبار عظمة عقل نابليون بسبب ازدرائه «لسوء الحظ»؛ وفعل نفس الشيء آخرون مع مازارين (Mazarin) وفوبان (Vauban) وموسوليني، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن «المثقفين» يحافظون بهذا على مدرسة واقعية سليمة، فعقيدة النجاح ونبذ سوء الحظ هما شرطان أخلاقيان للحصول على مكاسب مادية؛ كذلك من الواضح أن تلك الأفكار هي جديدة عند هؤلاء «المثقفين» خاصة ذوي الأصول اللاتينية، وأقصد بذلك الذين كان أجدادهم يعلّمون البشرية احترام القيم بعيداً عن نتائجها، مثل أن يكون احترامك لهيكتور كاحترامك لأكيليس، واحترامك للكرياتيين مثل احترامك لخصومهم الذين انتصروا عليهم[102].

وقد رأينا أن الفلاسفة (الأخلاقيين) المعاصرين يفخرون بالمحارب على حساب رجل العدالة ورجال العلم، وينشرون

---

(102) «وشرف الفضيلة يقوم على التنافس وليس الفوز»

بين الناس مذهب السلوكيات النفعية بالاستخفاف بالحياة العادلة، وكلنا يعلم مناهضة نيتشه لرجل العلم والمعرفة، أو كما يسميه «الرجل المرآة» الذي ينحصر شغفه فقط في العلم والتعلم، وتقدير نيتشه لحياة العقل يكون بقدر العواطف والنزعة الوجدانية والفعل والتعصب؛ وضحكته الساخرة على البحث المنهجي «المجرد» المكرس لشخصية «المرأة العجوز المسماة بالحقيقة»، ولا يخفى علينا استنكار سوريل للمجتمعات التي «تمنح مكانة خاصة لهؤلاء المهتمين بالقضايا الفكرية فقط»[103] (ومنذ ثلاثين عاماً كان باريس ولومتر وبرونيتيير يصفون «المثقفين» بأنهم نوع من الإنسانية «أقل درجة من العسكريين؛ والفيلسوف بيجي الذي أظهر إعجابه ببعض الأعمال الفلسفية حتى قال فيها «إنها بارعة كالمحاربين»، وكان يحب ديكارت لأنه كان مجنداً في الجيش، وأُعجب بالمتشبثين بالملكية الفرنسية فقط لأنهم كانوا على استعداد أن يموتوا من أجل آرائهم[104]، وقد يقول قائل إن هذا مجرد حديث عن رجال

---

(103) (La Ruine du monde antique, page 76) وانظر أيضاً (Les Illusions du progrès) ستجد سوريل يسخر من أحد المفكرين الذي قال بأن ارتقاء العاطفة الفكرية هي علامة المجتمعات الراقية، ويمكننا أن نقول إن المفكرين المعاصرين يمجدون مبدأ «ثقافة السلاح» على حساب «ثقافة العلم»، وتتضمن السخرية من مبدأ «ثقافة العلم» احتقاراً لأرسطو وسبينوزا وبيكون وجوته ورينان.

(104) Victor Marie, Comte Hugo

الأدب وموقف الشعراء، فليس من العدل أن ننسب لهم المعاني العقائدية؛ وأن نيتشه وباريس وبيجي قد رفضوا حياة العلم على حساب ميولهم الشعرية وروح المغامرة، ونفورهم من أي شيء ينقصه المتعة والمغامرة، فالأمر ليس بأيديهم أن يرفضوا تحقيق العدالة، وكان ردي على هؤلاء: إن هؤلاء الشعراء قد أطلقوا على أنفسهم لقب المفكرين العظماء (لاحظ نبرة صوتهم، نحن لا نعرف السذاجة أبداً) وأن الغالبية العظمى ممن يقرأون لهم يقبلونهم هكذا؛ وحتى إن كان كلامهم صحيحاً بشأن نظرتهم عن رجل العلم، فإن دوافعهم ليست استحقار العدالة، ومع ذلك فإن واقع منهج الحياة التي يعيشونها والتي يسخرون فيها من البشرية هو نوع من الحياة العادلة، في حين أن الحياة التي يقدسونها متوسلين بالسخرية من البشرية هي أكثر حياة ذات طابع عملي (على الأقل هي أكثر نفعاً إذا ما قورنت بحياة رجل العلم، حيث سيكون من المسَلّم به أن أعمال دو جيسكلين* ونابليون هي التي تحقق مكاسب مادية أكثر من أعمال سبينوزا ومابيلون)؛ علاوة على ذلك، إن ما يحتقره هؤلاء المفكرون في رجل العلم أنه لم يضع أسساً لقيام دولة ولم يغزُ ولم يحكم قبضته على من يحيطون به، وإذا أحكم قبضته، بواسطة اكتشافات العلماء، فإنه يحتفظ لنفسه بمتعة المعرفة وترك ما حققه من مكاسب إلى الآخرين، وبالنسبة لنيتشه، فإن احتقار

* قائد عسكري فرنسي في أثناء حرب المائة عام.

رجل العلم من أجل المحارب هو فقط حلقة في مسلسل رغبات لا يمكن لأحد أن ينكر أنها تلهم جميع أعماله كما في أعمال سوريل وباريس وبيجي: **هي الرغبة في انتقاص قيم المعرفة أمام قيم العمل**[105].

ولا تلهم هذه الرغبة الفيلسوف الأخلاقي فقط، بل تلهم نوعاً آخر من «المثقف» الذي يتحدث من مستوى أعلى، وأشير هنا إلى تعاليم الميتافيزيقيا الحديثة التي تحث الإنسان على الشعور بأن يكون تقدير الذات لديه أقل وأن يحترم الجانب العملي في حياته ويحترم رغباته بكل إخلاص، وتحدد نظرية المعرفة، التي تستمد الإنسانية قيمها منها في نصف قرن، رتبة ثانوية للعقل الذي يرقى بالأفكار المميزة والواضحة وبالمستويات والكلمات، وتضع في أعلى المراتب العقل الذي ينجح في تحرير نفسه من تلك العادات الفكرية، ويصير لديه

---

(105) ولهذا السبب كان نيتشه يحب الفن وأعلن (بجانب الواقعية المعاصرة) تفوق الفنان على الفيلسوف، لأنه يرى أن الفن يملك قيمة الفعل، وبغض النظر عن وجهة نظره، فلا بد أن نذكر إنصافاً قول أحد النقاد: «إن نيتشه يحتقر الفن والفنانين؛ فهو يرفض المبدأ النسوي في الفن، ومحاكاة الممثل وحب الأثواب التي تلمع... وتذكر الكلمات الجميلة التي أثنى فيها على شكسبير، أعظم الشعراء الذي قلل من قيمة الشاعر، إذ عامله وكأنه ممثل مسرحي، أمام القيصر، ذلك الرجل المقدس» (C. Schuwer, Revue de Méta-physique et de Morale, April, 1926).

شعور بذاته بقدر وجود «الرغبة» و «الإرادة» و «الفعل»، وأما الفلسفة التي كانت تدفع الإنسان في الماضي إلى أن يقول «أنا أفكر، إذاً أنا موجود»، تحثه الآن أن يقول «أنا موجود، إذاً أنا أفكر» «وأنا أفكر، إذاً لست موجوداً» (ما لم يعد الفكر في مكانة دنيا حيث يختلط مع العمل)، وفي السابق كانت الفلسفة توحي للإنسان أن الروح مقدسة إذا ما شابهت روح فيثاغورس الذي يربط بين المفاهيم؛ أما الآن فهي تقول بقدسية الروح إذا ما كانت تشبه الفرخ الصغير الذي يكسر قشرة البيضة[106]، ومن على منبر الوعظ المقدس، ينادي «المثقفون» بأن الإنسان يصبح عظيماً كلما كانت أهدافه عملية ونفعية.

وفي غضون خمسين عاماً، في فرنسا على وجه الخصوص (باريس وبورجيه)، كانت الأعمال الأدبية تنادي بكل قوة بأهمية الفطرة الأصلية والعقل الباطن والبديهة، والرغبة (بالمعنى الألماني الذي يقابل العقل)، التي نادت بها باسم الروح العملية، لأن الفطرة وليس العقل هي التي ترى ما ينبغي أن

---

(106) (Henry Bergson, Evolution Créatrice) الصورة الصحيحة لمذهب برجسون «أنا أتطور، إذاً أنا موجود»، لاحظ أيضاً اتجاه الفلسفة المعاصرة في أن تجعل الطابع العملي والنفعي لأفكارها هو السمة الأساسية، وأن تجعل ضميرها سمة ثانوية: «يجب تعريف الفكر على أنه القدرة على توحيد الوسائل لغاية معينة بدلاً من الخاصية الوحيدة في أن يكون واضحاً مع ذاته (D. Roustan, Leçons de Psychologie, page 73).

نفعله بصفتنا أفراداً وأمماً وطبقات لتأمين مصالحنا الذاتية، واستطرد هؤلاء الكتّاب في ضرب مَثل الحشرة التي علمتها «فطرتها» أن تضرب فريستها في مكان محدد لتشل حركتها دون أن تقتلها، لعل نسلها يتغذى على الفريسة التي ما زالت على قيد الحياة وتنمو بشكل أفضل[107]، وأنكر معلمون آخرون احترام الفطرة باسم «التقاليد الفرنسية» ودعوا إلى «أهمية العقل»؛ ولكنهم فعلوا ذلك ظناً منهم أن العقل هو الذي يبين لنا الأفعال التي تقتضيها المصالح، أي من نفس الميول النفعية، وهذا يأخذنا إلى إحدى التعاليم النفعية التي يدعو إليها «المثقف» المعاصر؛ وهي الأكثر أهمية وحداثة.

وأقصد بهذه التعاليم أن **عمل العقل يستحق التقدير كلما كان متجهاً نحو المنفعة وليس لغرض آخر**، ويقال أنه منذ العصر اليوناني قد وقف المفكرون موقف التعظيم من عمل العقل (مثل

---

(107) جاء هذا المثال في كتاب التطور الخلاق لبرجسون، وكان له صدى في الوسط الأدبي انظر (Marie Goldsmith, Psychologie Comparée, page 211)، إن الدفاع عن قيمة الفطرة، الذي يحتقره أيضاً العقلانيون مثل باريس، وجد أيضاً لدى جان جاك روسو: «لا يمكن للضمير أن يخدعنا أبداً؛ فهو للروح بمثابة الفطرة للجسد...، فالفلسفة المعاصرة التي تقر بما يمكن تفسيره، لم تراعِ الاعتراف بالقدرة الغامضة التي تسمى الفطرة، وبدون أي معرفة مكتسبة تقود الحيوانات إلى غايتها» (Confession de foi du vicaire Savoyard).

الأعمال الفنية) كلما وجدوا ضالتهم فيه، وذلك بعيداً عن أي اهتمام بالمصالح التي يحصلون عليها؛ فأغلب المفكرين كانوا يتفقون مع ترنيمة أفلاطون الشهيرة عن الهندسة، إذ لاقى هذا المذهب ترحيباً أكثر من أي مذهب آخر لأنه يمثل له نوعاً من الفكر التأملي الذي لا يحقق أي مكسب مادي؛ أما رينان فيرى أن الذي يحب العلوم لغرض ما فإنه أهان قدسية العلم[108]، ووضع «المثقفون»، بهذه المعايير للقيم، أمام الدنيويين صورة لفئة من الناس توجد قيمة الحياة لديهم في التجرد من أي منافع وشهوات، فكانوا بذلك كابحاً للرغبات العملية (النفعية) لهؤلاء الدنيويين، أو على الأقل مصدراً لخجلهم منها، إلا أن «المثقفين» المعاصرين قد مزقوا ذلك الميثاق، وقالوا بأن احترام وظائف العقل يعتمد على البحث عن المزايا المادية المكتسبة، وأن العقل الذي لا يسعى لأي فائدة مادية هو عمل دنيء، هذا وقد نشروا بين الناس أن أسمى صورة لصاحب العلم ذلك الذي يغرس جذوره في «الرغبة الحيوية»، منهمك في اكتشاف أكثر الأشياء قيمة لتأمين المعيشة، وفي مجال العلوم التاريخية[109] احترم هؤلاء المثقفون العقل الذي يعمل تبعاً

(108) «إذا كانت المنفعة الناتجة عن عمل الإنسان هي التي تحدد الإشادة به، فإن مخترع المحراث يستحق ثناءً على عقله الفذ أكثر من أرسطو وجاليليو وديكارت» (Bayle).

(109) راجع ما سبق ذكره.

للمصالح السياسية[110]، بل احتقروا بالكامل أي جهود نحو «مبدأ العدل»، ويعلنون أينما ذهبوا أن الفكر الجدير بالاحترام والتقدير هو الذي يقيد أعماله داخل إطار المصالح الوطنية والنظام الاجتماعي، في حين أن الفكر الذي يسمح لنفسه أن تقوده الرغبة في البحث عن الحقيقة المجردة، بعيداً عن أي مطالب للمجتمع، هو عمل في ذاته «وحشي وهمجي»، «لا يحترم قدرات الإنسان»[111]، وأود أن أشير هنا إلى اهتمامهم بمذهب (برجسون وسوريل) الذي يقول أن العلوم لها أصل نفعي - وهو حاجة الإنسان إلى مسألة الهيمنة، «فالمعرفة هي أن تتأقلم»؛ وأشير كذلك إلى نفورهم من المفاهيم اليونانية العميقة التي جعلت العلم يزدهر بالرغبة في الاستمتاع، وهي النوع المثالي من الأعمال المجردة، ثم يُعلمون الناس أن قبول خطأ نافع لهم («الخرافة») يضمن لهم الاحترام، في حين أن قبول الحقيقة يمثل العار والخزي. كما عبر نيتشه وباريس

(110) أو الأخلاقية، هاجم باريس فساد العالِم الذي يعرض فقط ما لعبه القدر في التاريخ، قارن بينه وبين تعليق ميشليه: «الاحترام يقتل التاريخ».

(111) وهذا كما نعلم هو بيان «مستقبل الفكر»، فهو أتاح لرواده أن يقولوا «إن من أبرز مهام الكنيسة على مر العصور كانت حماية الفكر من أخطائه» - وهذا القول لا غبار عليه منذ أن كانت أخطاء الفكر هي كل شيء يبوح به دون الرجوع إلى النظام الاجتماعي (الذي يقوم على تعاليم الكنيسة).

وسوريل، بمعنى آخر، أن الحقيقة إن لم تكن ذات هدف نفعي فإنها تعد شكلاً بذيئاً من أشكال العقل[112]، وتظهر هنا عبقرية «المثقف» المعاصر في الدفاع عن الحياة المادية بإيجابية، فهي لا تملك شيئاً تفعله تجاه الحقيقة، أو بمعنى أوضح، ليس لها أعداء؛ فعبقرية كاليكليس العميقة تعيش داخل رواد العصر الحديث[113].

بعد ذلك نشر «المثقفون» المعاصرون بين الناس مذهب الحياة العملية وتوسلوا في ذلك باللاهوت، عن طريق صورة الإله التي وضعوها نصب أعينهم؛ ففي البداية حددوا أن مفهوم الرب عندهم، الذي كان منذ عصر الرواقيين أبدياً، قد صار غير ذلك وذا طابع جسدي، وأنه ينبغي أن يكون إثباتاً للوجود **المادي** وليس **الغيبي**، إن عقيدة التجسيد، التي تختلط مع وحدة الوجود دون وضع حدود بينهما لدى الشعراء منذ برودينتيوس

---

(112) وأضافوا أنها «غير علمية» يمكن تفنيدها بمجرد أن تتحول إلى حقيقة «عملية» (نفعية)، يقول بول بورجيه: «تربية الأبناء على العقيدة الدينية هو تربيتهم علمياً وفق المصالح القومية»؛ وكلمة «علمياً» هنا تعني (ما يرمي إليه المؤلف أو المفكر).

(113) رفض التقليديون الفرنسيون الحقيقة دون أي اعتبارات أخرى باسم الحقيقة «الاجتماعية»، وهذا يعد تأييداً للانحيازية، الشيء المحدث عند أحفاد مونتين وفولتير، وقد يقال إن بعض الفرنسيين المعاصرين أظهروا حماساً في الدفاع عن اهتمامات المجتمع لم نرها من قبل عند من كان عملهم الدفاع عن اهتمامات العقل.

وحتى هوجو، لأن الرب كان جسدياً أو ذا طبيعة مطلقة وفق الميول العاطفية والمتطلبات الشعرية، قد ارتقى عند بيجي وكلوديل بوجود وعي شديد بالذات، ورغبة واضحة للتميز عن رجل الدين مع التعبير عن احتقاره، وفي نفس الوقت هاجم الأساتذة السياسيون عقيدة أبدية الرب مع وجود تميز في الكراهية، ومهارة في الانتقاص ليس لهما مثيل حتى في الكنيسة، التي أصرت على استنكار هذه العقيدة لأنها ليست عقيدة نفعية، ولأنها صادرت المشاعر التي اكتشفت أعظم حقائق دنيوية وهما المدينة والدولة[114].

ولكن المثقفين المعاصرين قد منحوا الإله سمات تضمن لهم المكاسب المادية، وربما يقال إن الإله، منذ العهد القديم (التوراة)، كان عادلاً أكثر منه قوياً، أو كما قال أفلاطون «قوته هي شكل من أشكال عدله؛ وأن سلطانه، حسب رأي ماليبرانش وسبينوزا، لم يكن كسلطان الملوك والأباطرة، وأن الرغبة في الزيادة كانت منفصلة عن طبيعته، كذلك السمات الأخلاقية اللازمة لتحقيق هذه الرغبة - الطاقة والإرادة وحب العمل والافتتان بالنصر؛ وهذا كان نتيجة طبيعته الأبدية والكمالية، والتي خلقت الوجود على الفور، حتى قضية الخلق، تلك الفكرة غير القابلة للانفصال عن فكرتي القدرة والزيادة، اجتُنبت

---

(114) ينفصل موراس هنا عن معلمه ميستر الذي قال «ذلك النهر المقدس الذي سيفر إليه كل شيء وكل إنسان يوماً ما».

فيها هذه الأفكار - فلم يكن الكون نتيجة قدرة الله بقدر ما هو نتيجة حبه؛ كما جاء الكون من الله كالأشعة التي تنساب من الشمس، دون أي رغبة إلهية في الزيادة على حساب أي شيء آخر، ووفقاً للمدارس المختلفة، فإن الإله لم يكن سبباً متعالياً بقدر ما هو سبب باطني (للخلق)[115]، وعلى الجانب الآخر، بالنسبة للفلاسفة المعاصرين (هيجل وشيلينج وبرجسون وبيجي)، فإن الإله يتطور؛ فقانونه «في تغير دائم» و «تجدد مستمر» و «خلق متواصل»؛[116] عقيدته هي عقيدة التطور - الإرادة والتوازن والدفع الحيوي، فإذا كانت عقيدته **تعتمد على العقل**، فإن هذا العقل «يتطور» وفقاً لهيجل، «والذي يدرك ذاته» مراراً، فإذا كان يوصف بالكمال في كل شيء وهو لا يعلم شيئاً عن النزاعات والحروب، فهذا يدعو إلى الازدراء؛ إذ إنه يمثل (وفقاً لبرجسون) «أبدية الموت»[117]، إذاً فالمؤمنون بالخلق الأول والفريد يحاربون اليوم من أجل تقديم هذا العمل بصورته

---

(115) في طبيعة مذهب المباطنة (Immanence) عند كل الوعاظ المسيحيين حتى وقتنا الحاضر انظر مقال رينوفير بعنوان (L'Idée de Dieu) في كتابه (Année Philosophique, 1897)، ومقال (Essai d'une Classification des doctrines) في كتاب (l'évolution; la création).

(116) حسب نظرية هيجل، فالإله عنده يتطور على حساب خصومه؛ فعمله الأساسي يقوم على الحرب والنصر.

(117) أبدي هنا احتجاجاً شديداً على هذا التصور في «المدرسة الفلسفية الحديثة» (Neo-Thomism).

العملية فقط، وشجبت الكنيسة بوضوح وصرامة - لم يعرفا من قبل - كل مذهب يدعو إلى مبدأ الكُمونية وتبشر بالتعالي* بكل صرامة[118]، (ووفقاً لأولئك المؤمنين): لما خلق الله الكون، لم يعد يشهد توسعاً حتمياً لطبيعته؛ فبقدرته (والبعض يحاول التخفيف من حدة التحكم فيقول «بطبيعته الخيرة») يرى بزوغ شيء مميز عنه، شيء قد وضع يده عليه، كذلك تعد أفعاله، بصرف النظر عما يقال خلاف ذلك، هي خير مثال على التطور المادي، ويخاطب «المثقف» المعاصر البشرية، كالنبي الذي بُعث إلى بني اسرائيل في العهد القديم، فيقول لهم: «أظهروا حماسكم لإله المعارك الذي لا يموت».

إن كل ما سبق كان لمدة نصف قرن موقف من كان

---

* مبدأ الكمون (Immanence) هو المبدأ القائل بأن كل ما في الكون: الإله والإنسان والطبيعة مكوّن من جوهر واحد لأن الخالق «حل» في مخلوقاته وأصبح كامناً فيها وامتزج بها وانصهر فيها وتوحد معها (عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، صفحة 16)

أما مبدأ التعالي (Transcendence) فهو الإيمان بإله خارج عالم الطبيعة-المادة ومتجاوز له.

(118) قارن بين إدانة روزميني (Rosmini) وإدانة ماتر إيكارت (Maître Eckart)، فمثل هذه الافتراضات «**لا يوجد ما يجعل الإله مميزاً، لذلك يمكن إدراكه**» أو «**كل المخلوقات هي في الأساس لا شيء**» أُعلن عنها أنها ليست من الهرطقة ولكنها فقط «ليس لها أساس علمي ومشتبه بها وتدعو إلى الهرطقة».

دورهم في السابق هو تعطيل واقعية ونفعية الأمم، هؤلاء الذين بذلوا غاية ما في الوسع لإثارة ذلك الأمر، ولهذا السبب أطلقت على هذا الموقف «خيانة المثقفين»، فلو بحثت عن أسبابها، لوجدت أسباباً عميقة تمنعني من أن أعد هذه الحركة مجرد منهج ربما تنجح الحركة المناهضة له غداً.

وأحد الأسباب الرئيسة أن العالم الحديث قد جعل «المثقف» مواطناً عليه نفس المسؤوليات التي تقع على أي مواطن، وبالتالي يكون رفض المشاعر السياسية أمراً أصعب عليه من أسلافه، فإذا وُبخ لأنه لم ير المعارك القومية ببصيرة صافية كما كان يفعل ديكارت وغوته، يمكنه الرد بقوة حينئذ أن أمته تثقل ظهره بعدة الجندي إذا تعرضت للإهانة، وتسحقه بضرائبها حتى لو كانت منتصرة، أما إذا لاحقه الخزي والعار لأنه لم يتغلب على الكراهية الاجتماعية، فسيجد أن زمن الرعاية المستنيرة (التي كان الحكام يقدمونها للمثقفين) قد ولى، وأن عليه منذ ذلك اليوم أن يبحث عن لقمة العيش، وأنه ليس مخطئاً إذا تحمس للحصول على دعم الفئة التي تستمتع بنتاجه الفكري، ولا جرم أن هذا التفسير لا يطبق على «المثقف» الصادق الذي يخضع لقوانين دولته دون أن يسمح لها بأن تمس مبادئه، فقد ترك لقيصر ما لقيصر، أي ربما ترك له التحكم بحياته وليس أكثر من ذلك، وصفوة ما انتهيت إليه أن نموذج «المثقف» الصادق يتمثل في فوفنارج ولامارك وفرينل، هؤلاء الذين لم تؤثر فيها الوطنية القومية على أنهم لم يدخروا جهداً

في أداء واجبهم الوطني؛ وكذلك أمثال سبينوزا وشيلر وبودلير وسيزار فرانك الذين لم تحِد قلوبهم عن حب الجمال والإلهيات بالسعي وراء كسب العيش، ولكن مثل هؤلاء «المثقفين» يندر وجودهم، ومن هنا فإن الاستهانة بالمعاناة ليس من طبيعة القانون البشري حتى بين فئة «المثقفين»؛ فقانون البشر هو أن الكائن الحي المقضي عليه بالكفاح من أجل الحياة عليه الاهتمام بالمشاعر العملية، ومن ثمَّ يتحول إلى تقديس هذه المشاعر، وغني عن البيان أن المعتقد الجديد «للمثقف» هو نتيجة الظروف الاجتماعية المفروضة عليه، وأن الشر الحقيقي الذي يستحق الشجب ليس «خيانة المثقفين» فقط، بل اختفاؤهم، وصعوبة أن تحيا حياة «المثقف» في هذا العالم اليوم، ومن أعظم أخطاء الدولة الحديثة أنها لم تحافظ على فئة من الناس (وهل تستطيع فعل ذلك؟) غير مبالين بالواجبات المدنية، ينحصر دورهم في الحفاظ على القيم غير النفعية؛ وهنا تتحقق نبوءة رينان؛ إذ تنبأ بحتمية انهيار المجتمع الذي يجبر كل فرد فيه بتنفيذ المهام الدنيوية والمادية، رغم أن رينان نفسه كان من النوع الذي لم تمنعه هذه العبودية - على حد تعبير أحد رفقائه - «من التنفس حسب تعليمات السماء».

وليس من العدل أن نفسر وجود المشاعر السياسية عند «المثقف» المعاصر من منظور المصلحة الشخصية فقط، وسيتم تفسير ذلك أيضاً بطريقة أبسط: من منظور الحب، ذلك الاتجاه الذي يلهم كل فرد بصورة بديهية أن يحب الجماعة التي ينتمي

إليها بدلاً من جماعات أخرى على أرضٍ أخرى؛ كذلك قد يكون السبب في المعتقد الجديد الذي أثر في «المثقف» هو التغييرات التي طرأت على القرن التاسع عشر، فعندما منحت العصبيات القومية ترابطاً لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت، كان دورها أنها دعمت المشاعر التي كانت مجرد احتمال في دول كثيرة قبل تلك الفترة؛ ومن الواضح أن الارتباط بعالم الروح كان أسهل لأولئك الذين كانت لديهم القدرة على ذلك عندما لم تكن هناك أمم يحبونها، والواقع أن الظهور الحقيقي للمثقف توافق مع سقوط الإمبراطورية الرومانية، أي في الوقت الذي انهارت فيه الأمم العظمى ولم تخرج الأمم الصغرى إلى النور بعد، كذلك نلاحظ أن عصر عشاق الروحانيات، مثل عصر توما الأكويني وروجر بيكون وجاليليو وإراسموس، كانت أوروبا حينها تعيش في فوضى والأمم فيها غير معروفة؛ وأن المناطق التي احتفظت بتأملاتها لمدة أطول كانت ألمانيا وإيطاليا[119]، أي آخر المناطق التي ظهرت فيها القومية؛ والتي توقفت عملياً عن إنتاج تأملاتها الخاصة من اللحظة التي صارت فيها أمماً قومية. وبديهي أن تقلبات عالم المشاعر لم يؤثر في «المثقف» الصادق، فهزائم بلاده، أو حتى انتصاراتها، لم تمنع

---

(119) وأذكر في عام 1806، مباشرة بعد معركة يينا (Jena)، كانت إحدى أفكار هيجل أن يجد زاوية كي يبحث في الفلسفة، وفي عام 1813 كان شوبنهاور لا يبالي تماماً بانتفاضة الألمان ضد نابليون.

أينشتين ونيتشه من تبني أي اتجاهات إلا الاتجاهات الفكرية؛ فعندما بيّن جوليس لومتر أن صدمة سيدان (Sedan) جعلته يفقد عقله، فإن رينان رد بأنه احتفظ بعقله، وأن العاقل الحكيم هو من يُصدم في أي شيء إلا في المصالح الدنيوية[120].

في الحالات التي ذكرتها، كان إخلاص «المثقف» لبلده أو للطبقة المنتمي إليها صادقاً، سواء كان هدفه المصلحة أو مستمداً من الحب، ولكني أرى أن هذا الإخلاص ليس مستمراً لديه، إذ يبدو أن الحياة الروحية سبب في نشر مبدأ العالمية بشكل حتمي، ومشاعر الحياة الآخرة (الأبدية)، وفي الكفر بالتقاليد الدنيوية، ويبدو لي الإخلاص للمشاعر القومية خصوصاً، لا سيما عند رجال الأدب، أنها فضيلة البسطاء، والتي يتفق الجميع على أنها ليست نعتاً لهذه الفئة من الناس بغض النظر عن تقديرهم الذاتي، ومن الصعب أيضاً إقناعي أن دوافع مواقفهم العامة عند الفنانين هي مجرد دوافع بسيطة

---

(120) «لا يحق لأحد أن يكون غير مبالٍ بمِحن وطنه؛ ولكن الفيلسوف دائماً لديه أسبابه في العيش مثله مثل المسيحي، فملكوت الله لا يعرف منتصرين أو مهزومين؛ فهذا الملكوت يستقر في القلب والعقل والخيال، الذي ينعم به المنهزم قبل المنتصر إذا كان أخلاقياً في مستوى أعلى ويتمتع بعقلانية وحكمة، لقد تعلمنا من جوته العظيم وفيشته اللذين يحترمهما الجميع كيف نحيا حياة سامية وسعيدة عندما يُساء إلى بلدنا في الخارج» (الخطاب الأول إلى شتراوس)

كالرغبة في العيش والمأكل، لذا أبحث وأجد أسباباً أخرى لواقعية «المثقف» المعاصر، فهي أقل صلة بالمعيشة من تلك الرغبات، ولكنها مع ذلك عميقة، وهي تظهر وكأنها تناسب رجال الأدب، خاصة في فرنسا، البلد الذي يختلف موقف كُتّابها في نصف القرن المنصرم عن أسلافهم.

وأرى أن مصالحهم المهنية هي السبب الأول؛ فمن الواضح أنه في غضون القرنين الماضيين كان رجال الأدب الذين حققوا شهرة كبيرة في فرنسا قد تبنوا موقفاً سياسياً - على سبيل المثال، فولتير وديدرو وشاتوبريان ولامارتين وفيكتور هوجو وأناتول فرانس وباريس، فالشهرة الحقيقية لأغلبهم ترجع إلى اللحظة التي تبنوا فيها هذا الموقف، وهذا المبدأ لم يهمله من جاءوا بعدهم، ولكن اليوم ربما يقال إن أي كاتب فرنسي يريد شهرة واسعة (والتي تعني أن كل كاتب يُمنح السمة الحقيقية للأديب) يريد أيضاً أن يؤدي دوراً سياسياً شاء ذلك أم أبى، تلك الرغبة التي قد يكون لها دوافع أخرى، ومثال ذلك، أن تلك الرغبة ظهرت لدى باريس ودانونزيو من الرغبة في «الفعل»، أن يكون أكثر من مجرد «رجل يجلس على مكتب»، ليحيا حياة «الأبطال» وليس عيشة «الكتبة»؛ كما حدث مع رينان عندما كان مرشحاً في البرلمان، ودفعه إلى ذلك رغبته في خدمة الناس، ولعل رغبة الكاتب المعاصر في أن يكون رجل سياسة قد جاءت من عرض الرأي العام هذا المنصب، فأبناء الوطن الذي كان يعيش فيه راسين ولابروير كانوا سيضحكون في

وجوههم إذا ما فكروا في نشر آرائهم بشأن الموافقة على الحرب مع هولندا أو شرعية مجالس ضم البلاد المجاورة (Chambres de reunion)، وعلى الإجمال، إن صناعة «المثقف» الحقيقي في الماضي أسهل منه الآن.

توضح هذه الملاحظات لماذا يرغب الكاتب الفرنسي دائماً في تبني موقف سياسي، ولكنها لا تفسر لِمَ يتجه هذا الموقف إلى دعم السلطة الاستبدادية، فالليبرالية هي أيضاً موقف سياسي؛ فهذا الموقف على الأقل نادراً ما كان يتبناه «المثقف» الفرنسي المعاصر أثناء العشرين سنة الماضية، وهنا يظهر عامل آخر؛ وهو رغبة الكاتب العملي (النفعي) في إرضاء البرجوازيين الذين يصنعون له الشهرة وهم مصدر الاحترام له، وربما يقال إن هذا النوع من الكتّاب زاد الحاجة للتعامل مع اتجاهات تلك الطبقة بإذعان وخضوع عن ذي قبل إذا حكمتُ على مصير هؤلاء الذين تجرؤوا على مجابهتهم في السنوات الأخيرة، مثل زولا ورومين رولاند، أما اليوم فالطبقة البرجوازية التي يقلقها تقدم الطبقة المعارضة فلا تهتم إلا بالحفاظ على الامتيازات المتبقية لهم ولا يُكنون في صدورهم إلا الكراهية تجاه المذهب الليبرالي؛ والأديب الذي يرفع راية السياسة مضطر إلى أن يشير براية «النظام» إذا أراد أن يحصل على امتيازات، وفي هذا السياق تعد حالة باريس (Barrès) هي أفضل مثال على ذلك، فقد بدأ مثقفاً يؤمن بمذهب الشكوكية، وبدأ يلمع نجمه في عالم المادية، على الأقل داخل وطنه، في

اليوم الذي جعل من نفسه رائداً في «التعصب الحتمي»، إن مثل هذه الأمور تجعلني أصدق أن النهج السياسي للكُتّاب الفرنسيين سوف يدوم طويلاً، والظاهرة التي أحدثها قلق البرجوازيين الفرنسيين لا تبدو أنها ستختفي سريعاً[121].

ذكرت هذا القدر من الكُتّاب الذين كانوا في السنوات الأخيرة قادرين على التصدي للمشاعر البرجوازية، وهذه هي مجرد واحدة من سمات ظاهرة جديدة ذات صلة وثيقة بالموضوع الذي أتناوله؛ وأقصد بها الوعي الذي يشعر به كثير من الدنيويين بهيمنتهم العليا، والإصرار الذي يظهرونه لإرجاع أي كاتب إلى عقله إذا جرؤ على أن يقول شيئاً لا يريدون سماعه، ويظهر هذا التوجه لدى الدنيوي ليس في علاقته مع كُتّابه فحسب (وصحافته أيضاً - فالصحيفة التي لا تقدم للقراء الأخطاء التي تعجبهم تسقط في الحال)، بل يظهر بوضوح، وهو ما يلفت النظر، في علاقته مع معلميه الوعاظ من «رجال الدين» الذين يتحدثون إليه باسم السماء، إن الخطيب الذي يقف على منبر الوعظ الذي من المفترض أن يستنكر المشاعر القومية والذي وقف أمام غطرسة البرجوازية، سنراه قريباً وقد تشتتت جماعته (خاصة في فرنسا)، فلم يعد يتوعد هذا الجمع

(121) بالطبع، فأنا لا أشك في إخلاص جميع رجال الأدب الذين يفكرون بشكل «صحيح»، فالبعض سعيد لدرجة أن أكثر المواقف نفعاً هي تلك التي يتبنوها بإخلاص.

بالخوف من العقاب، وهم ما عادوا يؤمنون إلا بالواقع؛ لذا تراهم يشعرون أنهم هم أقوى وأهم منه، كذلك لا يستمعون إلى مواعظه إلا إذا أظهر الاحترام - حتى لا نقول التقديس - للغطرسة التي يبجلونها[122]، إن الإنسانية المعاصرة التي عزمت على أن يكون الذين أطلقوا على أنفسهم معلميها، سيصبحون خدامها وليسوا مرشديها، ويعلم معظم المثقفين ذلك يقيناً[123].

وإذا عدنا إلى الكاتب المعاصر والأسباب التي أدت إلى تبنيه الموقف السياسي - فهو بذلك ليس في خدمة الطبقة البرجوازية فقط التي دائماً ما تكون في حالة قلق، بل هو نفسه قد أصبح من البرجوازيين، يتمتع بالمكانة الاجتماعية والاحترام عند هذه الطبقة، إن ذلك الأديب البوهيمي قد اختفى عملياً على الأقل بين أولئك الذين انشغلوا بالسياسة، وبالتالي أصبح يبحث عن نمط الشخصية البرجوازية، ومن السمات الواضحة في هذه الشخصية هي الشغف بالاتجاهات السياسية

---

(122) نرى ذلك بوضوح في الحقد الذي يظهره البرجوازيون في فرنسا بأمر من «زعيمهم الروحي» كي يمنعهم من قراءة منشور يستمدون منه عقيدتهم، ويمكن قياس هذا التغيير إذا تذكرنا أن البابا أمر الكاثوليك الفرنسيين منذ قرن مضى بقبول القانون الذي صوتت عليه حكومة شارل العاشر ضد اليسوعيين، فانحنوا جميعاً لأوامره.

(123) في نهاية حرب الخلافة الإسبانية عندما احتُل شمال فرنسا، ألقى فينيلون خطباً عديدة أبلغ بها الشعب المحتل أن معاناتهم هي العقاب الحق لذنوبهم، تخيل كيف كانوا سيستقبلون من يجرؤ على إلقاء مثل هذه الخطب في فرنسا في أغسطس 1914!

للأرستقراطية - أي ارتباطه بأنظمة السلطة التعسفية والمؤسسات العسكرية والكهنوتية، ورفضه للمجتمعات القائمة على العدل والمساواة المدنية ومذاهب الأولين... وما إلى ذلك؛ فكم من كاتب في فرنسا في غضون نصف قرن مضى، أو هؤلاء الذين يذكرهم كل صغير وكبير، يعتقدون علناً أنهم يضعون أنفسهم في مكانة النبلاء عندما يهينون المؤسسات الديمقراطية![124] وبنفس الطريقة يوجد تفسير لتبني الكثيرين منهم ممارسة القسوة والوحشية ظناً منهم أنهما من سمات الشخصية النبيلة.

نشأت الأسباب التي ذكرتها بخصوص المواقف السياسية الجديدة للأدباء من تغيرات في أوضاعهم الاجتماعية؛ تغيرات في تشكيل عقولهم وتطلعاتهم الأدبية ومذاهبهم الجمالية، وكذلك في أخلاقياتهم، وتبدو هذه الأسباب لي أنها تستحق اهتمام المؤرخين أكثر من أي شيء قد مضى.

وأول هذه الأسباب، مذهبهم الرومانسي، تلك الكلمة التي يقصد بها الرغبة التي ظهرت عند الكُتّاب في القرن التاسع عشر (ولكنها اكتملت في العقود الثلاثة الماضية) لتتناول موضوعات تتكيف بطريقة أدبية مع المواقف المهمة، ومن هنا

---

(124) يمكن إسقاط نفس الملاحظات على الفلاسفة، فأكثرهم لا يعيش اليوم مثل ديكارت وسبينوزا؛ ولكنهم متزوجون ولديهم أبناء، يشغلون المناصب ومشغولون بالحياة اليومية، وأرى أن كل ذلك يرتبط بالسمة «البراغماتية» لتعاليمهم وأفكارهم؛ في هذا الصدد انظر كتابي (Sur le Succès du Bergsonisme, page 207).

فطن الأدباء عام 1890 - تقريباً - خاصة في فرنسا وإيطاليا إلى أن عقائد السلطات الاستبدادية والأنظمة والتقاليد ونبذ روح الحرية والموافقة على أخلاقيات الحروب والعبودية كانت فرصاً لاتخاذ مواقف صارمة وقوية دون حدود للتأثير على العقول الساذجة بدلاً من عاطفة الليبرالية والإنسانية، والواقع في أمر ما يسمى بالمذاهب الرجعية، فهي تتأقلم مع الرومانسية التشاؤمية والرومانسية الازدرائية التي تركت أثراً عميقاً في نفوس العامة أكثر من الرومانسية الحماسية والتفاؤلية، وقد أثر موقف باريس ودانونزيو على العقول الساذجة أكثر من ميشليه وبرودون، علاوة على ذلك أن هذه المذاهب اليوم تُطرح باعتبارها قائمة على علمٍ و«تجربة خالصة»، ويُسمح فيها باستخدام الوحشية «الرقيقة» (رومانسية الفلسفة الوضعية) إذ لا يغيب عن عين الأديب تأثيرها على الناس، (وبالطبع أتحدث فقط عن الفئة الراقية؛ فالتشاؤمية الرومانسية لا قيمة لها عند الناس مهما كانت).

وهناك تحول آخر في الروح الأدبية عند الأدباء الذي ربما أراه سبباً في ظهور عقيدتهم السياسية، وهذا التحول الذي تقوم عليه تقريباً جميع أحكامهم، قد عد مؤخراً أن الموهبة التي يحترمونها هي حسهم الفني، فربما يقال إن الأدباء حتى العقود الثلاثة الأخيرة، على الأقل في أوروبا اللاتينية، متبعين في ذلك نهج اليونان كانوا يصدرون أحكامهم - حتى الأحكام الأدبية - بإرجاعها إلى الحس العقلي أكثر منها إلى الحس

الفني، علاوة على ذلك كانوا نادراً ما يرون أنفسهم متميزين عن أسلافهم، وتبرز تلك الملاحظة عند مفكري عصر النهضة ومن جاء بعدهم (الكتّاب الفرنسيون في القرن السابع عشر والقرن الذي يليه) وواضحة أيضاً عند من شهدوا بدايات القرن التاسع عشر رغم السمات التي ارتبطت بها، فلو أن ضعف الحس العقلي، وبصورة عامة، ضعف المذاهب الفكرية الراقية هي إحدى سمات المذهب الرومانسي الذي ظهر عام 1830، فإن نبذ هذا الحس أو الشعور لا يصنع أي سمات، إنَّ فيكتور هوجو ولامارتين وميشليه لم يغتروا بأنفسهم عندما احتقروا قيم العقل كي يقدروا قيمهم الفنية فقط، أما الآن، وفي عام 1890 تقريباً قامت ثورة لا يمكن المبالغة في تأثيرها، و صار الأدباء يشعرون بالفروق الأساسية بين الحس الفكري والحس الفني بعد أن اشتعلت تلك الثورة بفضل التحليل الفلسفي (القائم على أفكار برجسون)، فاختاروا الحس الفني دون تردد، فتلك هي الفترة التي سمعنا فيها أن الكِتاب تعلو قيمته إن حقق النجاح الفني والأدبي؛ فمحتواه الفكري ليس له جدوى وكل الموضوعات الجدلية ستؤول إلى نتيجة واحدة وهي ظهور من يدافع عنها، وأن الباطل لا يحمل خطأً أكثر من الحقيقة... إلخ[125].

---

(125) ذلك هو عصر «رجل الفكاهة» (الذي سيدوم طويلاً في فرنسا)، فرجل الفكاهة أنكره ماليبرانش في عبارته الجميلة: «الغبي والفكاهي يتساويان في ضعف البصيرة تجاه الحقيقة؛ ولكنّ هناك فرق بينهما، الغبي يحترم الحقيقة أما الفكاهي يحتقرها».

وقد أثر ذلك التغير الكبير في مواقفهم السياسية، فبديهي أننا بمجرد أن نرى في شيء أنه جيد فقط لأنه يلبي احتياجاتنا الفنية، فإن الأنظمة السياسية الحميدة هي فقط تلك التي تتسم بالاستبدادية، فالحس الفني تؤيده الأنظمة التي تميل إلى استخدام القوة والغطرسة أكثر من الأنظمة التي تميل إلى تأسيس مبادئ للعدل، ومن سمات الحس الفني حب الوقائع المادية وكراهية المفاهيم المجردة والمفاهيم العقلية البحتة، وفكرة العدل هي نموذج لهذه المفاهيم، وينمو الحس الفني بوجه خاص بمشهد مجموعة من العناصر التي يخضع بعضها إلى بعض حتى تصل إلى قمة الهرم الذي يهيمن على الجميع، في حين أن المشهد الديمقراطي، الذي يتكون من مجموعة عناصر لا يرأسها أحد، يجرد هذا الحس من إحدى احتياجاته الأولية[126]، إضافة إلى ذلك أن كل مذهب يمجد الإنسان العالمي، فيما هو مشترك ببين جميع الناس، يعد طعنة في صدر الفنان الذي من سماته (على الأقل منذ ظهور الرومانسية)[127]

---

(126) قد يرضي المشهد الديمقراطي نوعاً آخر من الحس الفني؛ أي النوع الذي لا تحركه الأوامر ولكن يحركه مشهد توازن القوى المتصارعة بصورة طبيعية، انظر: (M. Hauriou, Principes de droit public, chap. i)، ولكن الحس الفني للتوازن يميل إلى الفكري أكثر منه إلى الفني.

(127) تحديداً منذ ظهور الرومانسية المتعجرفة التي ذكرتها سابقاً، وترجع رغبة الفنان في الشعور بأنه مميز عن غيره إلى عصر فلوبير، أما هوجو ولامارتين فلم يعبرا عنها.

أن يضع نفسه في موضع مميز عن الآخرين، ويتأثر الحس الفني كذلك بالنفوذ الذي يعزوه الفنان في هذه الأيام إلى رغباته ونزواته التي يحققها («حقوق العبقري») وبالتالي كراهيته للأنظمة التي تقيد حرية عمل الإنسان في أعمال أخرى، وأخيراً نفور الفنان من أي شيء ذي طبيعة عمومية، بمعنى أي شيء يتعلق بالإدراك وليس بالإحساس[128]، إنَّ اعتزام الأدباء على إصدار الأحكام التي تناسب إدراكهم الفني فقط هو أحد سمات رغبتهم (منذ ظهور الرومانسية) لتعظيم المشاعر على حساب الفكر، تلك الرغبة التي هي نفسها إحدى آثار تدهور المذاهب الفكرية، وعلى الإجمال، إن الموقف السياسي الذي يتبناه «المثقفون» يظهر وكأنه هنا نتيجة تغير كبير في حالتهم المزاجية.

ويبدو لي أن هذا الموقف نتج عن تراجع تدريس الأدب الكلاسيكي الذي يكوّن عقولهم، فالعلوم الإنسانية، بكل ما تتضمنه الكلمة، قد نشرت مذهب الإنسانية بكل أوجهه العالمية، على الأقل منذ عصر أروقة المعابد[129]. ولا أحد

---

(128) وهذا النفور شديد عند نيتشه بوجه خاص؛ (انظر كتابه «العلم المرح» حيث يتحول التعميم إلى ابتذال وسطحية وغباء)، ونيتشه، مثل أي فنان صادق، غير قادر على فهم أن إدراك السمات المشتركة قد يكون عملاً عبقرياً - على سبيل المثال، إدراك السمة المشتركة بين حركة الكواكب وسقوط التفاحة.

(129) حتى أن أبطال «العجرفة المقدسة» هاجموها بشدة؛ فبسمارك وفيلهلم الثاني و ناومان وهيوستن تشامبرلين، جميعهم لم يقبل بتدريس الأدب الكلاسيكي.

ينكر تدهور الثقافة الرومانية اليونانية عند باريس (Barrès) وجيله الأدبي مقارنة مع الثقافة عند تين (Taine) ورينان وهوجو وميشليه، حتى عند أناتول فرانس وبورجيه، ناهيك عن إدراك هذا التدهور عند تلاميذه، ولكن لم يمنع هذا التراجع في الثقافة الكُتّاب من احترام الدراسات الكلاسيكية، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك إحياءً لمذهب الإنسان العالمي، إنما لتعزيز الفكر «الفرنسي» أو على الأقل الفكر والعقل «اللاتيني» في فهم أصوله وإدراك الفرق بينه وبين فكر الآخر، ونلاحظ أن هذا التراجع في الثقافة الكلاسيكية عند الكُتّاب الفرنسيين يتزامن مع اكتشاف عظماء فلاسفة الواقعية الألمان مثل هيجل ونيتشه، اللذين أثرت عبقريتهما في الفرنسيين لأن تراجع المذهب الكلاسيكي عندهم قد حرمهم أحد الحواجز الحقيقية التي يمكن مواجهة تلك العبقرية بها[130].

ومن بين الأسباب التي أدت إلى ظهور ذلك الموقف السياسي الجديد بين الأدباء، ميولهم في إثارة المشاعر واحتياجهم إلى تجربة شيءٍ جديد والذي صار في السنوات الأخيرة أقوى، مما جعلهم يتبنون موقفاً سياسياً منحهم العاطفة والإثارة، فرواية بيلفيجور (Belphegor) ليست الوحيدة في سماء الأدب؛ وهذا كاتب فرنسي، ألقي عليه اللوم لاشتراكه في حزب سيعجَب التاريخ من تناقضاته طويلاً بصفته مفكراً في

---

(130) اعلم أن نيتشه أشاد فقط بفكر القدماء حتى عصر سقراط، أي حتى الوقت الذي بدأوا ينشرون مذهب العالمية (الإنسانية).

بدايات عام 1890؛ ورد على هذا العتاب فقال: «كنت أتبع مذهب بولونجر إذ يتبع صخب الأبواق»، ونفس المفكر دفعنا إلى إدراك أن دافعه الرئيس في «البحث عن تواصل مع العقول القومية» كان «لإشعال مشاعره بصورة أكبر والتي كانت على وشك أن تنطفئ»[131].

إنني لم أكن مخطئاً عندما قلت بأن عدداً كبيراً من الفلاسفة الأخلاقيين ممن سخِروا من الحضارة السلمية وعظموا حياة الحروب قد فعلوا ذلك لأن الحضارة السلمية تبدو لهم نوعاً من الملل أما الثانية فهي فرصة لإثارة المشاعر لديهم[132]، وربما نذكر كلام أحد المفكرين الشباب نقله أجاثون عام 1913: «لماذا لا نقبل بالحرب؟ ستكون ممتعة»، وربما يرد أحدهم فيقول: إن هذا القول مبالغ فيه لأحد الشباب، ولكن ماذا لو صدر هذا الكلام من رجل بلغ

---

(131) وهذا باريس الذي نقل عنه أنه قال لأحد المناصرين لقضية دريفوس عام 1898: «لماذا تتحدث معي عن العدل والإنسانية! وبماذا أهتم؟ بعض اللوحات في أوروبا وبعض المقابر!»، وأقر أحد فلاسفة الواقعية السياسيين في أحد الأيام بحاجته الأساسية في «الاستمتاع»، وأخبر سقراط منذ زمن طويل بروتاغوراس أن أساس مذهبهم هو التعطش للمشاعر.

(132) لا جرم أن السلمية والإنسانية والإيثار هي أمور رتيبة، وأن الفنون والعلوم والفلسفة تقدم فرصاً كافية «للمتعة» دون أن تشعل مذاهبها النار في كل مكان، ولكن هذا رأي شخص لديه رغبة شهوانية تجاه المشاعر.

الخمسين، أو أكثر من ذلك، أما عالم مثل رينيه كوينتون الذي شهد مأساة حرب 1914 قد أعلن قائلاً: «ماذا لو ذهبنا في نزهة إلى الحدائق»؟ لقد كان هذا العالم جندياً شريفاً ولكن ليس أكثر من فرينل ولامارك اللذين ربما يكونا قد أقرا بالحروب، ولكن ليست لأنها ترضي لذة الاستمتاع بها، فكل الذين ترددوا على مؤلف كتاب تأملات في العنف يعرف أن أكثر شيء يجذبه نحو أي فكرة هو تحقيق «المتعة» ولعل ذلك كان يثير غضب من يُطلَق عليهم العقلانيون، وهناك أيضاً عدد كبير من المفكرين في غضون الخمسين سنة الماضية تتضمن «فلسفتهم» دفاعاً واحداً فقط، ألا وهو متعة التخلص من التناقضات المزعجة؛ إذ تسعدهم رؤية الصواريخ التي تنطلق كالسهام فتقضي حاجة في أنفسهم وهي الوحشية التي ينشرونها كونها علامة على سمو العقل، إن هذا التراجع الاستثنائي في الأخلاق، سادية الفكر (الألمانية البحتة)، يصحبه عادة وبصورة واضحة جداً ازدراء لشخصية «المثقف» الصادق الذي يستمد متعته من ممارسة الفكر وينفر من العواطف والمشاعر، خاصة مشاعر العمل، تقدم أن الاتجاه السياسي للأدباء قد نتج عن تغير في الجزء العاطفي من عقولهم، وهو نفس التغيير الذي كنت قد ناقشته، أي تراجع المذاهب الفكرية والذي لا يعني تراجع العقل ذاته[133].

---

(133) الفلاسفة الواقعيون ليسوا الوحيدين الذين وجدوا اليوم =

تبنى كثير من «المثقفين» المعاصرين هذه المذاهب الواقعية، باعتراف منهم، لأنهم أرادوا وقف تلك الفوضى الأخلاقية التي قادهم إليها المشهد الفلسفي، إذ «لم يجدوا اليقين في أي فلسفة»، والتي انهارت جميعها فوق بعضها البعض لأنهم تضرعوا إلى السماء يشكون مبادئها المتناقضة، أقول وأكرر إن الموقف السياسي الذي اتخذه «المثقف» كان نتيجة انهيار شديد في مذهبه الفكري، سواء رأينا أن هذا الانهيار نابع من إيمانه بأن سيجد الحقيقة في الفلسفة، أو أننا نظن أن هذا الانهيار يكمن في عدم قدرته على الوقوف على أنقاض المدارس الفكرية مكرساً نفسه للعقل، الذي يعلو كل المدارس، وهو الحكم بينها كلها.

وضرورة لا محيص عنها أن أذكر سبباً آخر من أسباب الواقعية لدى «المثقفين» المعاصرين وهو السخط الكامن بداخلهم بسبب نشرهم لأفكار السلف - وأقصد هنا بعض الرواد في عام 1848، برؤيتهم المثالية وإيمانهم بأن العدل والحب كانا على وشك أن يصبحا جوهر روح الأمم، سخط ازداد بشدة لأنهم رأوا فرقاً كبيراً بين تلك النبوءات والأحداث التي تلتها، والجدير بالذكر هنا أن «المثقفين» المعاصرين ردوا

= فرصاً للمشاعر في مواقفهم السياسية، فمن المؤكد أن إنسانية فيكتور هوجو وميشليه بعيدة عن الانعكاس الفكري البحت الذي يملكه سبينوزا وماليبرانش (انظر الفرق بين الإنسانية والمذهب الإنساني، الفصل الثالث).

على تلك الأخطاء بلعن المثالية، سواء كانت تصورية أم لا، وبذلك أظهروا عجزهم عن التمييز بين الأنواع وعدم قدرتهم على التغلب على المشاعر عند إصدار الأحكام، وهذا ليس إلا وجهاً واحداً من فقدانهم للسلوك الطيب للعقل.

وخلاصة القول في أمر أسباب تغير «المثقفين»: فرض الاهتمامات السياسية على جميع الناس دون استثناء؛ وزيادة التوافق في الأمور المتصلة بالمشاعر الواقعية؛ ورغبة الأدباء وقدرتهم على ممارسة الدور السياسي؛ وحاجة مصالح شهرتهم لممارسة لعبة الطبقة التي تصبح أكثر إلحاحاً يوماً بعد يوم؛ وازدياد ميول «المثقفين» ليصبحوا من الأرستقراطيين وقبولهم لغرورهم؛ واكتمال مبادئ الرومانسية لديهم؛ وتراجع المعرفة بالتراث ومذاهبهم الفكرية، ومن الواضح أن تلك الأسباب برزت من ظاهرة معينة تعد سمة أساسية في العصر الحاضر، وزبدة كل هذه الآراء أن الواقعية السياسية عند «المثقفين»، وهي ليست مجرد واقع سطحي نتج عن نزوات مؤقتة لهذه العصبة، تبدو لي أنها جوهر العالم الحديث.

الفصل الرابع

الملخص - التوقعات

وإجمالاً: إذا نظرنا إلى الإنسانية المعاصرة من وجهة نظر وضعها الفيلسوف الأخلاقي كما كشفتها الحياة السياسية، أرى (أ) كتلة حققت فيها مشاعرها الواقعية بصورتيها الرئيستين - المشاعر الطبقية والقومية - درجة من الوعي والتنظيم لم يعرفا من قبل؛ (ب) جماعة من الناس اعتادوا على معارضة واقعية الجماهير، ولكن من الآن لا تؤيدها فقط بل تتبناها أيضاً وتنادي بعظمتها وأخلاقيتها؛ باختصار، سنجد الإنسانية وقد استسلمت للواقعية (النفعية) باتفاق الجميع، وغياب التحديات وتقديس لمشاعرها لم يسبق له مثيل في التاريخ.

ويمكن طرح هذا الموضوع من زاوية أخرى، فالناظر في أحداث عصره في القرن الثاني عشر وخاصة في أوروبا، سيرى أناساً يجتمعون في تيه من عقولهم يسعون لتأسيس أمم قومية (سأذكر فقط أبرز وجوه هذا الاتجاه الواقعي)؛ وسيشهد في

البداية نجاحهم في ذلك؛ ثم يسعون للاستيلاء على أراضٍ فيشعرون برفعتهم وتميزهم عن الأمم المجاورة لهم، ولكنه في نفس الوقت سيشهد فئة سوية تسعى لمكانة أكثر مهابة فيعملون على تعطيل هذه الحركة، كذلك سيرى العلماء والمتعلمين والفنانين والفلاسفة يظهرون للعالم عقلاً لا يبالي بمفهوم الأممية ويستخدمون لغة عالمية فيما بينهم، وسيرى من يقدم لأوروبا القيم الأخلاقية وقد صاروا يدعون إلى ديانة إنسانية، أو على الأقل إلى دين المسيحية (وهي ديانة متخطية الحدود القومية) ولكن ليست قومية، فيدعون إلى إمبراطورية عالمية قائمة على أسس روحية، وربما يسأل هذا المتأمل نفسه فيقول: «أي من هذين التيارين سيتغلب على الآخر؟ هل ستتحول الإنسانية إلى تيار قومي أو روحي؟ هل ستعتمد على إرادة الدنيوي أو إرادة «المثقف»؟ فقضية صاحب الفلسفة الواقعية لن تنتصر بالكامل؛ والجسد الروحي سيظل وفياً لذاته طويلاً حتى يشك هذا «الناظر» في النتيجة، ولكن اللعبة قد انتهت اليوم؛ إذ صارت الإنسانية قومية وحُسمت المعركة للدنيوي، أما المثقف فلم يستسلم للهزيمة التي تلقاها ولكنه تعلم من الدرس جيداً، إذ ارتبط العلماءُ والفنانون والفلاسفة كثيراً بأوطانهم مثل ارتباط العمال والتجار، فهؤلاء الذين كانوا يقدمون للعالم قيماً صاروا يفعلون ذلك لأمتهم فقط؛ ورسل المسيح باتوا يدافعون عن الأوطان، وتحولت الإنسانية جمعاء بما فيها «المثقفون» إلى

طبقة دنيوية، واتبعت أوروبا بالكامل لوثر*؛ حتى إراسموس** اتبع لوثر.

قلت سابقاً إن الإنسانية في الماضي، وتحديداً الإنسانية التي ظهرت في أوروبا في العصور الوسطى بقيم فرضها «المثقفون»، كانت أفعالها شراً ولكن كانت تقدس الخير، ويمكن القول إن أوروبا الحديثة، ومثقفيها الذين قالوا بأن الفطرة الواقعية هي الأفضل، يفعلون الشر بل يمجدونه أيضاً؛ فأوروبا الحديثة كقاطع الطريق في إحدى قصص تولستوي عندما ذهب إلى راهب واعترف بخطيئته، فقال الراهب مذهولاً: «كل من سبق هذا الرجل على الأقل يشعرون بالخزي مما يفعلونه؛ أما هذا ماذا يمكن أن نفعل وهو فخور بما يفعل؟»

لو أننا سألنا أنفسنا ماذا سيحدث للإنسانية إذا تدافعت تلك الأمم بقوة أكبر لتتفاخر بمصالحها، ودفعت فلاسفتها الأخلاقيين إلى إعلان أن البلاد لا تعرف إلا قانون المصالح - ستجد أي طفل يستطيع أن يجيبك عن هذا السؤال؛ إن تلك الإنسانية تقود أكبر حرب في التاريخ سواء كانت حرباً بين الدول أو حرباً طبقية، فهي منافسة تمجد فيه إحدى هذه الأمم

---

* يشير الكاتب هنا إلى مارتن لوثر الراهب الألماني الذي عارض صكوك الغفران وأسس المذهب البروتستانتي.

** فيلسوف هولندي حاول التقريب بين المذهب الكاثوليكي والمذهب الإصلاحي (البروتستانت) فهُوجم من الطرفين.

أحد روادها (باريس Barrès) وترفعه إلى السماء لأنه يعلمهم: «ينبغي لنا أن ندعم الجانب الأهم فينا بصفتنا طائفيين»، في حين أن طائفة مجاورة تهتف باسم قائدها لأنه لما هاجم أمة صغيرة مسالمة قال: «الضرورة لا تعرف قانوناً» - فتلك المنافسة تؤدي حتماً إلى حروب حيوانية كما تحدث عنها رينان والتي تشبه، حسب قوله، حروب الحياة والموت التي تعيشها القوارض وآكلي اللحوم؛ وسنضع إيطاليا في الاعتبار مثالاً على الصراع الأممي، وروسيا مثالاً على الصراع الطبقي؛ سترى حينها أن روح الكراهية ضد ما هو «مختلف» بين الناس قد حققت درجة من التطور لم يشهدها التاريخ من قبل، وكذلك تفعل روح الواقعية، وفي النهاية يتحرر هذا التطور من الأخلاقية غير النفعية، إننا لم نخطئ التوقعات حين قلنا إن هاتين الدولتين قد أشاد بهما، في جميع أنحاء العالم، هؤلاء الذين يسعون لمجد أمتهم أو تفوق الطائفة التي ينتمون إليها.

لا تبدو لي هذه التنبؤات المظلمة أنها تحتاج إلى تعديلات كما يعتقد كثير من الناس، بسبب أن بعض الأعمال تتجه بشكل حاسم تجاه الحروب، مثل إعداد المؤسسات الدولية والاتفاقيات التي أبرمتها الدول المتنافسة مؤخراً، وقد فرض الوزراء على دولهم تلك المؤسسات الجديدة وليس برغبة منهم، يفعلون ذلك فقط بما تملي عليهم المصلحة (خشية الحرب وويلاتها) وليس بوازع التغيير في الأخلاقيات العامة، فربما تعارض تلك المؤسسات الحروب ولكنها تبقي على غريزة روح

الحرب، وليس هناك ما يجعلنا نفترض أن الدولة التي تقبل اتفاقاً لأسباب عملية لن تنتهك بنوده بمجرد أن يصير هذا الانتهاك مربحاً لأي من الطرفين، فلن يقوم السلام، إن وجد، على الخوف من الحرب بل سيقوم على حب السلام، كذلك لن يكون امتناعاً عن الفعل إنما نابعاً من الحالة الذهنية[1]، ومن هنا يستطيع أصغر كاتب أن يدعو إلى السلام في حين لا تستطيع المحاكم ذات النفوذ القوي فعل ذلك، علاوة على ذلك أن تلك المحاكم لم تتطرق إلى الحرب الاقتصادية بين الدول وحروب الطبقات.

ويجب أن نكرر ما قاله الآخرون بأن السلام يمكن تحقيقه فقط إذا تغير مفهوم الناس عن أن السعادة هي اقتناء أشياء «لا يمكن تقاسمها»، كذلك إذا ارتقوا بأنفسهم إلى نقطة يعلون فيها على الغطرسة، بمعنى آخر، يتحقق السلام بتحسين أخلاق البشر، ولكن كما أشرت لا يقتصر الأمر اليوم على صد الناس عن هذه المبادئ، بل إن الشرط الأول لتحقيق السلام مهدد بالخطر والذي يعد ضرورة لسمو النفس؛ وظهرت مدرسة في القرن التاسع عشر تدعو الناس إلى أن السلام يتحقق بالمصلحة الشخصية المستنيرة* وأن الحرب لا تأتي إلا بالكوارث حتى

---

(1) «السلام ليس عدم وجود الحرب، ولكنه فضيلة ولدت من قوة النفس» (سبينوزا).

* المصلحة الذاتية المستنيرة هي فلسفة أخلاقية تقول إن =

وإن كنت منتصراً، وتؤثر بشكل خاص في التحولات الاقتصادية وفي «تطور الإنتاج»، وباختصار، في العوامل الغريبة تماماً على التطور الأخلاقي، فمن العبث أن ننتظر أي شيء منها كما يقول هؤلاء المفكرون. لذا فإن تلك الإنسانية تدعو إلى تجاهل أي جهود لتحقيق السلام، حتى وإن كانت ترغب في تحقيقه؛ جهود لا تسعد بتنفيذها، وتواجه قضية السلام المحاطة دائماً بعوامل سلبية عاملاً جديداً في هذه الأيام وهو: السلمية التي تتظاهر بأن تكون حركة علمية[2].

ولعلي أشير في هذا السياق إلى أنواع أخرى من السلمية، على الأقل بين الأشخاص العقلانيين، والتي يؤدي أثرها الكبير إلى إضعاف قضية السلام:

(أ) النوع الأول، هناك سلمية أطلق عليها «المألوفة» وأقصد بهذا المعنى السلمية التي لا تفعل شيئاً إلا التنديد بالذي «يقتل»، وتسخر من التعصب للوطنية، وعندما أرى بعض الفلاسفة، حتى لو كان منهم مونتين أو فولتير أو أناتول

= الأفراد الذين يتصرفون من أجل مصلحة الأخرين يحصلون بالمحصلة على نفع ذاتي.

(2) وهنا مثال: «سوف يتحقق السلام العالمي في يوم ما، ليس لأن الناس سيصيرون أفضل، ولكن بسبب وجود نظام جديد للأمور وعلوم جديدة واحتياجات اقتصادية جديدة سوف تفرض حالة من السلام على الناس، مثلما كانت الظروف السابقة تجبرهم على الدخول في الحرب» (Anatole France, *Sur la Pierre blanche*).

فرانس، يقتصر موقفهم الكامل ضد الحرب على القول بأن قطاع الطرق ليسوا أكثر إجراماً من قادة الجيوش، والسخرية من أفرادٍ يقتل بعضهم بعضاً لأن فريقاً منهم يرتدي اللون الأصفر والآخر يرتدي اللون الأزرق، لذا فأنا أميل إلى ترك تلك القضايا التي يُبسِط أبطالها الأمور إلى هذا الحد، وكذلك بدأت أشعر بالشفقة تجاه حركات الدعوة إلى الإنسانية العميقة التي مهدت للقومية فأهينت الإنسانية[3].

(ب) **السلمية الصوفية**، والتي أقصد بها تلك التي تحركها فقط الكراهية العمياء للحرب وترفض أن تتبين ما إذا كانت تلك الحرب عادلة أم لا، هل هؤلاء المتحاربون هم الغزاة أم المدافعون عن أنفسهم، هل يريدون الحرب أم أنهم مجبرون عليها؟ وتنتمي هذه السلمية في الأساس إلى الشعب (وهؤلاء المسمون بالصحفيين السلميين) وتمثلت بقوة عام 1914 عند كاتب فرنسي لم يفعل شيئاً إلا أن قال «عندي خوف من الحروب» فأدان طرفي النزاع في حرب بين دولتين عندما اعتدت إحداهما على الأخرى ناقضة بذلك جميع العهود، في حين كانت الأخرى تدافع عن نفسها، ومن الصعب المبالغة في نتائج

---

(3) تنطبق هذه الملاحظة على كل الأعمال الأدبية تقريباً المناهضة للاتجاهات العسكرية حتى وقتنا هذا، وكي نجد كتاباً يتحدثون عن الحرب والمشاعر القومية بجدية واحترام بسبب هذه الدراما، إذاً فلا بد أن نذكر رينان ورينوفير.

هذا السلوك والذي أظهر للبشرية أن هذه السلمية الصوفية ربما تطمس تماماً معنى العدالة عند هؤلاء الذين يعانون منها، مثل روحانية السياسة العسكرية.

وإنني أرى سبباً آخر لدى الكتّاب الفرنسيين الذين وافقت آراؤهم موقف رومان رولان عام 1914 - وهو الخوف من الوقوع في مفهوم العصبية القومية إذا اعترفوا بأن بلادهم على حق، وبديهي أن هؤلاء المفكرين كانون سيدعمون قضية فرنسا حتى وإن كانت فرنسا ليست موطنهم الأصلي، على الجانب الآخر يقول باريس (Barrès): «دائماً أرى وطني على حق وإن أخطأ»، كذلك لا يريد أصدقاء العدالة الأجانب أن يقولوا: «دائماً نرى بلادنا على خطأ وإن أصابت»، إجمالاً سنرى أن هوس الحياد، كأي هوس، يميل دائماً إلى الظلم.

وفي هذا السياق أود أن أذكر شيئاً حول قسوة هؤلاء «المحبين للعدل» تجاه موقف فرنسا بعد انتصارها مباشرة، موقفهم تجاه رغبتها في إجبار العدو على أن يصلح الأضرار التي سببها لها وأن تطلب تعهدات إذا رفض العدو ذلك، ويتضح لي بشدة الدافع الذي حرك هؤلاء المفكرين دون إدراكهم ذلك، فقد رأوا أن الشخص العادل هو حتماً شخص ضعيف ذاق أشد أنواع المعاناة؛ فهو ضحية ظلم حاصل، أما إذا أصبح هذا الشخص العادل قوياً وبدأ يمتلك أسباب تطبيق العدل وتحقيقه لذاته، فإنه يصير غير عادل في نظر هؤلاء المفكرين، فلو أن سقراط والمسيح ثارا ضد من عذبوهما،

فإنهما بذلك لا يمثلان العدالة؛ فهي خطوة واحدة وسيصبح حينها هؤلاء الجلادون يجسدون الحق إذا كانوا من الضحايا، وهنا يستبدل بمفهوم العدل مفهوم سوء الحظ ورومانسية مسيحية لم نتوقعها في رجل كأناتول فرانس، لا جرم أن أحداث 1918 قد اضطرب لها سلوك المدافعين عن مبدأ الحق، فالحق المهان قد صار هو الأقوى، والتوجا المعتدى عليها قد انتصرت على السيف، أما الكرياتيون فهم المنتصرون، لعلنا نحتاج إلى صفاء ذهني كي ندرك أن الحق يظل حقاً حتى وإن ساندته القوة، إن دعاة السلمية في فرنسا قد افتقدوا لذلك الصفاء الذهني، باختصار، إن العاطفة سيطرت على موقفهم في السنين العشر الماضية، وليس هناك ما يبين مدى الضعف الذي لحق بالوضع الفكري بين «أمراء العقل» لدينا[4].

(ج) **السلمية التي تدعي الوطنية**، وأقصد بذلك السلمية

---

(4) لا أتحدث عن أن ادعاءات فرنسا بعد انتصارها قد تكون غير صحيحة، فبالنسبة للمفكرين فأنا أتحدث فقط عن تصورهم عن الأشياء غير الأخلاقية، لاحظ أن سلمية الكنيسة، على الأقل من بين كبار الوعاظ، لم تلهمها الاعتبارات العاطفية، ولكن التعاليم الأخلاقية البحتة؛ يقول القديس أغسطين: «ما الذي نرفضه في الحرب؟ هل لأنهم يقتلون رجالاً لا يحول بينهم وبين الموت إلا يوم واحد؟ الجبناء فقط الذين لا دين لهم هم من يتهمون الحرب بهذا، فما نرفضه في الحرب هو الرغبة في الإيذاء، والنفوس المليئة بالحقد والغل، والغضب النابع من الانتقام، ومشاعر الهيمنة» (اقتبس هذا النص توما الأكويني في *Summum*).

التي تطالب بتمجيد الإنسانية وتنشر بين الناس تراجع الروح العسكرية والمشاعر القومية، ولكن دون الإضرار بمصالح الوطن أو المساومة على قوة مقاومتها للدول الأجنبية، ويلاقي هذا الموقف - الذي ينتمي إليه جميع دعاة السلمية البرلمانيين - نفوراً كثيراً لدى العقول الشريفة إذ يعتقدون بأن الدولة لا تواجه أي تهديد وأن حقد الدول المجاورة ما هو إلا محض افتراء من أناس يريدون إشعال فتيل الحرب (وهذا ما يناقض تماماً الحقيقة)، ولكن يعد ذلك أحد أوجه حقيقة عامة ذات أهمية قصوى لموضوع أناقشه في الوقت الحالي.

وأعني بذلك إصرار «المثقف» على طرح مبادئه بصفتها مبادئ سليمة في النظام العملي، وأنها مبادئ يمكنها التكيف مع الدفاع عن فتوحات السيف، إن هذه العزيمة التي أثرت على الكنيسة لقرابة عشرين قرناً وتقريباً جميع المثاليين هي السبب الأول لفشل منهج «المثقفين» (لن تجد اسماً منذ عهد المسيح أعلن أنه لا يتوافق مع المنفعة)، ويمكن القول إن تراجع حال «المثقف» بدأ من اللحظة الفعلية التي ادعى فيها أنه عملي، تراجع «المثقف» فعلياً لما زعم أنه لا يستهين بمصالح الأمة أو الطبقات الرفيعة، فهيهات أن يدعو إلى مبدأ روحاني أو عالمي (إنساني) فيعكر صفو المؤسسات التي تقوم على الماديات والملذات والرغبة في الشعور بتميزها عن الآخرين، ويصف رينان «المثقف» الصادق ببراعة قائلاً «الوطن ما هو إلا حفنة من التراب؛ فمن يرغب في أن يلعب دور القديس سيكون مثالاً

للوطني الفاسد»، وهكذا رأينا أن «المثقف» الذي يتظاهر بأنه يحمي مصالح العالم لديه خيار بين نتيجتين، فإما أن يحميها ويخالف مبادئه (وهذه الحالة تستخدمها الكنيسة لدعم الأمة وممتلكاتها)، أو أنه يحافظ على مبادئه فتنهار المؤسسات التي طالب بدعمها (وهذه هي الحالة التي يطالب فيها أصحاب المذاهب الإنسانية بحماية كل ما هو قومي)، فأما الحالة الأولى يلقى «المثقف» رفضاً واحتقاراً من دعاة العدالة والإنصاف الذين يصفونه بأنه منافق فيخرجونه من فئة «المثقفين»؛ وأما الحالة الثانية فيسقط «المثقف» في الهاوية بسبب صيحات المدافعين عن الوطن الذين يصفونه بالضعيف؛ إذ يظهر رد فعل عنيف ذي صيحات عالية بشأن الواقعيين، كما يحدث في إيطاليا الآن (إشارة إلى حكم موسوليني)، وصفوة ما انتهيتُ إليه أن قوة «المثقف» هي في إدراك طبيعته الأساسية ووظيفته الحقيقية بوضوح، ويُظهر للبشرية أنه يحس بها ويفهم مقاصدها، بمعنى آخر يعلن لهم أن مملكته لا تنتمي إلى هذا العالم؛ **وأن أفكاره السامية في عدم سعيه وراء القيم المادية؛ وأن الأخلاق التي تتكيف مع رفاهية الممالك التي تنتمي إلى هذا العالم ليست من شيمه إنما هي للقياصرة**، إن قبول «المثقف» هذا اللقب قد وضعه بين المطرقة والسندان ولكنه حقق له التقدير والاحترام، وعُلقت كلماته في أذهان البشر[5]، إن

---

(5) أعتقد أن عبارة «مملكتي لا تنتمي إلى هذا العالم» يقولها الذين =

ضرورة تذكير «المثقفين» المعاصرين بهذه الحقائق (وهم جميعاً يكرهون أن نصفهم بالمثاليين) هي واحدة من أهم الملاحظات في موضوعنا؛ فهي توضح أن التوجه نحو المادية قد صار أمراً عاماً، وأصبحت المطالبة بها ضرورية لكسب الجمهور، إلى ذلك استحالت فكرة «أن تكون مثقفاً» إلى الغموض، حتى عند هؤلاء الذين ما زالوا يميلون إلى مزاولة هذه المهنة.

ويتضح مما ذكرت أنني هجرت هؤلاء الذين يريدون أن يحكم «المثقف» العالم، ومن يرغبون مع رينان في أن يسود «حكم الفلاسفة»؛ وأرى بذلك أن البشرية ستتبنى مذهب «المثقف» الصادق وأفكاره، فتستحيل إلى قدسية دينية تتلاشى بها الصفة البشرية، ويظهر ذلك بوضوح في أولئك الذين يحبون من له قدسية دينية ولم يرغبوا في هدم الصفة البشرية فيهم، وعبر عن ذلك ماليبرانش في كتابه تأملات مسيحية (Méditations chrétiennes) عندما أجرى حواراً على لسان المسيح مخاطباً أحد حوارييه: «لن أعلمك يا بني حقيقة جوهرك الداخلي... فإنك إن رأيت ما بداخلك فلن يكون بينك وبين جسدك وصال،

= لا تهدف أعمالهم إلى أغراض مادية: الفنان، عالم الميتافيزيقا، العالم **ما دام أنه يجد ما يرضيه في ممارسة العلم وليس في النتائج،** ويقول لي الكثيرون إنهم هم «المثقفون» الصادقون وليس المسيحيين، لأن المسيحي يقبل فكرة العدل والخير من أجل الخلاص الشخصي. ومع ذلك لا أحد ينكر أنه يوجد أناس، حتى وإن كانوا مسيحيين، يتبنون هذه الأفكار بدون أغراض مادية.

ولن تحرص على حياتك كما كنت قبل ذلك»[6]، فلو أنني قلت بأن سيطرة مذهب «المثقف» على العالم الدنيوي ليس شيئاً محموداً، فإنني ما زلت أرى بأن عدم نشر دعوته بين طبقة الدنيويين سيكون شيئاً عسيراً، وبالتالي سيُفتح له باب الاستسلام للمشاعر المادية دون أن يشعر بأي حرج أو على الأقل برغبة في أن يزهد في تلك المشاعر ولو حتى بشيء من النفاق، ويقول أحد فلاسفة الواقعية في الفلاسفة السابقين «هناك بعض المنصفين الذين يمنعونني من النوم»، أما نيتشه وباريس وسوريل فلم يمنعوا الواقعيين من النوم، فهذا ما أحببت أن أشير إليه والذي أراه شيئاً خطيراً، فالإنسانية التي تملكت منها ملذات الحياة أكثر من الماضي، تتلقى اليوم من زعمائها الروحانيين موعظة بأن «تنال نصيبها من الدنيا».

هل سيدوم تبني النوع البشري «للواقعية المتكاملة» أم أنها وقتية فقط؟ هل سنشهد بداية جديدة لحقبة العصور الوسطى كما يقول بعض الناس (بل ربما أكثر وحشية مما سبق، فمع أنها مارست الواقعية فإنها لم تحترمها) والتي سيخرج منها عصر نهضة جديد وعودة إلى عقيدة التجرد؟ فالعناصر التي وجدناها تؤلف الواقعية تجعل الأمل في ذلك ضعيفاً، فنادراً ما نجد أمة لا تحارب من أجل أن تكون في منزلة أعلى من غيرها، أو أن يكون لديها هدف آخر غير حشد الكراهية بين الناس تجاه فئة

---

(6) (Malebranche, Méditations chrétiennes, ix, 19)

معينة، ومن الصعب أن نجد «مثقفين» يستعيدون تأثيرهم على أتباعهم ويخبرونهم بحقائق مؤلمة دون أن يواجهوا أذى، كذلك ليس سهلاً أن تجد مجموعة من الأدباء يقفون في وجه الطبقات البرجوازية ولا يتملقون لهم، وما زلت أرى صعوبة في أن نراهم يحيدون عن تيار الانحطاط الفكري ويتوقفون عن رؤية أنفسهم يقدمون حضارة راقية عندما يسخرون من الأخلاق العقلانية ونراهم في وضع صعب في مواجهة التاريخ.

ومع ذلك يرى البعض أن الإنسانية التي أشبعت بغطرستها المقدسة والمذابح التي قادتها قسراً، سوف تظهر مرة أخرى كما ظهرت منذ ألفي عام تُقبل على الخير الذي ينتظرها إقبالاً لم تشهده من قبل، وهنا قد علمت مقدار الدم والدموع التي ذرفت عندما هجرت هذا المذهب الإنساني، وهنا تثبت صحة كلمات فوفنارج مرة أخرى حين قال: «المشاعر علمت الإنسان المنطق»، ربما يتحقق هذا بعد مرور مدة من الزمن، حينها تكون الحرب قد سببت أحزاناً وخلفت وراءها فواجع وويلات لا تستطيع البشرية تحملها، فلن يغير الناس قيمهم من أجل حروب استمرت خمسين شهراً وقتلت مليوني إنسان في كل بلد طالتها الحرب*، وقد يشك أحدهم في أن الحرب ستصير أكثر بشاعة للدرجة التي تثبط همة هؤلاء الذين يحبونها ويمجدونها،

---

* إشارة إلى الحرب العالمية الأولى وتحقق حدوث الثانية بعد صدور الكتاب بعقد.

ستصير كذلك طالما أنهم هم الذين لا يقاتلون بأنفسهم.

لما وضعتُ حداً لنظرتي التشاؤمية واعترفت بأن هذه النهضة وشيكة الحدوث، فلم أقصد أكثر من مجرد احتمال، فإنني أخالف هؤلاء الرأي بأنها واقعة لا ريب، ففريق يرى أنها حدثت مرة من قبل والآخر يرى أن «الحضارة هي نتاج الجنس البشري»؛ والحضارة التي عرّفتها هنا - تفوّق أخلاقي ينتج عن عقيدة دينية ومشاعر إنسانية - لم تقع إلا مصادفة ضمن تطورات الإنسان التي ازدهرت منذ ثلاثة آلاف سنة في ظل مجموعة من الظروف أدرك طبيعتها التصادفية أحد المؤرخين فأطلق عليها «المعجزة اليونانية»، فلا أرى مطلقاً أن تلك الحضارات قد قامت على أيدي الجنس البشري بفضل طبيعته، فهي أمر قليل الحدوث جداً لدرجة أنني وجدت عدداً كبيراً من البشر الذين أظهروا عجزهم عن القيام بذلك ومن المحتمل أن يظلوا على هذا العجز (العالم الآسيوي في الماضي والعالم الجرماني في الحاضر)، وهذا يعني أن الإنسانية لو فقدت تلك الجوهرة فلن تتاح لها الفرصة مرة أخرى للحصول عليها، كرجل وجد حجراً كريماً في البحر ثم ألقاه في الماء، فهل يستطيع مرة أخرى أن يرى ذلك الحجر؟ وإني لأشك في كلام أرسطو الذي يرى بأنه من المحتمل أن تكون الفنون والفلسفة قد اختفت وتلاشت مرات عديدة، وهناك رأي آخر يقول بأن الحضارة هي من الأشياء التي لا يمكن للإنسانية أن تفقدها، رغم سقوطها عند بعض الأمم، ولكن يتراءى لي هذا القول بأنه لا قيمة له إلا إذا

كان وسيلة للحفاظ على الخير الذي نريده؛ ولا أرى تعارضاً كبيراً لما قلته حين أشار أحدهم إلى أن الحضارة التي اندثرت بانتهاء عصر القدماء، كان لها نهضتها الخاصة. يعرف كل إنسان أن الفكر الروماني - اليوناني كان بعيداً تماماً عن الاندثار في العصور الوسطى وأن القرن السادس عشر كان نتاجه الفكري قد أعاد إلى الحياة ما لم يكن زال واندثر؛ وأضيف إلى ذلك القول أن هذا الفكر حتى لو «ولد من جديد» من العدم، فإن حقيقة كون ذلك هو المثال الوحيد ليست كافية لإقناعي، على الرغم من أن حدوث ذلك بالفعل، كاف لأن يجعلني قلقاً فقط.

وضرورة لا محيص عنها الإشارة في هذا السياق إلى عدم الاكتراث بعدد الأمثلة القليل التي ضربت في التاريخ والتي يمكن بواسطتها إيجاد قانون يصلح لتطور الإنسانية في الماضي والمستقبل؛ فيقول الفيلسوف الإيطالي فيكو (Vico) بأن التاريخ هو سلسلة من التناوبات بين عصور تقدم وعصور تخلف؛ وضرب مثالين في ذلك، ويرى سان سيمون (Saint-Simon) أن التاريخ هو مجموعة من التقلبات بين فترات ازدهار وسنوات انحدار؛ وذكر مثالين، أما ماركس فيرى في التاريخ مجموعة من الأنظمة الاقتصادية، يأتي كل نظام ليلغي ما سبق متوسلاً بالعنف؛ وضرب مثالاً واحداً، وبديهي أن يقول قائل إن هذه الأمثلة قد لا تكون كثيرة لأن الحقب التاريخية قصيرة المدة، على الأقل التاريخ الذي نعرفه، والحقيقة وراء هذا الرأي أن

التاريخ لم يستمر زمناً طويلاً بالقدر الكافي لنستنبط منه قوانين تشير إلى ملامح المستقبل من الماضي.

إن الذين فعلوا ذلك هم كالرياضي الذي حدد طبيعة المنحنى من النموذج الذي وجده عليه في بدايته الفعلية، ومن هنا إن الاعتراف بأن التاريخ البشري لآلاف السنين ما هو إلا مجرد بداية يتطلب تحولاً فكرياً بعض الشيء، ولا أستطيع أن أخفي عدم إعجابي بالقيمة العقلية النادرة التي تظهر في دي لا بروييز (La Bruyère) - في نظري - عندما كتب الأسطر التالية في عصر ظنه الناس بأنه قمة التطور البشري: «إذا استمر هذا العالم الذي نعيشه ليصل إلى مائة مليون سنة، فإنه لا يزال في مراحله الأولى، بل مجرد بداية؛ فإننا تقريباً معاصرون للإنسان الأول والبطاركة الأُول، فهل يستطيع هؤلاء الذين سيأتون من أزمنة بعيدة أن يخلطوا بيننا وبين السابقين؟ إننا إن حكمنا على المستقبل من الماضي، فما هي الأشياء الجديدة التي نجهلها في الفنون والعلوم والطبيعة، بل ربما في التاريخ؟ وما هي الاكتشافات التي ستحدث؟ وما هي الثورات المختلفة التي ستندلع في إمبراطورياتنا في جميع أنحاء العالم؟ فهل هذا جهل منا؟ أم كانت تلك التجربة التي دامت ستة آلاف أو سبعة آلاف عاماً قليلة وعديمة النفع!»

وجملة ما يقال: إن النظر في التاريخ قد يؤدي إلى تنبؤات صحيحة تتعلق بمستقبل الفرد، لكن ربما تخالف هذه التنبؤات

استعادة الثقة في بناء تلك الحضارات، فالناس تناسوا أن المذهب العقلي في العصر الهلنستي قد نشر الفكر التنويري في العالم في غضون سبعة قرون فقط، وأنه اندثر لمدة اثني عشر قرناً، وبدأ يلمع نجمه من جديد لأربعة قرونٍ فقط؛ ولهذا كانت أكبر مدة زمنية متتالية في التاريخ البشري نستطيع أن نبني عليها استنتاجات كانت فترة ظلام فكري وثقافي، وبالنظر والتحقيق في التاريخ نستطيع القول بطريقة نظرية إن الإنسانية تعيش في ظلام شبه دائم باستثناء حقبتين أو ثلاثة، قصيرة الأجل ولكنها عصور مشرقة امتد نورها مثل بعض الكواكب ليشمل العالم أجمع حتى بعد زوالها؛ في حين أن الأعمال الأدبية تعيش حالة انحطاط والكائن الحي في تدهور، وإذا ازدهر حيناً من الدهر فإنه لا يدوم طويلاً، وما نراه مزعجاً أن الإنسانية لا تنتبه إلى هذه الأزمنة المديدة من ظلام الكهوف.

إذا عدنا إلى واقعية المعاصرين واحتقارهم لحياة التجرد، ينبغي أن أضيف بأن سؤالاً مخيفاً يدور داخل عقلي أحياناً، فأتساءل: هل وجدت الإنسانية، عندما تبنت اليوم هذا النظام، قانوناً حقيقياً للتعايش واستخدمت ميزاناً فعلياً للقيم التي تتطلبها طبيعة تلك القيم؟ أقول الآن فقط إن مذهب الحياة الروحية أراه حادثاً عرضياً في التاريخ الإنساني، وأتابع القول بأن ذلك يبدو لي مفارقة، فالقانون البيّن لطبيعة الإنسان هو قانون الاستيلاء والغزو وتزيين الدوافع التي تبرر لهذا الغزو، إنه فقط بارتكاب «سيئة كبيرة» قام بها مجموعة من الأفراد يجلسون على مكاتب

فإنهم نجحوا في التأثير على البشرية وجعلها تصدق أن القيم العليا هي في الجوهر الطيب للنفس؛ أما اليوم فقد «استيقظت» الإنسانية من نومها وأدركت جوهرها الحقيقي ورغباتها الفعلية، وأطلقت صرخة الحرب في وجه هؤلاء الذين «سلبوها» من ذاتها لقرون، فبدلاً من إطلاق صيحة غضب على سلطانهم الزائل، ألم يتساءل هؤلاء المغتصبون (إذا بقي منهم أحد) لماذا استمر هذا الملك طويلاً؟ إن أورفيوس* لم يرغب في جذب الوحوش البرية بألحانه إلى الأبد، ومع ذلك لم يأمل أحد أن يتحول أورفيوس نفسه إلى وحش بري.

إلا إن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول بأن تعقيبي حول الرغبات الواقعية وتطورها الشديد لم يجعلني أنسى أن ارتقاء الناس بحسن الخلق وانتشار العدل والحب بينهم قد سُجل اليوم ضمن عاداتنا واعتمدته الدولة في قوانينها، على نحو يعجب له أكثر أسلافنا تفاؤلاً، كذلك هناك تطور كبير في العلاقة بين الأفراد داخل الجماعات المتصارعة - لا سيما داخل الأمة الواحدة حيث الأمن هو القانون السائد والظلم خزيٌ يلحق بصاحبه، وكي لا نحيد عن موضوعنا هذا، فربما لا ندرك مدى التحضر الذي يظهر في المعاملة الطيبة للسجناء، والإحسان للأسرى المصابين في الحروب التي دارت بين

---

* شاعر وموسيقي في الأساطير اليونانية كان عزفه يسحر كل المخلوقات من حوله.

الدول، وإنشاء مؤسسات خيرية عامة وخاصة، إن تجاهل هذا التقدم ومحاولة إثبات أن قسوة القلوب لم تكن أسوأ مما هي عليه الآن كانت موضوعات معتادة عند الشعراء والبائسين، بل ربما هم أنفسهم يحتاجون إلى هذا التقدم، ولكن المؤرخ يقف حائراً أمام هذا التحول في العنصر البشري، سواء نظر اعتباراً إلى الحروب بين الدول أو إلى الصراعات الطبقية، هؤلاء الذين كانوا منذ أربعة قرون فقط يحرقون السجناء في أفران الطهي، وفقط منذ قرنين خلا من الزمن حرموا العمال من صرف معاشات للمتقاعدين منهم.

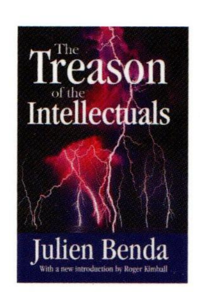
كذلك ينبغي الإشارة إلى أن هذه التحولات في أخلاق الناس لا يمكن أن تُنسب إلى العصر الحالي، إذ إنها ثمرة تعاليم رواد القرن الثامن عشر وأفكارهم، الذين انقلب عليهم «رواد الفكر المعاصر»، ففكر عربات الإسعاف في الحروب وتنمية الأعمال الخيرية في الدولة كانت كلها من إنجازات الإمبراطورية الفرنسية الثانية (1852 - 1870) ولكنها ارتبطت بالشعارات الإنسانية لفيكتور هوجو وميشليه والتي لاقت قدراً كافياً من السخرية من فلاسفة عاشوا في نصف القرن المنصرم، فقد عاشوا يهاجمون هؤلاء المفكرين ولم نرَ واحداً منهم يقود حملة إنسانية حقيقية، في حين أن أكابر هؤلاء - نيتشه وباريس وسوريل - كانوا يخجلون إذا قالوا مثل ما قال فولتير: «أنْ أفعل الخير ولو القليل، فهذا أفضل ما بوسعي عمله»، وأحب أن أضيف أن تلك الأعمال قد صارت عادات بين الناس، أي

أن تلك السلوكيات صارت طباعاً لديهم على نحو لا إرادي ودون أن يفكر العقل في معانيها، وأظن أن فلاسفة هذا العصر لو فكروا فيها لحرموها على الناس، وهكذا أرى جيداً شكل الحروب في المستقبل عندما يقرر طرف ألا يعتني بأسرى الطرف الآخر المصابين، وإضرابات بسبب أن الطبقة البرجوازية قررت ألا تقدم الدعم للمستشفيات التي تعالج طبقة تسعى لمحوها وتصمم على هدم البرجوازية، وأرى الطرفين يتفاخران بنزع لباس «الإنسانية الساذجة»، هنالك يأتي تلاميذ نيتشه وسوريل يمدحون ذلك الفعل، وأعتقد أن موقف الفاشية الإيطالية والبلشفية الروسية تجاه أعدائهم يؤكد ما أقول، وعموماً ما يزال العالم يعاني من بعض القصور في استخدام النفعية البحتة، فهي بعض آثار المثالية التي عليه التخلص منها.

ذكرت آنفاً أن النهاية المنطقية «للواقعية المتكاملة» التي أعلنت عنها الإنسانية اليوم هي قتل الأمم أو الطبقات، ولكن ربما يكون هناك تصور ثالث وهو التصالح، الشيء الذي على الناس كافة أن يؤمنوا به وسيدركون في النهاية أن التوسل إلى ذلك لا يكون إلا بالاتحاد، في حين أن الرغبة في وضع أنفسهم في مكانة أعلى من غيرهم ستنتقل من الدولة إلى الأفراد، ولكن ستتجه تلك الرغبة في علو وكبرياء نحو أي شيء أقل منهم شأناً، وفي واقع الأمر إن هذا الاتجاه موجود، فبخلاف الدول والطبقات يظهر لدى الناس رغبة في أن يصبحوا أسياداً لكل شيء، فحينما سافر الإنسان بالطائرة من الشرق إلى

الغرب في غضون سويعاتٍ قليلة، انتشى البشر كلهم فخراً بأنفسهم وعلواً على باقي المخلوقات، يضاف إلى ذلك أن الإمبريالية هي نتاج دعوة أصحاب الفكر والضمير الحديث، فالإنسان، وليس الدولة أو طبقة معنية، هو الذي أثنى نيتشه وسوريل وبرجسون على عقله وذكائه عندما جعل من نفسه سيداً على هذا الكون، والإنسانية، وليس مجرد قسم منها مهما كان، هي التي دعانا أوجست كونت إلى إقرارها وجعْلِها مقصداً دينياً؛ فقد يظن إنسانٌ أن هذه الحركات والاتجاهات سوف تنمو وتكون لها قوة ونفوذاً، وأن هذه الحروب الدائرة بين البشر ستضع أوزارها، وبهذا تحقق الإنسانية «الأخوية العالمية»، ولكن إلغاء الروح القومية بمغرياتها وغطرستها يبدو بعيد المنال، وسيكون النموذج الأسمى هو أن تجعل الأمة نفسها هي البشرية والعدو هو الله؛ وبعد ذلك ستتوحد هذه الإنسانية في جيش هائل وفي مصنع كبير، ولن تعرف غير البطولات وفروع المعرفة والاختراعات، وستنكر أي عمل حر ومجرد، ولن تعود تقدم الخير خارج عالمها الحقيقي، ولن تتخذ إلهاً غير رغباتها وذاتها، ولكنها في النهاية ستحقق أشياء عظيمة؛ وأقصد بذلك أنها ستحقق هيمنة كبيرة على الأحداث المحيطة بها، وستسعد تلك الإنسانية بما ربحته من نفوذ وعجرفة سلطوية، وسيقف التاريخ ساخراً من البشرية التي ضحى من أجلها سقراط والمسيح.

.1927-1924



خيانة المثقفين

في هذا الكتاب يضع المؤلف يده على مشكلة بل كارثة كبرى أصابت البشرية من الحضارة الحديثة، سببها الرئيسي أنها تركت السماء ونظرت إلى الأرض وحدها، هذه الكارثة هي التحول في المفاهيم، وهو يبذل جهداً كبيراً لتوضيح المصيبة التي نتجت عن هذا التحول رغم أن البشرية منذ الأزل كانت ترتكب الخطايا، بل نراه يتحدث عن أن تصرفات البشر دائماً دنيئة ما لم يكونوا من رجال الدين، ولكن عندما يصبح الخطأ هو الصواب والصواب هو الخطأ في الذهن البشري ينتج عن ذلك الكوارث التي وقعت في زمنه بالإضافة إلى التي توقعها مستقبلاً.

وفي رصده لهذا التحول يعرض لنا المؤلف المعضلة التي واجهها المثقف، إما أن يعطي موافقته على الواقعية المادية النفعية ويخون بذلك مثاليته، أو يواجه العقوبة الصارمة والتي تصل إلى حد الموت إذا أصر على دعم الصواب فيضعف بذلك موقف دولته، وإن عدم وقوفه هذا الموقف الصلب وانضمامه إلى السياسيين سيحول العالم إلى فوضى.

ويهمنا فيما عرضه من أمثلة الانحراف ما أصاب فئة المؤرخين الذين صاروا أدوات بأيدي السلطات الحاكمة ولا يؤدون ما تمليه عليهم مهنتهم الأكاديمية، فقد تركوا التاريخ الواقعي وسردوه بما يناسب مشاعر أوقاتهم، يغيّرون التاريخ لتمجيد الوطن أو النظام الحاكم، وهو ما نتج عنه الحروب القومية والأهلية، فهم خدام للمادة وللحزب وللدولة الوطنية يرون الحق ما أدى إلى عظمتها بغض النظر عن مدى صلته بالحقيقة، ويحرمون السياسي من سماع القول المعارض الذي هو ضروري لمصلحة الدولة.

من تقديم محمد شعبان صوان

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3
محل رقم 1، المحمدية
تلفاكس: 88 97 25 41 213+
خلوي: 03 76 20 661 213+
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

الحمراء - شارع ليون - برج ليون، ط6
بيروت-لبنان - ص. ب. 113/6058
خلوي: 28 28 69 3 961+
هاتف: 37 04 74 1 961+
email: rw.culture@yahoo.com

ISBN 978-614-466-079-9

